

تَفْرِيجُ الْهَمِّ

بِتَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَجُزْءِ عَمِّ

أَعَدَّهُ وَكَتَبَهُ

أَبُو أَيُّوبَ عَمْرٍو بَنُ سَعِيدٍ بَنُ عَمْرِو الْحَسَنِ

hasaney8@gmail.com

hasaney8@hotmail.com

00966508513637

00967735544371

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا تـجد له وليا
مرشدا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

أما بعد:.

فقد أشار علي بعض الأخوة بتحرير تفسير ميسر لجزء عم، أجمعه من
أقوال المفسرين المعتمد على تفسيرهم كالإمام ابن جرير وابن كثير وغيرهما
من أئمة التفسير، ولما كان الرأي سديدا والأمر رشيدا حثت الهمة وبادرت
إلى ما أشار به علي، مستعينا بالله ﷻ ودأبت فيه أياما وليالي، تتابع
أحيانا وتتقطع أحيانا أخرى بسبب الظروف وحسب الإمكان، حتى من الله
علي بإكماله على هذه الصورة التي رضيت عنها، والله أسأل أن يرضى

عني بها وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفعني به في حياتي وبعد مماتي.

هذا وقد كان سبب الاختيار لهذا الجزء دون غيره، حاجة الناس الماسة إلى شرح وبيان معاني هذا الجزء المبارك من القرآن الكريم، وذلك لتكرر سوره أكثر مما سواها من سور القرآن الكريم على أسماع الناس في الصلوات الجهرية.

ولما كان عهد الناس بعيدا بلغتهم العربية الفصحى، ومعرفة الكثير منهم ضئيلة بكتاب ربهم حتى أن الواحد منهم ربما قرأت عليه الآية تلو الآية لا يعرف معناها، ولا يفهم المراد منها، وما كأنه يقرأ عليه قرآن عربي مبين، لما كان الأمر كذلك رأينا الناس يقرأون ولا يعملون، لأنهم لا يفهمون ما يقرأون.

هذا وقد حرصت على أن يكون وسطا، بعيدا عن الإختصار المخل والتطويل الممل، شاملا جميع الآيات والكلمات التي تحتاج إلى شرح وبيان بمفرداتها وبمجموعها، حتى وإن تكررت مواضعها مركزا فيه على المعاني

والمواعظ وإبراز الفوائد الخفية ما استطعت إلى ذلك سبيلا، ولست أدعي أنني قد أحطت بذلك ولكن قربت المراد ووضحت المقصود، وإلا فمن ذا الذي يحيط بكلام الله علما أو يستقصي فوائده، وهو تنزيل العزيز الحميد الحكيم ﷻ؟!

وقد حرصت فيه على حشد الآيات القرآنية الدالة على معنى الآية في تفسيرها، لأن القرآن مثاني يفسر بعضه بعضا.

وذكرت في أوائل السور ما صح من أسباب النزول للسورة، وإن كان السبب خاصا بآية بعينها دون ما سواها من آيات السورة ذكرته تحتها.

وأوردت في تفسير الآيات الأحاديث الصحيحة والحسنة الدالة على معنى في الآية، أو المتعلقة بها في تفسيرها أو في باب خاص في أول تفسير السورة، وذلك لأن في السنة بيان ما أجمل في القرآن الكريم.

وطريقتي في الأحاديث أن أختار الأكثر دلالة والأقرب معنى، وأقدم بعضها على بعض حسب ما أراه مناسبا للموضوع، واكتفي بالعزو للصحيحين أو لأحدهما إن كان الحديث فيهما أو في أحدهما.

وكذلك إن كان الحديث في السنن الأربع أو في مسند الإمام أحمد أكتفي بالعزو إلى السنن أو المسند ولا أتوسع في التخريج.

وقد حرصت على أن لا أذكر حديثاً إلا بعد العلم بصحته أو حسنه، ولم أذكر ما هو دون ذلك، وإن ورد في تفسير الآية قولان أو أكثر للعلماء، اكتفيت بذكر القول الراجح في الغالب، إلا إن كان للقولين وجهين محتملين لم يمنع من إجرائهما مانع ذكرتهما جميعاً.

هذا وقد سميته **” تفريج الهم بتفسير سورة الفاتحة وجزء عم ”**

أسأل الله أن ينفعني به وسائر المسلمين، وأن يتقبله مني، ويدخلني ووالدي برحمته في عباده الصالحين، كما أسأله أن يجزي خيراً من أعان أو أشار أو ساعد على إتمامه وإكماله، إنه سميع قريب مجيب.

هذا وصل اللهم وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

قاله محرره / أبو أيوب عمر بن سعيد بن عمر الحسني

أصيل الجمعة ٢٠ / ربيع الثاني ١٤٢٧ هـ

مثلث عاهم - حرض

الإستعاذة وما يتعلق بها

حكمها

حكمها الوجوب عند ابتداء قراءة القرآن، لقول الله تعالى [فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ] {النحل: ٩٨} .

وقتها

وقتها عند ابتداء قراءة القرآن، سواء في الصلاة أو في غيرها، لأن الله تعالى قال: [فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ] {النحل: ٩٨} . أي: إذا أردت القراءة، كما بينه فعل الرسول ﷺ، وهذا كقوله تعالى "إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم" أي إذا أردتم القيام.

وقد جاء بيان ذلك عند أبي داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبر ثم يقول: "الله أكبر كبيرا". ثلاثا "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه". ثم يقرأ.

صيغها

لها صيغ متعددة منها: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كما هو ظاهر الآية، وكما سيأتي في حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه.

ومنها: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، كما في حديث أبي سعيد السابق.

ومنها: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه، كما جاء عند ابن ماجة عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه". قال: همزه الموتة، ونفثه الشعر، ونفخه الكبر.

فهي تحصل بكل ما أفاد التجاء العبد إلى ربه من الشيطان الرجيم، غير أن الصيغة الأولى هي المشهورة والعمل عليها عند أكثر الناس.

فضاها

عن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: استب رجالن عند النبي صلى الله عليه وسلم ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني

لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟. فقال: إني لست بمجنون. رواه البخاري ومسلم.

متى يجهر بها، ومتى يسر؟

أما في الصلاة فإنه يسر بها دائماً، إذ لم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه جهر بها فيها، كما أنه لم يصح في حديث صحيح صريح الجهر بـ "بسم الله الرحمن الرحيم" فيها.

وأما خارج الصلاة فقد استحب العلماء أن يجهر بها حيث يجهر بالقراءة، ويسر بها حيث أسر بالقراءة.

(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)

تفسير وبيان

أعوذ: ألتجأ وأعتصم واستجير.

الشيطان: مشتق من الشطن وهو البعد، يقال تشيطن أي فَعَلَ فِعْلَ الشَّيْطَانِ، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، ولهذا يسمون كل من تمرد من الجن والإنس شيطانا، كما قال الله تعالى (شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا). وكما قال تعالى (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شياطينهم قالوا إنا معكم).

الرجيم: فعيل بمعنى مفعول أي مرجوم، والمعنى مطرود من كل خير. ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: أستجير بجناب الله، وأعتصم به من الشيطان الفاسق العاصي، الداعي إلى الفحشاء والمنكر، والبعيد عن كل خير ومعروف، الذي قد طرد من رحمة الله وجنته، وطرد عن كل خير، فأصبح مرجوما طريدا، أعوذ بالله منه أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه.

لطيفة في معنى الإستعاذة

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: ومن لطائف الإستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطيب له لتلاوة كلام الله، وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني، الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان، كما دلت على ذلك آيات من القرآن، في ثلاث من المثاني، وقال تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، وكفى بربك وكيلًا).

وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري، فمن قتل العدو الظاهر البشري كانا شهيدا، ومن قتله العدو الباطني كان طريدا، ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجورا، ومن غلبه العدو الباطني كان مفتونا أو موزورا، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه، استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان" أ هـ .

تفسير سورة الفاتحة

سورة الفاتحة مكية، وعدد آياتها سبع آيات، نزلت بعد سورة المدثر، ترتيبها في المصحف الأولى، وترتيبها في النزول الخامسة.

باب في أسمائها

يقال لها الفاتحة: لأنها افتتح بها كتاب الله، وتفتتح بها الصلوات.

ويقال لها أم الكتاب، وأم القرآن، وأساس القرآن: وذلك لأنها يبدأ بكتابتها في المصاحف، وبقراءتها في الصلاة، وهي جامعة لمعاني القرآن، والعرب تسمي كل جامع أمًا وإمامًا.

ويقال لها الصلاة: لأنها ركن فيها، كما سيأتي في حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما.

ويقال لها الرقية، والشفاء: لما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وسيأتي.

ويقال لها الكافية: لأنها تكفي عما عداها في الصلاة، ولا يكفي ما سواها عنها.

ويقال لها السبع المثاني: لأنها تتلى في كل ركعة من الصلاة.

باب في فضلها

عن أبي سعيد بن المعلى ؓ قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: "ألم يقل الله: (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم إلى ما حييكم) ثم قال لي: "لأعلمنك سورة، هي أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد". ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟. قال: "الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته". رواه البخاري.

وعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ "أُمُّ القرآن: هي السبع المثاني والقرآن العظيم". رواه البخاري.

ورواه الترمذي ولفظه "الحمد لله: أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني". وعن أنس ؓ قال: كان النبي ﷺ في مسير له، فنزل ونزل رجل إلى جانبه فالتفت إليه، فقال: "ألا أخبرك بأفضل القرآن". قال: فتلا عليه (الحمد لله رب العالمين). رواه النسائي في عمل اليوم والليلة.

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ خرج على أبي بن كعب ؓ فقال رسول الله ﷺ "يأبأيّ". وهو يصلي فالتفت أبي فلم يجبه، وصلى أبي فخفف، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: "وعليك السلام، ما منعك ياأبأيّ أن تجيبني إذ دعوتك؟". فقال: يا رسول الله إني كنت في الصلاة، قال: "أفلم تجد فيما أوحى الله إليّ أن (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) قال: بلى ولا أعود إن شاء الله، قال: "أتحب أن أعلمك سورة، لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها". قال: نعم يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: "كيف تقرأ في الصلاة". قال: فقرأ أم القرآن، فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وعن أبي سعيد الخدري ؓ قال: انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن

يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتهم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله يكون عند بعضهم شيء؟. فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فهل عند أحد منكم شيء؟. فقال بعضهم: نعم، والله إنني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جُعلا، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتقل عليه ويقرأ (الحمد لله رب العالمين) فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قلبه، قال: فأوفوهم جُعْلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقساموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له، فقال: "وما يدريك أنها رقية؟". ثم قال: "قد أصببتكم، اقساموا واضربوا لي معكم سهما". فضحك النبي ﷺ. رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ، سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: "هذا باب من السماء فتح اليوم لم

يفتح قط إلا اليوم". فنزل منه ملك، فقال: "هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم". فسلم، فقال: "أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته". رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خداج" ثلاثا "غير تمام". فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قال الله تعالى: 'قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدني ما سأل' فإذا قال العبد: (الحمد لله رب العالمين). قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال (الرحمن الرحيم). قال الله تعالى: 'أثنى علي عبدي'. وإذا قال: (مالك يوم الدين). قال الله تعالى: 'مجدني عبدي'. وقال مرة: فوّض إلي عبدي. فإذا قال: (إياك نعبد وإياك نستعين). قال: 'هذا لعبدي، ولعبدني ما سأل' فإذا قال: (اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين) قال: 'هذا لعبدي ولعبدني ما سأل'. رواه مسلم.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله قال: قال رسول الله ﷺ "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب". رواه البخاري ومسلم.

تفسير وبيان

[بسم الله الرحمن الرحيم (١)]

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧).]

قوله ﷻ (بسم الله الرحمن الرحيم) أما "بسم الله" فالجار والمجرور متعلق بمحذوف يقدر فعلا متأخرا مناسبا لما يراد من التسمية عليه، فهنا يقدر باسم الله أقرأ.

وإنما قدر متأخرا تقدما لاسم الله على غيره، وتبركا به، ثم ليفيد الحصر، فيكون المعنى باسم الله وحده أقرأ لا باسم أحد غيره.

وإنما قدر فعلا لأن الفعل هو الأصل في العمل، إذ الأسماء لا تعمل إلا بشروط، وإنما قدر مناسبا ليكون أدل على المقصود، فيكون في الأكل: بسم الله آكل، وفي القراءة: بسم الله أقرأ، وفي الذبح: باسم الله أذبح، وهكذا.

تفريخ الهمم بتفسير سورة الفاتحة وجزء عمّ

وقوله "باسم الله" مفرد مضاف فيفيد العموم، فيكون المعنى بكل اسم لله. ولفظ الجلالة "الله" عَلَّمَ على الرب تبارك وتعالى، وهو أصل الأسماء الحسنى، ولهذا تأتي الأسماء تابعة له، كما قال تعالى "والله الأسماء الحسنى فادعوه بها".

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة". فأضاف كل الأسماء في الآية والحديث إلى لفظ الجلالة (الله)، فدلّ على أنه أصلها.

ويقال أنه الاسم الأعظم، لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى [هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ] {الحشر: ٢٢}.. الآيات".

ومعنى الله: أي المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال، فهو وحده المستحق لإفراده بالعبادة.

ويستحب الإبتداء بـ "بسم الله" في كل عمل رجاء بركتها، وقد تجب في بعض الأعمال التي أمر الشرع بالبداة بها فيها كالوضوء والأكل، لما جاء في مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: "لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه".

ولما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيبة عمر بن أبي سلمة: "يا غلام: سمّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك".

وتجب أيضا عند الذبح، لقول الله تعالى: [وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ] {الأنعام: ١٢١}. وجاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: "ليذبح باسم الله".

وتستحب عند دخول الخلاء، لما جاء عند الترمذي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا دخل أحدهم الخلاء، أن يقول: بسم الله".

وتستحب عند الجماع، لما جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم

الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقَدَّر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً".

وتستحب في أمور أخرى كقولها عند زيارة المريض وحين الشرب وحين دخول البيت والكتابات وغير ذلك مما هو مذكور في مظائنه، كل ذلك لبركتها وبركة الإبتداء بها. والله أعلم.

وقوله ﷺ (الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على صيغة المبالغة، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم، حتى قيل أن رحمن معناها: رحمة عامة بالخلق أجمعين، ورحيم رحمة خاصة بالمؤمنين كما قال تعالى [وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا] {الأحزاب: ٤٣}.

حتى أن بعض العلماء ذكر أن هذا هو السر في ذكرها دائما دون غيرها في الآيات التي تتحدث عن استواء الرحمن جل وعلا على عرشه .

وهذه الرحمة التي وصف الله بها نفسه رحمة حقيقية، دل عليها الكتاب والسنة، وظهرت آثارها على الخلق قال الله تعالى " ورحمتي وسعت كل شيء ".

فالرحمن الرحيم: إسمان من أسماء الله، يدلان على ذات الله، وعلى اتصافه بالرحمة، وعلى الأثر: أي على الحكم الذي تقتضيه هذه الصفة. نسأل الله أن يرحمنا برحمته الواسعة وأن شملنا بعفوه العظيم .

مسألة: هل بسم الله آية من الفاتحة أو لا ؟

الجواب: اختلف العلماء رحمهم الله في هذا، والراجح من أقوالهم في ذلك أنها آية منها، لما جاء عند الدارقطني وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا قرأتم الحمد لله فاقروا: (بسم الله الرحمن الرحيم) إنها أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني، و(بسم الله الرحمن الرحيم) إحداها". وهذا حديث إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات، ولا يضر أنه جاء في بعض الروايات موقوفا، إذ الموقوف لا يعمل المرفوع، لأن الراوي قد يوقف الحديث أحيانا لأمر ما، فإذا رواه مرفوعا . وهو ثقة. فهو زيادة ثقة يجب قبولها منه.

وإذا ثبت هذا فإنه نص في محل النزاع فيجب المصير إليه، ولا عبرة بمن خالفه، وإنما ذهب إلى خلافه من لم يبلغه، أو من لم يصح عنده، والحديث صحيح بلا ريب، فثبت أن البسمة آية من سورة الفاتحة والله أعلم.

ولا يرد على هذا أنه ﷺ لم يكن يجهر بها فيما يجهر فيه من الصلوات الجهرية مع الفاتحة، فإن ذلك لا يعني أنه لا يقرأ بها، بل يقرأ بها ولكن سرا، كما هو ثابت في الأحاديث الصحيحة ومنها حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته "بسم الله الرحمن الرحيم".

"الحمد لله رب العالمين". "الرحمن الرحيم". "مالك يوم الدين". وهو حديث صحيح رواه أحمد وأبو داود وغيرهما، وهذا هو القول الراجح الذي تدل عليه الأدلة ويقتضيه الجمع بين الأحاديث الصحيحة، ويتعين المصير إليه لمن نظر بإمعان في نصوص الأحاديث وخلع ربة التقليد عن عنقه، ونحن متعبدون بما شرع لنا رسول الله ﷺ، نجهر حيث جهر بما جهر، ونسر حيث أسر بما أسر، وللمسألة بسط في غير هذا الموضع، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقوله تعالى: (الحمد لله رب العالمين) الألف واللام في الحمد للاستغراق،

أي: استغراق جميع المحامد لله تعالى.

والحمد: هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

ولام الجر في لفظ الجلالة للاختصاص والاستحقاق، والرب: هو الخالق

المالك المدبر لجميع من هم تحت ربوبيته، والعالمين جمع عالم . بفتح اللام

- والمقصود به كل ما سوى الله تعالى، وسمي العالم عالماً اشتقاقاً من

العلامة، لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ومدبره وهو الله تعالى.

والحاصل: أن هذا ثناء أثنى الله به على نفسه في ابتداء كتابه، وعلمه

خلقه ليثبوا به عليه تعالى، لأنه يتضمن قدرة الله ووحدانيته، وغناه عن

العالم وفقر العالم إليه، وملكه لما في السموات وما في الأرض وما بينهما،

فهي كلمة من جوامع الكلم لو أرسلت الأقلام في شرحها واستقصاء معانيها

لما أحاطت بها، وهذا من إعجاز القرآن الكريم وبلاغته وإحاطته وشموليته.

وقوله تعالى: (الرحمن الرحيم) صفة لله تعالى الذي استحق الحمد واختص

به، وقد سبق الكلام عليها في البسمة.

وقد قيل: إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله رب العالمين ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب، فالرب فيه ترهيب، والرحمن الرحيم فيه ترغيب، وهذا ما جرى عليه سياق القرآن الكريم من قرنه بين ذلك كثيرا والله أعلم.

وقوله جل شأنه (مالك يوم الدين) هذه صفة لله تعالى، وقُرئ "مَالِك" و"مَلِك" بالمد وتركه، وكلا القراءتين ثابتة، ومالك أعم من ملك، لأن من الخلق من يكون ملكا ولا يكون مالكا، ومالك مأخوذ من المَلِك . بكسر الميم - وهو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى ويثيب ويعاقب ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات.

و"يوم الدين" هو يوم القيامة، سمي بيوم الدين لأن فيه يدان الخلق بأعمالهم، أي يجازون بها، إن خيرا فخير وإن شرا فبما كانوا يعملون، يقال دِنْتُهُ بما صنع دينا . بفتح الدال وكسرهما . جزيته، ومنه كما تدين تدان، والله هو الديان: أي المجازي بالعدل لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتخصيص ملكه تعالى بيوم الدين لا ينفي ملكه لما سواء، كما تقدمت الإشارة في قوله رب العالمين، وإنما أضيف ملكه ليوم الدين لأن في ذلك اليوم يظهر للخالق تمام الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته وانقطاع ملك الخالق، كما قال تعالى عن ذلك اليوم (لمن الملك اليوم، لله الواحد القهار) فالخالق ملكهم ومملوكهم بين يديه يومئذ سواء، كلهم مذعنون لعظمته، خاضعون لعزته، راجون لثوابه، خائفون من عقابه، كما قال تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا، يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) فلذلك خصه بالذكر هنا من بين سائر الأيام، وإن كان هو المالك حقا ليوم الدين وغيره والله أعلم.

وقوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين) إياك مفعول به مقدم، ونعبد عامله، وقدّم لإفادة الحصر، فيكون المعنى لا نعبد إلا إياك.

وكذا القول في إياك نستعين لمّا قدم المفعول وكرر أفاد الاهتمام والحصر.

وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب لأنه لما أثنى على الله بما هو أهله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى.

وقوله "تعبد" و"تستعين" إنما جاءت بالنون لأن المراد بها الإخبار عن جنس العباد، والمصلي والتالي فرد منهم لا سيما إذا كان في جماعة أو إماما لهم، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا من أجلها، وتوسط لهم بخير.

وتقديم العبادة على الإستعانة من باب تقديم العام على الخاص، واهتماما بتقديم حقه تعالى على حق عبده، ولأن العبادة وسيلة للإجابة، وتقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب إلى الإجابة.

والعبادة في اللغة: مأخوذة من الذلّة، يقال طريق معبد أي مذل، وفي الشرع: إسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

والاستعانة: هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

فأفادت الآية تبرؤ العبد من الشرك، وإخلاصه العبادة لله وحده، كما أفاده أسلوب الحصر، وكذا تبرؤه من الحول والقوة، وبيان افتقاره إلى ربه في جميع أموره، ولذا قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة "إياك نعبد وإياك نستعين".

فجملة إياك نعبد مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بجملة إياك نستعين، لأن العبد محتاج في جميع عباداته إلى الإستعانة بربه تعالى، فإنه إن لم يُعنه الله لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر واجتناب النواهي، وهذا كما قال الله تعالى (المن شاء منكم أن يستقيم، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين).

وقوله ﷻ (إهدنا الصراط المستقيم) الهداية: هي الدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب.

وهي قسمان: هداية دلالة وإرشاد، وهذه حاصلة لجميع الناس كما قال تعالى (وهديناه النجدين) أي بينا له طريق الخير وأرشدناه إليه، وبيننا له طريق الشر ونهيناه عنه.

والقسم الثاني: هداية توفيق وهذه لا يحوزها إلا المؤمنون الذين وفقهم الله لاتباع دينه.

والصراط: هو الطريق، والمقصود هنا: الطريق الموصل إلى رضوان الله تعالى وجنته وهو الإسلام، كما ثبت في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا، ولا تعوجوا. وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال: ويحك، لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم". رواه أحمد.

والمستقيم: هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وهو صفة للصراط. ومعنى الآية: وقفنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

وهذا الدعاء من أجمع الأدعية للعبد وأنفعها له، ولذا شرع الله له الدعاء به في كل ركعة من صلاته لحاجته إليه وضرورته له، إذ العبد محتاج ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية وتوفيقه إليها وتثبيتته عليها ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله.

وانظر- رحمك الله - كيف قدم قبله الثناء بصفات الكمال ونعوت الجلال على الرب المتعال، ثم جاء به بعد ذلك لأن هذا أكمل أحوال السائل، أن يمدح مسئوله ثم يسأل حاجته، وهذا أنجح لحاجته وأنجع لإجابته.

وقوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين) هذا بيان للصراط المطلوب أن يُهدى إليه في الآية السابقة، وهذا يسمى عند النحويين بعطف البيان.

وتقدير معنى الآية: اهدنا إلى سلوك صراط الذين أنعمت عليهم، الذي هو غير صراط المغضوب عليهم ولا صراط الضالين.

وأكد الكلام بـ "لا" ليدل على أن ثمّ مسلكين فاسدين، وهما طريقة اليهود، وطريقة النصارى، فيلتجئ العبد المؤمن إلى ربه أن يعيذه من سلوكهما وأن يبعده عنهما.

وقوله جل شأنه **(الذين أنعمت عليهم)** المقصود بذلك الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين كما قال تعالى **(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا)**.

وقوله تعالى **(غير المغضوب عليهم)** المقصود بذلك اليهود، ويدخل في ذلك من اتصف بصفاتهم بأن علم الحق ثم لم يعمل به، وذلك أن اليهود عرفوا الحق وانحرفوا عنه، فاستحقوا مع ضلالهم غضب الله، فكان أخصّ أوصافهم الغضب كما قال تعالى عنهم **(قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل)**.

وقوله تعالى (ولا الضالّين) المقصود بذلك النصارى، ويدخل في ذلك من اتصف بصفّتهم بأن عبد الله على جهل، وذلك أن النصارى جهلوا الحق وعموا عنه فضلوا وأضلوا، فاستحقوا مع ضلالهم غضبَ الله، وكان أخص أوصافهم الضلال كما قال تعالى عنهم (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيرا، وضلوا عن سواء السبيل).

وقد جاء عند الترمذي وغيره عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله "اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال".

والحاصل: أن الله قد شرع لعباده المؤمنين الدعاء بهذا الدعاء الفذ، الجامع لصفات الخير من سؤال الهداية إلى سلوك طريق أهل الإيمان، المشتمة على العلم بالحق والعمل به، والبعد عن طريقة المغضوب عليهم والضالّين من اليهود والنصارى ومن سلك مسالكهم، وذلك لأن اليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم، ولهذا الغضب لليهود لأن من علم وترك العمل استحق الغضب بخلاف من لم يعلم، والنصارى ضلال وذلك لما كانوا

قاصدين شيئاً لكنهم لم يهتدوا إلى طريقه، إذ لم يأتوا الأمر من بابه . وهو اتباع الحق . بل اتبعوا أهواءهم، فضلوا وأضلوا غيرهم، وهكذا كل من مشى على شاكلتهم من أهل البدع فإن أمرهم كأمرهم وعاقبتهم كعاقبتهم.

لطيفة: قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى كما في (مدارج السالكين):

" وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول (إياك نعبد) تدفع الرياء و(إياك نستعين) تدفع الكبرياء ، فإذا عوفى من مرض الرياء ب (إياك نعبد) ومن مرض الكبرياء والعجب ب (إياك نستعين) ومن مرض الضلال والجهل ب (اهدنا الصراط المستقيم) عوفى من أمراضه وأسقامه ورفل في أثواب العافية وتمت عليه النعمة وكان من المنعم عليهم (غير المغضوب عليهم) وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه و(الضالين) وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه ، وحق لسورة تشتمل على هذين الشفّاعين أن يستشفى بها من كل مرض ، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفّاعين كان حصداً الشفاء

الأدنى بها أولى كما سنبينه فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله وكلامه وفهمت عنه فهما خاصا اختصها به من معاني هذه السورة .

تعقيب: يستحب لمن قرأ الفاتحة في الصلاة حتى أتمها، أو سمع إمامه يقرأ بها أن يقول بعدها: آمين . يعني اللهم استجب لي . وذلك لأنه دعا بدعاء عظيم يرجى إجابته، واتباعا لسنة رسول الله ﷺ كما جاء عند أحمد وأبي داود والترمذي عن وائل بن حجر ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ "غير المغضوب عليهم ولا الضالين" فقال: "آمين" . ومد بها صوته.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه". قال ابن شهاب: وكان رسول الله ﷺ يقول: "آمين".

ومعنى وافق تأمينه تأمين الملائكة: أي في الزمان أو في الإخلاص، وقيل في الإجابة.

ومما يدل على فضل التأمين خلف الإمام: ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ "ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين". رواه ابن ماجة بسند صحيح.

ويؤمن الإمام والمأموم والمنفرد كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة المذكورة، خلافا لمن خصّ به بعضهم دون بعض.

وقد تضمنت هذه السورة مع إيجازها أموراً كثيرة لم تتضمنها غيرها من سور القرآن، فقد تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية في قوله تعالى (رب العالمين)، وتوحيد الألوهية في قوله (إياك نعبد، وإياك نستعين) وتوحيد الأسماء والصفات في إثبات صفات الكمال التي أثبتها الله لنفسها في هذه السورة من قوله (الرحمن الرحيم) ونحوها، مما دلّ عليه لفظ الحمد المتضمن للثناء بصفات الكمال ونعوت الجلال.

وتضمنت إخلاص الدين لله، كما أفاده أسلوب الحصر في قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين).

وتضمنت إثبات المعاد، وإثبات الجزاء والحساب، وكمال ملك الله، وقصور ملك ما سواه، كما دلّ عليه قوله جل شأنه (مالك يوم الدين).
وتضمنت الرد على المبتدعة وأهل الضلال الذين جانبوا الصراط المستقيم، إما بعملهم على جهل، أو بترك العمل بما علموا، كما في قوله تعالى (إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين).

ما يستفاد من هذه السورة

١/ إثبات الحمد الكامل لله تعالى، واستحقاقه له واختصاصه به من جميع الوجوه.

٢/ عموم ربوبية الله تعالى لجميع العالم، ومن ثمّ غناه عنهم، وفقرهم إليه.

٣/ إثبات اسمي الرحمن الرحيم لله تعالى بما تضمناه من صفة الرحمة الواسعة العامة والخاصة.

٤/ إثبات ملك الله الكامل التام المطلق الشامل في الدنيا والآخرة.

٥/ إثبات البعث والجزاء والحساب بالعدل والقسط يوم القيامة، ومنه يستفاد

حَثُّ مَنْ آمَنَ بِذَلِكَ عَلَى الاستعداد له بالعمل الصالح والتوبة النصوح.

٦/ وجوب إخلاص العبادة لله تعالى، وتوحيده في ذلك، كما يستفاد من

أسلوب الحصر.

٧/ وجوب الإخلاص في الإستعانة بالله رب العالمين في أمور الدنيا

والدين.

٨/ تبرؤ الإنسان من حوله وقوته، والتعلق بمالكها وهو الله عَزَّ وَجَلَّ، وفي ذلك

إشارة إلى أن العبد لا يستطيع شيئاً بغير إذن مولاه.

٩/ إرشاد العباد إلى سؤال الله والتضرع إليه، وطلب العون منه والهداية إلى

الصراط المستقيم، وفي هذا إشارة إلى أن العبد لا يملك لنفسه هداية ولا

توفيقاً إلا بعد أن يأذن الله ويمُنَّ عليه بذلك.

١٠/ تعليم العبد اللجوء إلى ربه بعد استعانته به على أن يهديه الصراط

المستقيم، فيه إشارة إلى أن من لزم الصراط في الدنيا ثبت علي الصراط

في الآخرة.

١١ / الإشارة إلى أن الصراط قسمان: مستقيم وهو طريق الأنبياء وأتباعهم،

ومعوج: وهو طريق الضلال ومن مشى على سابلتهم.

١٢ / الإشارة إلى أن أعظم منة ونعمة هي نعمة الهداية من الضلال .

١٣ / إسناد النعمة إلى الله وحده في هداية المهتدين من العباد، وفيه معنى

قول الله تعالى "الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا

الله".

١٤ / عدم إسناد الشر إلى الله ﷻ، وإنما جاء على صيغة المفعول والفاعل

في قوله المغضوب والضالين، وفي هذا معنى قوله ﷻ "والشر ليس إليك".

تفسير سورة النبأ

وتسمى سورة عم

سورة النبأ مكية، نزلت بعد سورة المعارج، عدد آياتها ٤٠ آية، ترتيبها في المصحف {٧٨}، وترتيبها في النزول {٨٠}.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)].

قوله تعالى (عَمَّ يتساءلون) أصل عم: عن ما، فأدغمت النون في ما الإستفهامية، وحذفت ألف ما للتخفيف، فصارت هكذا عم.

والمعنى: عن أي شيء يتساءل هؤلاء الكفار فيما بينهم البين.

وفي هذا الإستفهام وإبهام المستفهم عنه إشعار بفخامة أمره وتشويق إلى معرفة شأنه، ثم بين تعالى ذلك بقوله (عن النبأ العظيم) النبأ: هو الخبر، ووصفه بالعظيم دليل على عظمة شأنه، والمقصود به البعث بعد الموت.

وقوله تعالى (الذي هم فيه مختلفون) بيان لحالهم في تكذيبهم بالبعث بعد الموت، بين منكر جاحد، وبين جازم باستحالته، وبين مستهزئ بمن يؤمن به، مع أنه حق لا شك فيه ولا ريب، قد قامت الأدلة الكثيرة الظاهرة على إمكان وقوعه، وعلى سهولته ويسره على الله تعالى الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو على كل شيء قدير، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

وقوله تعالى (كلا سيعلمون) كلا زجر وردع عما هم فيه من التساؤل والاختلاف وإنكار البعث والمعاد.

وقوله (سيعلمون) تهديد شديد ووعيد أكيد بأنهم سيعلمون إذا وقع عليهم وحلّ بهم أنه حق وصدق، وهناك لا ينفعهم علمهم ولا إيمانهم ولا تصديقهم إذ ذاك شيئاً، إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحقاق بهم ما كانوا به يستهزؤون.

وقوله تعالى (ثم كلا سيعلمون) توكيد للجملة الأولى من حيث المعنى، وفي ذلك إشارة إلى أنهم مبعوثون حقا، وسيلاقون ما كانوا به يكذبون، وسيتبين لهم حقيقة ما كانوا فيه يختلفون.

ثم ذكر تعالى من الأدلة الظاهرة للعيان والتي لا يسعهم إنكارها، ولا مناص لهم من الاعتراف والإقرار بها ما يدل العاقل المنصف على إمكان ذلك الأمر الذي هم به مكذبون، فقال تعالى (ألم نجعل الأرض مهادا) الاستفهام للتقرير والتقريع، والمعنى ألم ننعم عليكم بنعم عظيمة جليلة، وخلقنا لكم من الأشياء التي تعجزون عنها ما لو اجتمعتم جميعا ما استطعتم المجيء به، من مثل جعل الأرض مهادا أي فراشا موطئا كالمهد، وذلك لتتمكنوا من الحياة عليها والاستقرار فوق ظهرها والتقلب في أنحاءها والانتفاع بما أودعناه لكم فيها من المنافع والخيرات الكثيرة الوفيرة، وهذا كقوله تعالى (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور).

وعبر تعالى بلفظ الجمع (نجعل) مع أنه لا شريك له في ذلك ولا معين إنما عبر بذلك ليدل على التعظيم وهو العلي العظيم .

وقوله تعالى (والجبال أوتادا) الجملة معطوفة على سابقتها، وكذلك سائر الآيات الآتية معطوفة على الجملة الأولى، وهي قوله تعالى (ألم نجعل الأرض مهادا).
الأرض مهادا).

وقوله (أوتادا): الأوتاد جمع وتد، وهو ما يغرز في الأرض لتثبيت الخيام ونحوها.

والمعنى: ألم نُنعم عليكم بالجبال التي تثبت لكم الأرض وتجعلها مستقرة غير مضطربة، تسرحون فيها وتمرحون كيف شئتم، آمنين مطمئنين من اضطرابها بكم، وهذا كقوله تعالى (وألقى في الأرض رواسي أن تُميد بكم).
وقوله تعالى (وخلقناكم أزواجا) أي: خلقناكم ذكورا وإناثا من جنس واحد، ليسكن بعضكم إلى بعض، ويتلذذ بعضكم ببعض، وتتشأ الذرية، ويبقى النسل، وتسود المودة، وهذا كقوله تعالى (ومن آياته أن جعل لكم من

أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون).

وقوله تعالى (وجعلنا نومكم سباتاً) سباتاً: من السبت وهو القطع، يقال سبَّته: أي قطعه، والمعنى: جعلنا نومكم قاطعاً لحركتكم، والتي لو تبادت لأضرت بصحتكم وأبدانكم، فجعلنا النوم في الليل لتسكنوا وتستريحوا، ثم إن النوم ينقطع ولا يمتد بل يكون خفيفاً حتى لا يختل أمر معاشكم، فتستيقظوا ونشاطكم متجدد وعزيمتكم قوية، وهذا من آيات الله الظاهرة الباهرة، وهو كقوله تعالى (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغوا من فضله، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون)، وهذه الآية والآيتان بعدها كقوله تعالى في سورة الفرقان (وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً). وقوله جل شأنه (وجعلنا الليل لباساً) أي ساتراً بمنزلة اللباس، فكما أن الأرض تلبسه ويكون جلباباً لها، كذلك تسكن الحركة وتنام العيون.

ومنه يُعلم أن نوم الليل أفضل من نوم النهار، وذلك لأن في الليل تسكن الحركات وتهدأ الخلايا والأعصاب فتأخذ راحتها التامة، بخلاف النهار

الذي تسود فيه الضوضاء والصخب، وهذا من نعم الله الجليّة كما امتن بذلك على خلقه فقال جل شأنه (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون، فيه أفلا تبصرون* قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بضياء، أفلا تسمعون* ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار، لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) أي لتسكنوا في الليل، وتبتغوا من فضله في النهار، وهذا كقوله تعالى في الآية التالية (وجعلنا النهار معاشًا) أي جعلناه وقتًا للمعاش والتكسب وطلب الرزق، وذلك لإشراقه وضياءه ووضوح ما فيه من الأشياء التي يسترزق بها، ويكون أسلم من أن يقع فيه غش في السلع، أو ضلال وتيه في طريق السعي والاكتساب، بخلاف الليل الذي انطمس نوره وذهب ضياؤه، فصار وقتًا للنوم والراحة لا للتكسب والمعاش، وفي هذا المعنى قوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة، لتبتغوا فضلا من ربكم، ولتعلموا عدد السنين والحساب، وكل شيء فصلّناه تفصيلًا).

وقوله ﷻ (وبنينا فوقكم سبعا شدادا) أي وبنينا فوقكم سبع سماوات قوية شديدة محكمة، لا يتطرق إليها خلل ولا فطور على مر الأزمان والدهور، إلى أن يأتي أمر الله، وهذا كقوله تعالى (والسمااء بنيناها بأيد) أي: بقوة، فهي قوية في بنيتها، محكمة في صنعتها، يمسكها ربها أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

وهي سقف للأرض ولكن بلا عمد، لنتجلى القدرة الإلهية في تعددها وكونها طباقا، وتباعد ما بينها، ثم هي مع ذلك لا يسقط بعضها على بعض، ولا تسقط على الأرض، وهذا دليل على إحكام بناءها وشدته وقوته، وكل ذلك دليل على عظمة خالقها وعلمه وحكمته وقدرته، وأنه إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، فسبحان ممسكها ومسخرها لخدمة بني الإنسان (إن الإنسان لظلوم كفار).

وهذه السماوات السبع مع كونها سقفا محفوظا للأرض، فإن فيها منافع كثيرة لأهل الأرض، فمنها يرزقون كما قال تعالى (ورزقكم في السماء وما توعدون) وفيها الشمس والقمر والنجوم، ومنها تنزل الأمطار، ولذلك ذكر

سبحانه وتعالى بعضا مما فيها ليدل العاقل المنصف على ما بقي، فقال
جل شأنه (وجعلنا سراجا وهاجا) والمقصود بذلك الشمس، فهي سراج:
لكونها تنير الكون بضياؤها كما قال تعالى (هو الذي جعل الشمس ضياء
والقمر نورا)، ووصفها بكونها وهاجا لحرارتها الشديدة، مأخوذ من الوهج
وهو الحرارة من بعيد، يقال: وهج النار: أي حرارتها، وتوهجت: أي توقدت،
والناس يعلمون حرارتها الشديدة في أيام الصيف، هذا مع بعدها الشديد
عنا، فما الظن بما يقرب منها، ولذا كانت جامعة بين الإنارة بضوئها وبين
كونها مصدرا للحرارة التي فيها من المنافع للإنسان ما لا يُحد ولا يُعد،
فمنها تستخرج الطاقة الحرارية والكهربائية، وهي سبب في نمو النبات
وإنضاج الثمار، وفي تدفئة الكون، وفي كثير من المنافع الظاهرة الجلية.
وقوله تعالى (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا) المعصرات: هي السحاب
الملتئة ماء والتي قد آن وقت إمطارها، وثجاجا: أي صبا متتابعا كثيرا.

والمعنى: وأنزلنا لكم من السحب التي في السماء ماء كثيرا متتابعا، وهذا
هو الرزق المذكور في قوله تعالى في سورة الجاثية (وما أنزل الله من

السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها) إذ بالغيث حياة الأرض ومن عليها، كما قال تعالى (لنخرج به حبا ونباتا * وجنات ألفافا) فالأرض إذا نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فتبت أنواع الحب من بر وشعير وذرة وأرز مما يأكل الناس، ونباتا: أي خضرا يؤكل رطبا وكذلك سائر النبات الذي جعله الله قوتا للمواشي، وجنات: جمع جنة، وهي الحدائق والبساتين ذات الثمرات الكثيرة والأشجار المتنوعة.

وقوله (ألفافا) أي مجتمعة في مكان واحد حتى أنها تجنّ ما فيها أي تستره لكثرتها والتفاف بعضها على بعض، وهي مع ذلك مختلفة في الطعم والرائحة، كما قال تعالى (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون).

فمن كان هذا فعله وصنيعه فطر ذلك وبرأه، وابتدأ خلقه بحكمته وقدرته، أفيعجزه أن يحيي الأموات بعد كونهم ترابا وعظاما وهو الذي أنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ؟

أليس إعادة الخلق أهون من ابتداءه؟

أو ليس خلق الإنسان لا يعد شيئاً أمام خلق السموات والأرض ؟.

أين عقول أهل الشرك والإلحاد، الذين ينكرون البعث والمعاد، عن تدبر هذه الأمور الظاهرة والبراهين الساطعة الدالة على قدرته تعالى على كل شيء (أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير).

أم أن هؤلاء المختلفين في البعث والنشور، المتسائلين عنه سؤال استعجال وجحود لا عقول لهم تقودهم إلى معرفة ذلك، ولا ضمائر لهم تلزمهم بشكر تلك النعم العظيمة عليهم، والتي لولا الله ما كانت إذ لم تأت من صدفة ولم تجيء من عدم وهل فاقد الشيء يعطي ما فقد؟!

وهل يهب المعدوم شيئاً وهو في نفسه لم يوجد ؟.

ولذلك هددهم تعالى بعد ما أرشدهم إلى ما يدلهم على إثبات البعث والنشور وسهولته على الله ﷻ - هددهم أشد التهديد بمجيء يوم القيامة الأكيد، وبين لهم أن فيه الجزاء والحساب، وأن الناس فيه قسمان حسب

أعمالهم: كافر جاحد للبعث والنشور في نار الجحيم، ومتق مؤمن في جنات النعيم، فقال تعالى:.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَابًا (٢٢) لَا بُشَيْنَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) .

فقوله تعالى (إن يوم الفصل كان ميقاتا) يوم الفصل هو يوم القيامة، سمي بذلك لأن الله يفصل فيه بين العباد أي يقضي ويحكم، فيثيب المطيع ويجازي العاصي وينتصر للمظلوم من الظالم حتى يقاد فيه للشاة الجلاء من الشاة القرناء.

وقوله: (كان ميقاتا) أي وقتا محددًا لا يعلمه إلا الله، جعله الله وقت جزاء للعباد، وهذا كقوله تعالى (وما نؤخره إلا لأجل معدود) ثم شرع تعالى في بيان ما يحدث في ذلك اليوم العصيب من أهوال وشدائد يشيب لها رأس الوليد، لعل ذلك يكون ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد،

فقال تعالى وهو العزيز المجيد (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا)
الصور: قرن وكل الله به ملكا من الملائكة اسمه إسرافيل، فإذا أذن الله
بقيام الساعة نفخ فيه النفخة الأولى فيصعق كل حي ويموت إلا من شاء
الله، ثم ينفخ فيه النفخة الثانية فيحيا الناس كلهم بإذن الله تعالى، وقد ثبت
في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "ما بين
النفختين أربعون" قالوا: أربعون يوما؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرا؟
قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، "ثم ينزل الله من السماء ماء
فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا
وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة".
وهذه النفخة المذكورة في الآية هي النفخة الثانية، وفي الآية حذف دل عليه
سياق الكلام تقديره فتأتون أفواجا جمع فوج أي جماعات جماعات
وزمرا زمرا، كل أمة تأتي مع رسولها كما قال الله تعالى (يوم ندعو كل
أناس بإمامهم) أي برسولهم ، حسب أعمالهم (احشروا الذين ظلموا
وأزواجهم).

وقوله تعالى (وفتحت السماء فكانت أبوابا) أي تشققت حتى صارت شقوقها كالأبواب المفتوحة بعد أن كانت محكمة محفوظة وذلك لنزول الملائكة منها، وهذا كقوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) وكقوله تعالى (إذا السماء انشقت) وكقوله تعالى (إذا السماء انفطرت) فالسمااء تنفطر من يوم القيامة وتتبدل وتتغير كما قال تعالى (السمااء منفطر به، كان وعده مفعولا) وكقوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار).

وقوله تعالى (وسيرت الجبال فكانت سرابا) أي أن الجبال تسير من أماكنها يوم القيامة، وذلك أنها تدك فتكون كالرمل، ثم تكون كالعن المنفوش، ثم تطير في الهواء فترى كهيئة الجبال وليست بجبال إنما هي سراب عما قليل يختفي فلا يبقى لها عين ولا أثر، كما قال تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) وهذا معنى قوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا، فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمثا) أي: أن الجبال تنسف، وتبقى الأرض قاعا منبسطا ليس فيه ارتفاع

ولا انخفاض ولا اعوجاج، بل تكون كما قال تعالى (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) فإذا وقع ذلك قامت القيامة وحقت الحاقة وجوزي كلّ بما عمل، وكان الناس فريقان حسب أعمالهم فريق في الجنة وفريق في السعير، ولذلك قال تعالى (إن جهنم كانت مرصادا) أي مرصدة معدة مهياة، من قولهم: أرصدت له أي هيأت له وأعددت، وجهنم: إسم من أسماء النار جعلها الله مهياة للكافرين المتجاوزين لحدوده المنتهكين لحرماته، كما قال تعالى (للطاغين مآبا) أي مرجعا ومصيرا ، والطاغين جمع طاغ من الطغيان وهو مجاوزة الحد في العصيان ، وقوله (مآبا) من آب الشيء إذا رجع، والمعنى: يصيرون إليها بعد انقضاء الحساب والجزاء، وهذا كقوله تعالى (ثم إن مرجعهم لآلى الجحيم).

وقوله تعالى (لابئين فيها أحقابا) أي: ماكنين في نار جهنم أحقابا، جمع حقب وهو الزمن الطويل، والمعنى: أن هؤلاء الطغاة لما أن يصيروا إلى نار الجحيم فإنهم يمكنون فيها زمانا طويلا في عذاب ونكال وتعب

ونصب، جزاء تكذيبهم بهذا اليوم العظيم واقتراءهم على ربهم الكريم الذي أنعم عليهم بالنعمة فلم يشكروها وبين لهم آياته فلم يعرفوها، فكان جزاءهم هذا الجزاء العادل (وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا هم الظالمين).

وقوله تعالى (لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا) هذا بيان لحال هؤلاء الطغاة في نار جهنم وما يقاسونه فيها من ألوان العذاب، فهم لا يجدون فيها ما يبرد لهم أجسامهم وجلودهم الظاهرة، ولا شرابا يطفئ لهيب قلوبهم الحارة، فيجتمع عليهم العذاب من الباطن والظاهر.

وكيف يجدون ما يبرد لهم بواطنهم وظواهرهم وقد حلوا في العذاب الأليم والخزي العظيم، فصار كل ما يمكن أن يتبرد به قطعاً من نار الجحيم، فالهواء نار، والماء نار، والظل نار، وهذه هي وسائل التبريد في الدنيا، وكان أمرهم كما قال تعالى (في سموم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم) نسأل الله أن يعيذنا من ذلك.

وقوله تعالى (إلا حميماً وغساقاً) الاستثناء هنا منقطع فتكون إلا بمعنى لكن، والحميم: هو الماء الحار الشديد الحرارة حتى أنه ليشوي الوجه قبل أن

يصل إلى الفم، فإذا شرب قطع الأمعاء حتى يخرج من الدبر، كما قال تعالى (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً) وقال تعالى (وسقوا ماءاً حميماً فقطع أمعاءهم).

وقد ذكر الحميم هنا مقابل البرد لأنه - والله أعلم - يعذب به ظاهرهم وباطنهم، كما قال تعالى (يصب من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود) وقد جاء عند الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الحميم ليصب على رؤوسهم، فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يخرج من قدميه، وهو الصهر ثم يعاد كما كان".

وأما الغساق: فهو الصديد الذي يسيل من قروح أهل النار، يقال غسق الجرح غسقاً إذا سال منه ماء أصفر، فالغساق: ماء أصفر يخرج من قروح أهل النار، منتن الرائحة لا يُواجه من نتته، بارد شديد البرودة لا يستطيع من برده، فيجتمع عليهم أصناف العذاب وألوان العقاب فهم كما قال تعالى (هذا فليذوقوه حميم وغساق، وآخر من شكله أزواج).

وقوله تعالى (جزاء وفاقا) أي أن هذا العذاب الذي صاروا إليه كان جزاء موافقا لأعمالهم، فلم يظلموا به وإنما جوزوا بما كانوا يعملون جزاء عادلا لا جور فيه، وإنما صاروا إلى ذلك لأنهم فسدت ظواهرهم وبواطنهم بسبب فساد عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم، فهم مكذبون بالبعث بعد الممات، متجاوزون لحدود الله في إتيان المعاصي والمنكرات، مكذبون للرسل الذين جاؤوا بآيات الله البينات، فلما لم يطهروا أنفسهم بالطاعة والعبادة طهرتها النار بالعذاب والنكال، لأن من لم يطهر نفسه تطهره نار الجحيم.

ثم قال تعالى مبينا بعض أفعالهم الشنيعة وأعمالهم الفظيعة وعقائدهم القبيحة فقال جل شأنه (إنهم كانوا لا يرجون حسابا، وكذبوا بآياتنا كذابا) فمعنى لا يرجون حسابا: أي لا يوقنون بالبعث وأن الله سيحاسب الخلائق يوم القيامة بما عملوا، ولذا فهم لم يستعدوا لذلك اليوم والموقف كما قال الله تعالى عنهم (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، ياليتها كانت القاضيه)

وقوله تعالى (وكذبوا بآياتنا كذابا) أي تكذبا واضحا بينا صريحا إذ في آيات الله إثبات البعث والجزاء وهم لا يعترفون بذلك، ويرمون الرسل الذين جاؤوا بتلك الآيات بأنهم كاذبون، مفترون على الله الكذب، ولهذا جاء كذاب مصدرا على صيغة فعّال الدالة على الكثرة والمبالغة والمتابعة.

وقوله سبحانه (وكل شيء أحصيناه كتابا) كل شيء: عامة تشمل كل المخلوقات والأعمال والأقوال وما يتبع ذلك من قليل وكثير وصغير وكبير وخير وشر.

ومعنى أحصيناه: ضبطناه بالعدد والكم، لأن الإحصاء هو التحصيل بالعدد، وأصله من لفظ الحصى لأنهم كانوا يستعملون الحصى في العد، والمعنى: ضبطناه في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ولا يظلم أحدا، إذ لا يزداد فيه ما ليس منه ولا ينقص منه ما هو فيه، كما قال تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه، ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضرا، ولا يظلم ربك أحدا).

وقوله جل ذكره (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) أي: يقال لأهل النار إهانة وتوبيخا لهم، ذوقوا العذاب الشديد ويلزمكم اليأس من النجاة منه، بل إنكم كلما طالت مدتكم في النار إزداد العذاب عليكم فيها دون فتور ولا قصور، كما قال تعالى (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون)* لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون* وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) فهذه الآية هي أشد آية على أهل النار، كما جاء عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: لم ينزل على أهل النار آية هي أشد من هذه الآية (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) قال: فهم في مزيد من العذاب أبدا.

فعند أن يقال لهم ذلك يبأسون من الخروج منها وتتقطع آمالهم في ذلك، كيف لا وقد جيء بالموت فذبح وهم ينظرون، ونودي عليهم يا أهل النار خلود ولا موت، فيزدادون حزنا إلى حزنهم، كما ثبت بذلك الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ثُمَّ يُذْبَحُ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ

وَيَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ فَيَزِدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ وَيَزِدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ.

ولما ذكر الله حال الكافرين المنكرين للبعث المكذبين للرسل العاصين لله، ذكر حال المؤمنين الصادقين المتقين القانتين، وبين فوزهم في الآخرة بجنات النعيم، كل ذلك ليسارع في الإيمان المسارعون، وليتنافس في طاعة الله المتنافسون، فقال سبحانه وهو بهم رحمن رحيم:.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠) .

(إن للمتقين مفازا) إن للتوكيد، والمتقون: جمع متقٍ، وهو الذي جعل بينه وبين عذاب الله وقاية، ففعل ما أمره الله ما استطاع، وانتهى عما نهاه الله عنه، فمن كان هذا حاله في الدنيا فإنه يفوز يوم القيامة برضوان الله

وجنات له فيها نعيم مقيم، ولذا أخبر تعالى هنا أن لهم مفازا أي فوزا عظيما، والفوز: هو حصول المطلوب مع النجاة والسلامة من المكروه، وهذا حاصل لأولئك المتقين على أتمه وأشدّه، فإنهم فازوا بالجنة التي كانوا يطلبونها في الدنيا ونجوا من النار التي كانوا منها خائفين، وطالما دعوا الله أن يصرفها عنهم وأن يقيهم عذابها، كما أخبر تعالى عنهم أنهم يقولون وهم في الجنات يتنعمون (إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين * فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم) وكما قال تعالى عنهم في سورة الفرقان (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما) فلما علم الله إخلاصهم وصدقهم وإيمانهم وفقهم للعمل الصالح المتمثل في تقواه، والبعد عن معاصيه مما كان سببا لفوزهم ونجاتهم في ذلك اليوم الذي خسر فيه الكافرون وفاز فيه المتقون، وهذه الآية كقوله تعالى (وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) فهم في مكان فوزهم وهو جنات النعيم لهم فيها الخير الوفير والرزق الكثير كما قال تعالى ذاكرا بعضا منه (حدائق وأعنابا) الحدائق:

جمع حديقة، وهي البستان العظيم الجامع لأصناف الأزهار الزاهية والثمار
اليانعة تجري فيها الأنهار، سميت حديقة تشبيها لها بحديقة العين في الهيئة
وحصول الماء فيها.

(وأعابا) وهي من جملة الحقائق، لكن لكثرتها وشرفها خصت بالذكر من
بين سائر أنواع الحقائق.

وقوله تعالى (وكواعب أترابا) هذا إخبار منه تعالى أن لهم فيها كواعب
أترابا، والكواعب: جمع كاعب، وهي الفتاة التي تكعب ثديها أي استدارا
مع ارتفاع يسير، وذلك يكون عند البلوغ، فنهودهن بارزة لم تتكسر من
شبابهن وقوتهن ونضارتهن، وهذا أكمل ما يكون في جمال الصدر.

ومعنى أترابا: أي سنهن واحدة، بنات ثلاث وثلاثين سنة، أجمل وأكمل ما
يكون سن الشباب، ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات، وفي ذلك إشارة إلى
أنهن لا يقع بينهن ما يقع في العادة بين الضرات في الدنيا من حقد
وكراهية، وهذا من تمام نعمة الله على عبده المؤمن في الجنة.

وسميت الأتراب أترابا: تشبيها لهن بترائب الصدر المتقاربة.

وقوله تعالى (وكأسا دهاقا) أي كأسا ممثلة مترعة، يقال دهق الحوض وأدهقه إذا ملأه، وأصل الدهق الضغط بشدة، كأنه لامتلأه أنضغط واشتد. وقد ذكر الكأس وأنها مملوءة، ولم يذكر بم ملئت ؟.

والظاهر . والله أعلم . أنها مملوءة مما شاءت النفس، من ماء غير آسن، أو من لبن لم يتغير طعمه، أو من خمر لذة للشاربين لا تغتال العقل ولا تنقطع عن صاحبها، أو من عسل مصفى بأنواعه الكثيرة المختلفة، فكل ذلك قد جرت به الأنهار بين الحدائق والأشجار بجوار العزيز الغفار في تلك المنازل العالية والدرجات الرفيعة جزاء بما كانوا يعملون.

وقوله تعالى (لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا) أي لا يسمعون فيها كلاما باطلا لا فائدة فيه، واللغو: هو الكلام الذي يصدر لا عن فكر وروية، فهم لا يسمعون فيها كذبا ولا إثما، كما قال تعالى (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما) وذلك لأنها دار السلام كل ما فيها سالم من النقص والدغل.

وفي هذه الآيات الكريمة إشارة إلى ما في الجنة من نعيم عظيم، فأشار بقوله تعالى (مفازا) إلى السلامة من العذاب والخوف والحزن، وأشار بقوله

تعالى (حدائق وأعنابا) إلى ما فيها من ثمار ومآكل طيبة، وأشار بقوله تعالى (وكواعب أترابا) إلى ما فيها من نساء قد كملت محاسنهن وسلمن من كل أذى ونقص، وأشار بقوله تعالى (وكأسا دهاقا) إلى ما فيها من ملاذ الأشرية الطيبة المتنوعة، وأشار بقوله تعالى (لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا) إلى ما فيها من الهدوء الباعث على اطمئنان البال وراحة النفس. ويكفي في شحذ همة أولي الهمم إليها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: قال الله تعالى . يعني في الحديث القدسي . "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" اقرؤوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون).

فهم قد وصلوا إلى هذا النعيم المقيم بعد فضل الله ورحمته بسبب أعمالهم واتباعهم رضوان الله كما قال تعالى (عطاء حسابا) أي جازاهم الله بذلك بسبب أعمالهم الحسنة التي كانوا يعملونها في الدنيا.

وقوله تعالى (عطاء) أي أعطاهم إياه تفضلا منه تعالى وإحسانا، كما قال جل شأنه (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان).

وقوله (حسابا) أي كافيا وافيا شاملا كثيرا، مأخوذة من الحسب وهو الكفاية، يقال: أعطاني فأحسبني أي كفاني، ومنه حسبي الله أي كافٍ، فهم قد جازاهم الله فأفضل، وأعطاهم فأجزل، وهو الجواد الكريم الذي بيده خزائن السموات والأرضين يملكها ويدبرها ويتصرف فيها كيف يشاء، ولذا قال تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن) فهو ﷻ رب السموات السبع ورب الأرضين السبع ورب ما بينهما من المخلوقات، وهو الرحمن أي ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء في الدنيا، وستكون يوم القيامة للمتقين المؤمنين كما قال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبي الأمي...) الآية.

ثم ذكر تعالى ملكه وعظمته يوم القيامة وخضوع جميع المخلوقات له وإذعانهم لأمره فقال ﷻ (لا يملكون منه خطابا) أي لا يقدر أحد أن يبدأه

بالكلام . هببة له وإجلالا وخضوعا لعظمته وخشوعا . إلا بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، فهذا كقوله تعالى (يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه). وهذا . والله أعلم . في سائر البشر، فإنهم لا يقدرّون على الكلام بين يدي الله يوم القيامة ولا الشفاعة إلا بعد أن يأذن لهم، ولا يتكلم منهم يومئذ إلا الرسل كما جاء بذلك الحديث الصحيح.

وقوله تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) معنى: يقوم يقف، والروح: هو جبريل عليه السلام، خص بالذكر من بين سائر الملائكة تشريفا وتكريما له لأنه أفضلهم، والملائكة: جمع ملك . بفتح الميم واللام . وهم خلق من خلق الله، خلقهم من نور واصطفاهم لعبادته وعصمهم عن معصيته، فهم نورانيون، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، لكل واحد منهم وظيفة هو قائم بها، لا يكِل ولا يفتر ولا يستحسر عنها، ومع ذلك فإذا جاء يوم القيامة قاموا بين يديه سبحانه خائفين وجلين، وعلى رأسهم الروح الأمين أفضلهم وأشرفهم جبريل عليه السلام، فإنه يقوم مع الملائكة بين

يُدي ربه فرقا ترعد فرائضه، هبّة وإجلالا لله رب العالمين، والملائكة صفا بعد صف لا يتكلمون إلا بعد إذن الله تعالى ويكون قولهم صوابا أي موافقا لمرضات الله، وذلك في الشفاعة لمن رضي الله بالشفاعة له.

فياله من يوم تخرس فيه الألسن وتشخص في الأعين وتبلغ فيه القلوب الحناجر، نسأل الله أن يقينا هوله، وأن يؤمننا فيه.

وقوله تعالى (ذلك اليوم الحق، فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) يعني: أن يوم القيامة حق ثابت وأمر واقع لا محالة كما قال تعالى (إنما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع) فمن شاء جعل لنفسه عملا صالحا يسره رؤيته يوم القيامة، وهذا بتوفيق الله للعبد كما قال تعالى (إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا * وما تشاؤون إلا أن يشاء الله، إن الله كان عليما حكيما * يدخل من يشاء في رحمته، والظالمين أعد لهم عذابا أليما).

وقوله تعالى (إنا أنذركم عذابا قريبا) إنّا: القائل هو الله تبارك وتعالى، وإنما جاء بصيغة الجمع للتعظيم، ومعنى أنذركم: أي حذركم من وقوع عذاب أليم بكم يوم القيامة إن لم تتقوه، وهذا العذاب سيقع عما قريب لأن

ما بينه وبين العبد إلا الموت فمن مات قامت قيامته، والإنسان لا يدري متى يموت.

وقوله تعالى (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) أي يوم يرى الإنسان عمله كله، خيره وشره قديمه وحديثه، صغيره وكبيره، كما قال تعالى (ووجدوا ما عملوا حاضرا، ولا يظلم ربك أحدا) وكقوله تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) وكقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره).

وقوله تعالى (ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) أي أن الكافر يتمنى أن لو كان ترابا لا حساب عليه ولا عقاب، وذلك حين يرى تلك الأهوال وأنه مؤاخذ بعمله السيء، فيتمنى أنه لم يخلق أو أنه لم يبعث من قبره، أو أنه صار كالبهائم لا عقاب عليه، وكل هذه المعاني صحيحة واردة، وهذا كقوله تعالى حاكيا عن الكافر أنه يقول يوم القيامة (ياليتها كانت القاضية) نسأل الله العافية وحسن الخاتمة.

ما يستفاد من هذه السورة

١/ ذكر الإختلاف الحاصل بين المشركين في إنكار البعث والنشور وفي حال الرسول ﷺ.

٢/ بيان أن يوم القيامة يوم عظيم.

٣/ تهديد المشركين المنكرين للبعث أنهم سيلاقون أعمالهم يوم القيامة، وسيعلمون أنهم كانوا في إنكاره من الكاذبين.

٤/ ذكر نعم الله الكثيرة على عباده الدالة على عظمته وقدرته على كل شيء، ومن ذلك إحياء الموتى.

٥/ تسخير الله للأرض وتثبيتها بالجبال من نعم الله على الإنسان، مما يبعث العاقل على القيام بشكرها.

٦/ ومن نعم الله خلق زوج الإنسان من جنسه وجعل النوم له راحة ينقطع فيها عن العمل ويرجع إلى أهله يؤانسهم، وجعل لهم الليل يستريحون عن أعين الناس لتكتمل راحتهم.

٧/ من فضل الله أن جعل النهار مضيئاً لكسب المعاش وطلب الرزق.

٨/ من نعم الله أن خلق السموات سبعا طباقا شدادا وجعلها سقفا محفوظا للأرض، وأنزل منها الأمطار رزقا للعباد وحياة للبلاد، فتخرج بها البساتين والحدائق وأنواع الفواكه والثمرات، كل ذلك من نعم الله دال على قدرته على إحياء الموتى وأنه يبعث من في القبور.

٩/ ذكر أن يوم الفصل وقت معلوم لا بد أن يكون.

١٠/ إثبات النفخ في الصور، وبيان أن الناس يجتمعون من كل مكان بعد النفخ فيه.

١١/ ذكر أن السماء تتشقق وتتفطر، وأن الجبال تسير من أماكنها وتزول عنها صلابتها.

١٢/ إعداد الله جهنم رسدا لمن تعدى حدوده ولم يقم بعبادته، فإليها مرجعهم ومصيرهم.

١٣/ طول مكث العاصين في نار جهنم زمانا بعد زمان ودهورا بعد دهور، فأما من كان من الموحدين فإنه يخرج منها يوما من الدهر بسبب توحيدِه بعد فضل الله ورحمته وإن أصابه قبل ذلك من عذابها ما أصابه، وأما أهل

النار الذين هم أهلها فإنهم فيها خالدون أبد الآباد ودهر الداهرين، لا تقنى عنهم ولا هم منها يخرجون، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها، نسال الله العافية والسلامة.

١٤/ شدة ما يلاقى الكفار من عذاب الظاهر والباطن في نار جهنم.

١٥/ الإشارة إلى أن الله لا يظلم أحدا، ولكن الناس أنفسهم بمعاصيهم يظلمون.

١٦/ أن التكذيب بآيات الله واليوم الآخر يورث الخلود في نار جهنم أعاننا الله منها.

١٧/ إحاطة علم الله بجميع أعمال العباد وبكل ما يتعلق بهم، وبيان أن ذلك قد كتب في كتاب مبين.

١٨/ ذكر أن أهل النار كلما طالت مدتهم فيها ازداد العذاب عليهم دون قصور أو فتور.

١٩/ تقوى الله سبب للأمن والنجاة من أهوال يوم القيامة، ومن ثم دخول جنات النعيم.

٢٠/ ذكر بعض نعيم الجنة من بساتين وثمار، ومآكل ومشارب، وسائر الملاذ الدائمة.

٢١/ الإشارة إلى هدوء الجنة وطيب كلام أهلها، وكونها لا صخب فيها ولا أذى.

٢٢/ ذكر أن ما في الجنة من النعيم جزاء أعمال أهلها، وأن ذلك من فضل الله وعطاءه ومنته وثوابه.

٢٣/ سعة ملك الله الذي لا يحد ولا يستقصى، وبيان أن كل المخلوقات مذن له وخاضع وذليل بين يديه وخاشع.

٢٤/ بيان أن الملائكة محشورون يوم القيامة على رؤوس الخلائق صفوفًا بعد صفوف، وقيامهم بين يدي الله، وعلى رأسهم جبريل عليه السلام.

٢٥/ بيان أن الملائكة لا يشفعون بين يدي الله إلا بعد إذن الله لهم ورضاه عن المشفوع له.

٢٦/ التصريح بأن يوم القيامة حق واقع ما له من دافع، وإرشاد العباد إلى أن يعملوا العمل الصالح الذي يكون سارا لهم يوم قيامهم بين يدي الله.

٢٧/ رحمة الله التي تتجلى في تحذيرهم وتخويفهم من يوم القيامة ليكونوا على بينة من أمرهم، ودعوتهم إلى أن يعملوا ما يرفعهم في ذلك اليوم ويؤهلهم لدخول الجنة.

٢٨/ قرب يوم القيامة ودنوه من كل مخلوق.

٢٩/ ذكر أن الإنسان يرى عمله كاملاً خيره وشره قديمه وحديثه صغيره وكبيره.

٣٠/ حسرة الكافر يوم القيامة وندامته على تقريطه في العمل الصالح وتكذيبه بآيات الله، وبيان أنه يتمنى أن لم يكن شيئاً مذكوراً خوفاً من عذاب الله وعقابه وبأسه وانتقامه الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

تفسير سورة النازعات

سورة النازعات مكية، نزلت بعد سورة النبأ، عدد آياتها {٤٦} آية، ترتيبها في المصحف {٧٩}، وترتيبها في النزول {٨١}.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)]

قوله **عَلَّكَ** (والنازعات غرقا) الواو: واو القسم في هذه الآية وفي كل الآيات الآتيات بعدها.

والنازعات: طوائف من الملائكة موكلون بقبض أرواح الكفار بشدة وعنف، من قولهم: نزع الشيء إذا جذبه من مقره بشدة.

وغرقا: منصوب على المصدرية، أي إغراقا ونزعا شديدا، من قولهم: أغرق في الشيء إذا أوغل فيه وبلغ غايته القصوى.

وقوله تعالى (والناشطات نشطا) الناشطات: طوائف من الملائكة موكلون بقبض أرواح المؤمنين برفق ولين، من قولهم: نشط الشيء أي أخرجه برفق وسهولة وسرعة دون مشقة، ونشطا: منصوبة على المصدرية أيضا، ومثلها سبحا وسبقا الآتية.

وقوله (والسابحات سبحا) السابحات طوائف من الملائكة تسبح بأمر الله كما أمرها الله أي تسرع به وفيه، كما يقال: جواد سابح إذا أسرع في جريه، والملائكة تسبح في الهواء أي تهبط وتصعد بأمر الله تعالى بسرعة فائقة لما أعطاهم الله من القدرة على ذلك.

وقوله جل شأنه (فالسابقات سبقا) الفاء: عاطفة على ما قبلها، والسابقات: طوائف من الملائكة تسبق إلى تنفيذ أمر الله سبقا ليس له نظير، ومن ذلك ما روى الامام احمد رحمه الله وغيره عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنا الجبهة وأصغى السمع ينتظر متى يؤمر بالنفخ فينفخ).

وقوله ﷻ (فالمديرات أورا) الفاء: عاطفة على ما قبلها، والمديرات: الملائكة تدبر ما أمرها الله بتدبيره من أمور العالم العلوي والسفلي، وجواب القسم محذوف تقديره لتبعثن ليوم الحساب والجزاء بدليل الإتيان بأهوال يوم القيامة بعده مباشرة.

وقوله تعالى (يوم ترجف الراجفة) الراجفة: هي النفخة الأولى التي يموت فيها كل شيء إلا ما شاء الله، سميت بالراجفة من الرجف وهو الإضطراب الشديد، لأن الأمر بها يضطرب ويختل نظام الكون، وهذا كقوله تعالى (إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها الآيات).

وقوله تعالى (تتبعها الرادفة) أي النفخة الثانية التي يبعث فيها الموتى بإذن الله تعالى، من ردف الشيء سميت بالرادفة: لمجيئها بعد الأولى، وهذا كقوله تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السموات والأرض إلا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون).

وقد روى الإمام الترمذي رحمه الله عن أبي بن كعب ؓ قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: "يا أيها الناس: اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه..." وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

وقد تقدم حديث أبي هريرة عند البخاري في ذكر النفختين في سورة النبأ. وقوله تعالى (قلوب يومئذ واجفة) يبين تعالى حال الكفار المكذبين بيوم القيامة حتى إذا اتاهم بغتة كانوا بشر حال، فقلوبهم يومئذ واجفة: أي خائفة وجلّة، من قولهم وجف القلب إذا اضطرب اضطرابا شديدا من شدة الفزع. وقوله تعالى (أبصارها خاشعة) بيان لحال الكفار المذكورين أصحاب القلوب الواجفة.

والمقصود بأبصارها: أي أبصار أصحابها، خاشعة أي ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال وهذا كقوله تعالى (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي).

وقوله تعالى (يقولون أننا لمرودون في الحافرة) القائلون: هم الكفار المنكرون للبعث والنشور المتقدم بيان حالهم، وإنما حصل لهم ذلك الذل والهوان لأنهم كذبوا بيوم القيامة ولم يؤمنوا به ومن ثم لم يستعدوا له بالعمل الصالح، فلما وقع عليهم حصل لهم ذلك الخوف والفرع والذل والهلع، وقد كانوا إذا ذكروا به يقولون - مستقهمين استقهم إنكار وجود - (أنا لمرودون في الحافرة) أي أنرد إلى الحياة بعد أن نموت ونفنى، يقال: رجع فلان في حافرتة وعلى حافرتة أي طريقه التي جاء فيها فحفرها بمشيئه، والمقصود هنا استنكارهم عودتهم للحياة بعد الموت كما قالوا منكبين (أعذا كنا عظاما نخرة) أي أبعد أن نكون عظاما بالية، يقال نخر العظم إذا بلي وتفتت، وقرئ نخرة بمد النون ومعناها: فارغة جوفاء، فهم منكرون مستبعدون عودتهم بعد موتهم أحياء، ولذلك فهم يستهترون ويستهزئون بمن ذكرهم بيوم القيامة وبالبعث والنشور.

وقوله تعالى (تلك إذا كرة خاسرة) أي إذا كانت رجعتنا للحياة بعد الموت حاصلة لا محالة فإنها رجعة خاسرة غير رابحة، ويقصدون أصحابها

الراجعين أنهم خاسرين غير رابحين، فرد الله عليهم استعظامهم لذلك واستبعادهم له بأن ذلك عليه يسير وإذا أرادته فإنه واقع لا محالة في مثل لمح البصر بل هو أقرب فقال تعالى (فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة) الزجرة: الصيحة، يقال زجر البعير إذا صاح عليه، والمقصود بالساهرة: وجه الأرض، والعرب تسميها ساهرة لأن فيه نوم الأحياء وسهرهم، والمعنى ليس بعثكم بعد الموت بصعب ولا عسير على الله تعالى بل يحصل بصيحة واحدة فإذا جميع الموتى على صعيد الأرض أحياء، وهذا كقوله تعالى (وقالوا إن هذا إلا سحر مبين * أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أعنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون * قل نعم وأنتم داخرون * فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون * وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين * هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) وكقوله تعالى (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) .

وقوله تعالى [هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْكُفْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ

وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ
الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ
يَخْشَى (٢٦) أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا
(٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)
أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ
وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)].

قوله جل ذكره (هل أتاك حديث موسى) الخطاب للرسول ﷺ ابتداء ولكل
من يصلح أن يوجه له الخطاب بعد ذلك، والاستفهام للتشويق، والمعنى:
هل أتاك خبر نبي الله موسى عليه السلام وما حصل له مع فرعون اللعين،
وموسى هو موسى بن عمران أفضل أنبياء بني إسرائيل وأحد الخمسة أولي
العزم من الرسل.

ثم شرع ﷺ في بيان قصته فقال (إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى) ناداه
الله ﷻ بصوت مسموع كما قال تعالى (وناديناه من جانب الطور الأيمن،
وقربناه نجيا) ولذا قيل لموسى عليه السلام: كليم الله، كما قال تعالى (وكلم
الله موسى تكليما).

وقوله (بالواد المقدس طوى) الوادي: هو مجرى الماء، والمقصود هنا: وادي طوى، ومعنى مقدس: أي مطهر، سمي بذلك لأنه كان فيه الوحي على موسى عليه السلام.

وقوله تعالى إذهب إلى فرعون إنه طغى) هذا بيان لما كلم الله به موسى عليه السلام ليلة الطور إذ أمره أن يذهب إلى فرعون وهو ملك مصر في ذاك الزمان، وكان هذا الملك قد طغى: أي تجاوز الحد في الكفر والعصيان، بحيث أنه جحد وجود الله تعالى وزعم للناس أنه إلههم لا إله لهم سواه، كما قال الله تعالى عنه (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري) فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يذهب إليه وينهاه عن طغيان وكفره وعصيانه، بقول لين وخطاب لطيف، فقال تعالى (فقل هل لك إلى أن تزكى) الإستفهام هنا للتشويق، والتركية: هي التطهر من الكفر والشرك، والمعنى هل لك إلى طريقة حميدة ومسلوك جميل تطهر به نفسك وتزكيها.

وقوله جل ذكره (وأهديك إلى ربك فتخشى) أي وأدلك على الطريق الموصل إلى مرضات ربك وهو لزوم الدين الذي جاء به موسى من عند الله تعالى.

(فتخشى): أي فتخاف من الله ﷻ على علم منك به، لأن الخشية هي: الخوف المقرون بعلم، فإن لم يكن معها علم فهي خوف مجرد، والحاصل أن موسى عليه السلام عرض على فرعون الإيمان والتوحيد كما أمره ربه ﷻ فأبى فرعون إلا الشرك والكفر بالله، وطلب من موسى عليه السلام آية تدل على صدقه فكان الأمر كما قال الله تعالى (فأراه الآية الكبرى) وهي العصا واليد التي أصبحت علامة دالة على صدق موسى ونبوته، ومعجزة ظاهرة من معجزاته، وذلك أن العصا إذا ألقاها موسى إلى الأرض تتقلب حية تسعى بعد أن كانت في يده خشبة جامدة لا حراك فيها، وإذا أدخل يده في جيبه خرجت بيضاء من غير سوء، فهذه هي الآية الكبرى التي جاء بها موسى عليه السلام، وإنما أطلق عليها آية بالإفراد لاتحاد المقصد.

وإنما كانت معجزة موسى عليه السلام بهذه الصفة لأنه . والله أعلم . قد ظهر في زمن انتشر فيه السحر وفشا وبلغ أوجه وقمته، وكان أهل تلك

البلاد من أعلم الناس به، فتحداهم الله بذلك إذ علموا علم اليقين - لمعرفةهم بالسحر وفنونه - أن ما جاء به موسى ليس سحرا بل هو حق مبين ليس من عمل البشر، وإنما هو أمر خارق للعادة.

وقوله تعالى **(فكذب وعصى)** هذا بيان لما قابل به فرعون موسى عليه السلام لما دعاه إلى الله تعالى وبيّن له طريق الهداية برفق ولين، قابل ذلك بالكفر والشدة والتمرد والعناد، وإعلان الحرب على موسى عليه السلام وما جاء به، والمعنى فكذب فرعونُ خبرَ موسى وخبره الحق المبين، وعصى أمره وأمره هـ الرشده.

وقوله تعالى **(ثم أدبر يسعى)** أي تولى يسعى سعيا جادا حثيثا في محاربة الحق ومعارضته، ويسعى لإبطاله بالباطل من جمعه السحرة لمقابلة معجزات موسى الظاهرة الباهرة.

وقوله تعالى **(فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى)** أي فجمع قومه وجنوده، من حشر الشيء إذا جمعه وضم بعضه إلى بعض، والنداء: هو الكلام بصوت مرتفع، والأعلى: إسم تفضيل من العلو، أي ليس أعلى منه شيء،

والمعنى: أن فرعون اللعين لما جاءه موسى بالبينات والبراهين جمع قومه وجنوده ونادى فيهم بصوت مرتفع ليسمعهم أجمعين قائلاً: أنا ربكم الأعلى، يعني لا أحد فوقى الآن، وهذا أبلغ مجاوزته لحدوده وضلوعه في الطغيان.

والعجب من تلك الأمة الحمقى الذين يعلمون حقيقة ويصدقون أكاذيبه، وهم يعلمون أنه بشر لا إله، ومربوب لا رب، ولكن صدق الله إذ قال عنه وعن قومه (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين) فانظر . رعاك الله . كيف يفعل الفسوق والعصيان بأربابه، وانظر لمجازة ذاك اللعين لحدوده وطغيانه، فاستحق بذلك نكال الأولى وعذاب الآخرة، فكان عاقبة أمره كما قال الله تعالى (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) النكال: مصدر بمعنى التكيل وهو التعذيب، والمعنى: فأخذ الله فرعونَ أخذ عزيز مقتدر، وعذبه في الدنيا بالإغراق و في الآخرة بالإحراق كما قال تعالى (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم) وقال تعالى (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) وأخرج الله جسده وجثته علامة على صدق ما حل به، وجعله آية وعبرة وعظة وذكرى لمن

أتى من بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما قال تعالى (فاليوم ننحك ببذنك لتكون لمن خلفك آية، وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) ففي ذلك مذكر وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وقوله تعالى (إن في ذك لعبرة لمن يخشى) الإشارة في ذلك إلى ما جرى بين موسى وفرعون وما حاق بفرعون من عذاب ونكال في الدنيا وما ينتظره في الآخرة، لعبرة: أي عظة وذكرى، لمن يخشى: أي يخاف من الله على علم، فهذا هو الذي تتفعه المواعظ، إذا علم ما دار بين موسى وفرعون وكيف كان عاقبة فرعون مع ملكه وجبروته وقوته وجنوده عرف أن كل من تكبر وعصى وعاند وبغى مصيره مصير فرعون في الدنيا والآخرة، وليس له من دون الله من ولي ولا نصير.

وأما من ليس عنده من الله خشية فهذا لا تتفعه المواعظ ولا تزجره الزواجر (صم بكم عمي فهم لا يعقلون).

وقوله تعالى (أنتم أشد خلقا أم السماء) هذا استفهام لتقرير إمكان البعث بعد الموت، وذلك لأن جميع الناس يعلمون أن خلق السماوات أكبر من

ابتداء خلقهم فضلا عن إعادته، كما قال تعالى (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) والمعنى: أنتم أيه البشر أشد وأعظم في خلقكم أم أن خلق السماء أعظم منكم ؟.

ولم يأت بالجواب لأنه معلوم عند كل بشر أن خلق السماء أشد، وإذا كان الأمر كذلك فإن الله الذي لم يعجزه خلق السماء مع أنه أشد من خلقكم لا تعجزه إعادتكم بعد موتكم كما أنه لم يعجزه ابتداء خلقكم من عدم.

وقوله تعالى (بناها) هذه جملة استئنافية، والفاعل هو الله ﷻ، وإنما لم يذكر للعلم به ضرورة لدى كل عاقل، والمعنى: بناها بهيئة بديعة محكمة دالة على عظمتة وقدرته وعلمه وقوته وحكمته سبحانه وبحمده.

وقوله تعالى (رفع سمكها فسواها) هذا بيان لخلق السماء، وذلك أنه سبحانه وتعالى رفع جرمها عن الأرض بغير عمد كما قال الله تعالى (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها) وقوله: فسواها أي جعلها مستوية الخلقة أي تامة كاملة محكمة لا تفاوت فيها ولا فطور كما قال تعالى (هو الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع

البصر هل ترى من فطور* ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير). وقوله جل ذكره (وأغطش ليلها وأخرج ضحاها) أغطش ليلها: أي جعله مظلماً فعم السكون واستقر الناس، وأخرج ضحاها: أصل الضحى انبساط الشمس وامتداد النهار، ثم سمي به الوقت المعروف وشاع في ذلك وتجاوز به عن النهار، ومعنى أخرجه: أي أبرزه وأظهر فيه النور حين أتى بالشمس، فانتشر الناس في مصالح دينهم ودنياهم وهذا كقوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم، ولتعلموا عدد السنين والحساب، وكل شيء فصلناه تفصيلاً).

وقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) أي والأرض بعد خلق السماء دحاها أي أزالها عن هيئتها التي خلقت عليها بحيث هيأها لتكون صالحة للحياة عليها، يقال دحا المطر الحصى عن وجه الأرض أي جرفها، ثم بين تعالى ذلك الدحو بقوله (أخرج منها ماءها ومرعاها* والجبال أرساها) فهذا هو الدحو الذي حصل للأرض بعد خلق السماء، وإلا فنفس الأرض خلقت قبل

خلق السماء كما قال تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، وهو بكل شيء عليم) وكما قال تعالى (قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداد، ذلك رب العالمين* وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين* ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض: ائتيا طوعا أو كرها، قالتا: أتينا طائعين* فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها).

فدلت هذه الآيات الكريّات على أن خلق السماوات كان بعد خلق الأرض، ولكن الدحو الذي حصل للأرض بعد خلق السماء هو تهيئة الأرض لتكون صالحة للمعيشة عليها كما قال تعالى مبينا ذلك (أخرج منها ماءها ومرعاها) وذلك بتفجير العيون وإجراء الأنهار والبحار العظام، وإخراج ما يقتات به الناس وتأكله الدواب، وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال : خلق الله الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحا الأرض ودحوها أن أخرج منها

الماء والمرعى وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين
فذلك قوله { دحاها }.

وقد جاء تفسير هذا الدحو صريحا في حديث أبي هريرة ؓ الذي رواه
مسلم وغيره واختلف فيه العلماء اختلافا كبيرا بين مصحح له ومعلل لما
يدل عليه ظاهره من مخالفته للقرآن الكريم مع أن من تأمله وجده مطابقا
للقرآن الكريم وأنه مفسر للدحو المذكور في هذه الآيات وذلك في قوله ﷺ
وقد أخذ بيد أبي هريرة ؓ " خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال
يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق
النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر
من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما
بين العصر إلى الليل".

وقوله تعالى (والجبال أرساها) أي: ثبتها في الأرض فثبتت بها الأرض بعد
أن كانت تميد وتضطرب، فكانت لها الجبال كالأوتاد للخيمة، ولهذا قال
تعالى في آية أخرى (والجبال أوتادا).

كل ذلك مسخر من أجل الإنسان ولذا قال تعالى (متاعا لكم ولأنعامكم) أي تتمتعون به أنتم وأنعامكم، ثم متاع أنعامكم متاع لكم لأنها مسخرة أيضا لكم تتمتعون بها، وفي هذا تفرغ للمشركين الذين يأكلون نعم الله ويجحدونها ولا يشكرونه عليها، ثم هم يشاهدون الآيات العظيمة الدالة على عظمة الله وقدرته على كل شيء فلا ينتفعون بذلك ولا يقودهم للإيمان بما هو أهون من ذلك على الله بكثير من بعث الناس بعد موتهم ومجازاتهم على أعمالهم، ولذا ذكر سبحانه وتعالى بعد هذه الآيات قيام الساعة وبعث الناس ومجازاتهم على أعمالهم فقال جل ذكره:

[فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)].

قوله ﷻ (فإذا جاءت الطامة الكبرى) الطامة في الأصل: هي الداهية التي تغلب ما سواها من الدواهي فتطم على كل أمر هائل مفتح، وهي اسم من أسماء يوم القيامة، ووصفت بالكبرى لأنها لا أكبر منها ولا أطم، كما قال تعالى (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) أي أدهى من كل داهية. وجواب الشرط محذوف تقديره إذا جاءت وقع ما لا يدخل تحت الوصف من الكرب والهول والشدة العظيمة التي تذهل الوالد عن ولده، والمرضة عما أرضعت.

وقوله سبحانه وتعالى (يوم يتذكر الإنسان ما سعى) بيان لما يحصل في ذلك اليوم العظيم من كون الإنسان يجد ما عمله من عمل في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، والمعنى: في ذلك اليوم العظيم يتذكر الإنسان ما عمل من خير أو شر في الدنيا، وتعرض أمامه نار جهنم فيراها رأي العين، فيتمنى أن لو كان استزاد من العمل الصالح ما يكون سببا في نجاته منها، وأن لو كان أقلع عن العمل السيء الذي يكون سببا

في وقوعه فيها، وهذا كقوله تعالى (وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى* يقول ياليتني قدمت لحياتي).

وقوله تعالى (وبرزت الجحيم لمن يرى) برزت: أي أظهرت وجعلت بارزة وظاهرة يراها كل أحد، كما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرُؤْنَهَا" فيراها الناس عيانا وقد هيئت لأخذ من أمرها الله بأخذه، ويسمعون لها تغيطا وزفيرا إذ لها من الحنق على الظالمين المخالفين لأمر الله ما لا يعلمه إلا الله.

فلا إله إلا الله ما أشد الكرب حينئذ وما أعظمه، وما أفدح الهول إذ ذاك وما أفضعه، فرحماك ربي رحماك.

وقوله تعالى (وأما من طفى* وآثر الحياة الدنيا* فإن الجحيم هي المأوى) هذا بيان لحال الناس يوم القيامة ومقيلهم بعد عرض النار عليهم فيرونها رأي العين.

فمن كان من أهل الطغيان . وهو مجاوزة حدود الله وتعيديها، وذلك بترك الفرائض والواجبات، وإتيان المحارم والمنهيات، ومن ثم يقوده ذلك إلى إثارة الدنيا على الآخرة أي: تقديمها عليها، وذلك لأنه ابن الدنيا لا هم له إلا هي، وأما الآخرة فليست له على بال . فهذا مأواه أي مسكنه ومستقره إلى نار الجحيم . له فيها عذاب أليم مقيم عيادا بالله الغفور الرحيم.

وأما من خاف مقام الله وراقبه وكان في الدنيا يخشاه فهو كما الله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) معنى خاف مقام ربه: أي خاف القيام بين يديه، وذلك لأنه مؤمن بالله واليوم الآخر والحساب والجزاء.

والهوى: هو الميل، سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية.

ومعنى الآية: أن من خاف وقوفه بين يدي ربه في الآخرة فاستعد له بالعمل الصالح في الدنيا وألزم نفسه بمرضات الله وإن كرهتها، ونهاها عن معاصي الله وزجرها عنها وإن اشتتها، لأنه يعلم أن الجنة قد حفت

بالمكاره فاقترحها، وأن النار قد حفت بالشهوات فابتعد عنها واجتنبها، فذلك مقيله في جنات النعيم جوار الرب الرحيم، وذلك لأنه كان مراقبا له في الدنيا فاستحق جواره في الأخرى، وهذا كقوله تعالى (وأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه * إني ظننت أني ملاق حسابيه * فهو عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية).

وقوله تعالى (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) يسألونك: أي الناس، والساعة: القيامة، وأيان مرساها: أي متى تقوم؟ ومتى تكون؟.

وقد ورد السؤال على رسول الله ﷺ من قبل المشركين، كما أنه ورد عليه من قبل المؤمنين، فأما سؤال المشركين فإنه سؤال استتكار واستبعاد واستعجال بها كالمكذب بها، ولهذا قال تعالى (وما يدريك لعل الساعة قريب * يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها، والذين آمنوا مشفقون منها، ويعلمون أنها الحق).

وأما سؤال المسلمين عنها فلخوفهم منها ولكي يستعدوا لها كما جاء في الصحيحين أن رجلا قال للنبي ﷺ: يارسول الله متى الساعة؟. فقال له رسول الله ﷺ "ويلك ماذا أعددت لها؟". قال: حب الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ "المرء مع من أحب".

فالناس يسألون النبي ﷺ عن الساعة ولكن تختلف نياتهم ومقاصدهم، ومهما كانت نياتهم فإن علم الساعة مما اختصه الله لنفسه، كما ثبت في البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمهن إلا الله تعالى: (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث الآية).

وكما جاء في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، ثم سأله عن الساعة؟ فأجابه ﷺ قائلا: "ما المسئول بأعلم بها من السائل". والمعنى: إذا كنت أنت أعلم الملائكة وأفضلهم وخفيت عليك فأنا خافية علي مثلك.

وإذا كان أعلم الملائكة وأفضلهم، وأعلم البشر وأفضلهم، لا يعلمان متى الساعة، فإن من سواهم من باب أولى لا يعلمون، ولهذا قال تعالى (فيم أنت من ذكرها) أي ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؟.

والاستفهام للإنكار، وقد استأثر الله بعلمها . ولم يطلع عليها أحدا . لأنه لا فائدة في علم وقتها، ومصلحة الإنسان في خفائها عليه، وذلك ليكون خائفا من وقوعها في أي وقت فيستعد لها في كل حين، لا سيما إذا كان يعلم أنها قريبة واقعة لا محالة فإنه سيدفعه خوفه من وقوعها عليه إلى المثابرة على العمل الصالح والمسارة فيه.

وقوله تعالى (إلى ربك منتهاها) أي ينتهي علمها إليه سبحانه، وهذا كقوله تعالى (يسألونك عن الساعة أيان مرساها، قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفي عنها، قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

وقوله تعالى (إنما أنت منذر من يخشاها) أي إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم مما يقع يوم القيامة، كما قال تعالى (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون). والمعنى: لم أبعثك لتعين وقتها الذي لم يفوض إليك، وإنما بعثتك لتبين اقترابها، وتفصل أهوالها، فما لهم يسألونك عما لم تبعث به؟.

فهؤلاء لا ينتفعون بسؤالهم هذا لأنهم لا يخشونها ولا يخافون منها، وإنما ينتفع بنذارتك من يخاف منها ويخشاها فيستعد لها بالعمل الصالح، ولذا خصص الإنذار بمن يخشى مع عمومته للناس كافة لأنه هو الذي ينتفع به.

وقوله جل ذكره (كانهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) العشية: من زوال الشمس إلى غروبها، والضحى: البكرة إلى الزوال، والمعنى: أن هؤلاء المكذبين بالساعة المتسائلين عنها استكثروا واستعجلوا لها إذا جاء وقتها ووقعت، فإنهم يستقصرون حياتهم الدنيا ويستقلونها، فيرون كأنهم ما لبثوا فيها إلا أقل من يوم، وينسون تلك الأعوام العديدة والأعمار المديدة

التي قضوها في الدنيا، وصار أمرهم كما قال تعالى (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) وقوله تعالى (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين).

ما يستفاد من هذه السورة

- ١/ الله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.
- ٢/ فضل الملائكة وشرفهم، لأن الله تعالى أقسم بهم في هذه السورة في غير ما آية.
- ٣/ هوان الكافر على ربه، وكونه يعذب ساعة إخراج روحه، والإشارة إلى شدة الموت عليه.
- ٤/ كرامة المؤمن على ربه، وكونه يخفف عليه الموت ويهون عليه.
- ٥/ مسابقة الملائكة ومسارعته في تنفيذ أمر الله وقيامهم بذلك كما أمرهم ربه.
- ٦/ تدبير الملائكة لأمر الكون بأمر ربه على اختلاف أعمالهم ووظائفهم.

٧/ شدة وقع يوم القيامة على القلوب، وذكر هوله وفزعه.

٨/ ذكر النفختين في الصور، الأولى التي يموت بها باقي الأحياء، والثانية التي تحيا بها جميع الأموات، وفي ذلك إثبات البعث والنشور والحساب والجزاء.

٩/ ذل الكافرين يوم القيامة وهوانهم على الله تعالى بسبب تكذيبهم بالبعث بعد الموت وعدم استعدادهم له.

١٠/ استبعاد الكفار للبعث والنشور دليل على ضعف علمهم بالله وعدم معرفتهم له.

١١/ يسر البعث والنشور على الله تعالى وسهولته عليه.

١٢/ حشر جميع المخلوقات على وجه الأرض وجمعهم عليها جميعا.

١٣/ تسلية الله تعالى لنبيه ﷺ بما لاقى المرسلون قبله من تكذيب قومهم لهم ومحاربتهم إياهم، وبيان أن النصر للحق وإن ضعف القائم به، وأن الغلبة على الباطل والهزيمة لأصحابه وإن قويت شوكتهم.

١٤ / إثبات الكلام لله تعالى، وتكليمه لموسى ليلة الطور من غير أو واسطة من وراء حجاب.

١٥ / ذكر طغيان فرعون وتجاوزة لحدود الله وادعاءه ربوبية رعيته.

١٦ / بيان أن اتباع الرسل تزكية للنفس وتطهير لها من درن الشرك والإلحاد، وأن الهداية في اتباع الرسل والغواية في مخالفتهم.

١٧ / معاندة فرعون للحق ورده له استكبارا وجودا بعد أن تحقق منه وتبين له، ثم سعيه سعيًا حثيثًا لإبطاله ودحضه بالباطل ولكن أنى له ذلك؟.

١٨ / الإشارة إلى أن المهتدي من هداه الله، وأن من لم يهده الله لا تنفع معه النذر ولا الآيات مهما كان وضوحها وسطوعها.

١٩ / اجتماع أئمة الكفر صفا واحدا في وجه الحق لإبطاله.

٢٠ / نزول عذاب الله على من كفر به وكذب رسله وجدد بآياته.

٢١ / ذكر أن في من هلك من قبلنا من القرون . بسبب ظلمهم وكفرهم .

عبرة وعظة لمن يخاف الله ويعلم بأسه وعذابه، وردع عن اتباع سبيلهم، وحض على اتباع الرسل وعدم تكذيبهم.

٢٢/ الإشارة إلى أن من لا يخاف الله ولا يعلم قوته لا يعتبر بما سلف ولا بما حل بمن قبله من الأمم.

٢٣/ الإشارة إلى عظمة خلق السماء، وعظمة المخلوق دالة على عظمة خالقه، ثم إن في خلقها مع عظمتها دليل على قدرته تعالى على خلق ما دونها فضلا عن أن يكون يعيده بعد موته كبعث الإنسان بعد الموت.

٢٤/ الاختلاف والتغاير في الكون من غطش الليل وإخراج النهار منه ورفع السماء ويسط الأرض، دليل على أن هذا الكون لم يخلق عبثا ولم يوجد صدفة، بل خلق لحكمة وله خالق مالك مدبر يصرفه كيف يشاء، وإن جحد الجاحدون وكفر به الكافرون.

٢٥/ بيان أن ما في الكون من سماء وأرض وجبال وليل ونهار وماء ومرعى إنما هو متاع للإنسان ومسخر لمنفعته، وفي ذلك إشارة إلى أن الواجب على الإنسان أن يشكر الله على تلكم النعم، وأن يجره ذلك الإحسان المستمر إليه إلى عبادة مولاه ومعرفة حقه عليه.

٢٦/ وصف يوم القيامة بالطامة الكبرى يدل على أن هولها أعظم الهول
وفزعها أعظم الفزع.

٢٧/ ذكر أن الإنسان سيلاقي عمله يوم القيامة ويتذكره جميعا ويُعرّف به.

٢٨/ عرض النار أمام الناس ومجيئها إليهم حتى يرونها رأي العين.

٢٩/ بيان أن الطغيان ومجاوزة الحدود في الدنيا وتفضيل الدنيا على الآخرة
والاهتمام بها دونها سبب من أسباب دخول النار وورودها.

٣٠/ بيان أن الإيمان باليوم الآخر والحساب والجزاء سبب في نهى النفس
وإلزامها بطاعة مولاهما، ومن ثمّ تكون تلك النفس الزكية مؤهلة لدخول الجنة
بفضل الله ورحمته.

٣١/ الإخبار بسؤال الناس عن الساعة إما استعجالا واستبعادا لها كما هو
شأن المشركين، أو خوفا منها واستعدادا لها كما هو شأن المؤمنين، ولكن
ليس في كل ذلك فائدة، وإنما الذي يجب على الإنسان الإستعداد لها، وفي
ذلك إشارة إلى النهي عن فضول السؤال والكلام مما لا فائدة منه.

٣٢/ الإشارة إلى أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب وليس محيطا بعلم كل شيء إلا ما علمه ربه وأوحى إليه، وإذا كان هذا شأنه وهو أفضل المرسلين فإن غيره من سائر البشر من باب أولى لا يعلمون الغيب ولا يطلعون عليه.

٣٣/ ذكر أن علم الساعة مما اختصه الله تعالى لنفسه، وفي ذلك دليل على كذب الذين يزعمون أن الساعة ستقوم في وقت كذا وكذا أو في يوم كذا وكذا.

٣٤/ ذكر أن نذارة الرسل لا تتفع إلا من يخاف الله تعالى ويخشاه ويؤمن بوعده ولقاه.

٣٥/ بيان أن الإنسان ينسى لبثه في الدنيا يوم القيامة، ويرى أنه لم يلبث إلا يسيرا وزمنا قصيرا.

تفسير سورة عبس

سورة عبس مكية، نزلت بعد سورة النجم، عدد آياتها {٤٢} آية، ترتيبها في المصحف {٨٠} وترتيبها في النزول {٢٤}.

سبب النزول

روى الترمذي في جامعه بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزل (عبس وتولى) في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يارسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: "أترى بما أقول بأساً" فيقول: لا، ففي هذا أنزل". وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزْكَى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَعْزَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَزْكَى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)]

قوله تعالى (عبس وتولى) عبس: أي كبح بوجهه، وتولى: أعرض ببدنه، والمقصود رسول الله ﷺ، وهذا عتاب من ربه له لما أعرض عن إجابة الأعمى، ولذا قال سبحانه مبينا سبب هذا العبوس والتولي الصادر من رسول الله ﷺ (أن جاءه الأعمى) أي: لما جاءه الأعمى، وإنما كان إعراض رسول الله ﷺ عنه طمعا في إسلام ذاك الرجل الآخر وليس احتقارا لهذا الأعمى، وذلك لأن ابن أم مكتوم مسلم قد اعتنق الإسلام وإنما يريد التعلم، فكان رسول الله ﷺ حريصا على نشر الدعوة إلى الحق، فأراد أن يسلم ذاك الكافر الذي يرجو بإسلامه إسلام غيره، ثم بعد ذلك يعلم رسول الله ﷺ هذا المسلم، ولكن الله يعلم ما لا يعلمه رسوله ﷺ فعاتبه بقوله تعالى (وما يدريك لعله يزكى) أصل يزكى يتزكى، مأخوذة من التزكية وهي النماء والطهر، والمعنى: أي شيء أدراك بحال هذا الأعمى الذي عبست في وجهه، لعله يتطهر بما يحصل له منك من التعليم، يتطهر به من الجهل ويتذكر فيتعظ لأن طالب العلم والحق الحريص عليه أشد قبولا له ممن عرض عليه دون طلب.

وقوله تعالى (أما من استغنى * فأنْتَ له تصدى) أصل تصدّى تتصدد من الصدد، يقال كان بصدّدك أي قبالتك، والمعنى: أما الذي استغنى عن الإيمان واما عندك من القرآن والعلوم الشرعية فأنْتَ تتصدى له وتتعرض له بالإقبال عليه والاهتمام بشأنه والإصغاء لكلامه رجاء أن يسلم وليس عليك هذا، إنما أنت نذير.

ولذا قال تعالى (وما عليك ألا يذكى) أي وأي شيء عليك إذا لم يتذك هذا الرجل الذي أعرّض عنك، لأنك لست مكلفا بهداية الخلق إنما عليك البلاغ، والجواب: لا شيء عليه ﷺ، ولكن حرصه على هداية الخلق جعله يفعل ذلك.

وقوله تعالى (وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنْتَ عنه تلهى) معناه: وأما من أقبل عليك يمشي بسرعة من أجل تعلم الخير، وهو يخاف أن يفوته مجلس العلم كما أنه يخاف من الله ويخشاه وهو من المتقين الأبرار، فأنْتَ عنه تعرض وتتشاغل ولا تقبل عليه كإقبالك على هذا

المستغني، مع أن المؤمن أولى بأن تهتم به من الكافر، ومن جاء لطلب العلم أولى بأن ينتبه له ممن أعرض عنه.

وقوله تعالى (كلا إنها تذكرة) كلا: حرف ردع وزجر، يعني لا تعد لمثل هذا الفعل.

إنها: الضمير يعود على آيات القرآن الكريم، تذكرة: يتذكر بها الإنسان ويتعظ بها القلب. وقوله سبحانه (فمن شاء ذكره) أي فمن شاء ذكر ما في آيات القرآن من الوعد والوعيد فتذكر واتعظ وانتفع بما فيها، ومن شاء أعرض واستغنى وسيلقي جزاءه عند الله يوم القيامة على خبثه وعدم تطهره بآيات الوحي، وإنما ذكرَ الضمير في قوله (ذكره) لأن التذكرة بمعنى التذكير والوعظ، وهذه الجملة اعتراضية بين سابقتها ولأحققتها يقصد بها الترغيب في وعي آيات الله والاتعاظ بها.

وقوله جل شأنه (في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة) الصحف: جمع صحيفة وهي ما يكتب فيه القول، والكلام متعلق بالتذكرة الموجودة في آيات الله، كما قال تعالى (إنها تذكرة) أي هذه التذكرة مكتوبة في صحف لها

تكريم وتعظيم عند الله تعالى، مرفوعة القدر والمكانة، مطهرة من أن تتألفها الأقذار والأوساخ أو تمسها الشياطين بزيادة أو نقصان.

ثم قال تعالى مبينا كرمها ورفعها وتطهيرها بأنها (بأيدي سفرة * كرام بررة) سفرة: ككتبة وزنا ومعنى، مأخوذة من السَّفر وهو الكتاب، ومنه قول الله تعالى (كمثل الحمار يحمل أسفارا) أو أن السفرة الوسطاء من قولهم: فلان سفير بين فلان وفلان أي وسيط بينهما، وكلا المعنيين صحيح محتمل في الملائكة، فهم كتبة لأنهم ينسخون هذه الصحف من اللوح المحفوظ ويكتبون ما أمرهم الله بكتابته، وهم وسطاء بين الله وخلق كجبريل عليه السلام الذي ينزل بالوحي على الرسل عليهم الصلاة والسلام، فصح المعنيين بهذين الاعتبارين.

ثم وصفهم تعالى بأنهم كرام أي في خلقهم وأخلاقهم وأفعالهم، وهم مكرمون عند الله تعالى معظمون موقرون، وهذا ما ينبغي أن يكون لحامل القرآن فينبغي أن يكون كريما في أخلاقه وأفعاله، مكرما من قبل عباد الله لشرف ما حمل من آيات القرآن العظيم، كما جاء في الصحيحين وغيرهما عن

عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ "الذي يقرأ القرآن وهو ماهر

به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأه وهو عليه شاق ل أجران".

وجاء في سنن أبي داود عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ

"إن من إجلال الله: إكرام ذي الشبهة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه

والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط".

ووصفه تعالى للملائكة بأنهم بررة جمع بر وهو كثير الخير، المطيع لربه،

الصادق في أقواله المخلص في أفعاله.

وفي ما تقدم دلالة على شرف القرآن الكريم ورفعته وكرمه عند الله وطهارته

وصدقه وسلامته من الزيادة والنقصان ليكون ذلك حاثا للناس على قبوله

وتلقيه بالحفاوة والتكريم، ولكن طبع الإنسان الجهول الناتج عن قلة علمه

وكثرة غروره جعل كثيرا من الناس لا يقبلونه ولا يؤمنون به كما قال تعالى:.

[قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ

فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ

أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ

(٢٤) أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا

حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠)
وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)]

قوله تعالى (قتل الإنسان ما أكفره) قتل: أي لعن، والمقصود بالإنسان: الكافر بدلالة قوله (ما أكفره) وأما المؤمن فإنه خارج من هذا اللعن بما دلت عليه النصوص الأخرى.

وقوله تعالى (ما أكفره) يحتمل أن ما استفهامية فيكون المعنى: أي شيء جعله يكفر بالله وما الحامل له على ذلك؟.

ويحتمل أن ما تعجبية أي: ما أشد كفره بالله مع أن الله يسدي إليه النعم ليلاً ونهاراً، وإنما كان كفر الإنسان عجيباً لأن الله ميزه عن سائر الحيوانات بالعقل الذي يدلّه على الخير ويحضه عليه، ويوضح له الشر وينهاه عنه، كما أنه سبحانه خص الإنسانية بالرسول مبشرين ومنذرين وأنزل إليهم الكتب فيها هدى ونور، ومع هذا الوضوح والبيان والحق وتوفر الدواعي إلى قبوله أبى أكثر الناس إلا كفوراً، فاستحقوا اللعن والهلاك، وكلا المعنيين ثابت لثبوت الاحتمالين في استعمال ما وإن كان الأخير أظهر.

وقوله تعالى (من أي شيء خلقه) استفهام تقرير لما يأتي بعده، والمعنى: من أنت أيها الإنسان الكافر بربك؟ وما أصلك؟ وما حقيقة خلقك حتى تتكبر وتستعلي على الذي خلقك؟

ثم بين تعالى نعمه العظيمة المتتابعة على هذا المخلوق الضعيف من حين كان نطفة في رحم أمه إلى أن صار بشرا سويا ثم هو مع هذا يكفر بربه، إن هذا لمن أعجب العجب فقال ﷺ (من نطفة خلقه فقدره) النطفة: هي الماء القليل، والمراد بها ماء الرجل الدافق الذي يلقيه في رحم المرأة فتحمل، ومن كان أصله من ماء مهين حقير كيف يتكبر على الجبار القهار العزيز المتعال؟.

وقوله تعالى (فقدره) أي قدر خلقه أطوارا ينتقل من حالة إلى أخرى، وقدر له رزقه وأجله وعمله كما جاء في صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق "أن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل

ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.. الحديث".

وقوله سبحانه (ثم السبيل يسره) السبيل: هو الطريق، ومعنى يسره أي سهله له وجعله ميسرا عليه، والمقصود بالسبيل هنا: إما طريق خروجه من بطن أمه إلى هذه الحياة الدنيا، وإما طريق الخير والشر، فيكون كقوله تعالى (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) وكلا المعنيين صحيح.

فانظر كيف كانت رعاية الله لهذا الإنسان الكفّار منذ كان نطفة في صلب أبيه، ثم في بطن أمه لا يدري عن نفسه شيئا، ومع هذا إذا شب ونشأ وجمع ومنع وملك وأمر نسي خالقه وربّه وكفر به ونسي إنعامه عليه، ولكنه عما قليل سيرجع إليه ضعيفا فقيرا معترفا بذنبه نادما على تقصيره وتفریطه حيث لا يفع الندم.

وقوله تعالى (ثم أماته فأقبره) أماته أي قدر عليه الموت وهو مفارقة الروح للبدن.

وأقبره: أي أمر بدفنه، يقال: قَبَرَ الميتَ ويقبره إذا دفنه بيده، وأقبره إذا أمر بدفنه أو مَكَّنَ منه، وهذا من نعم الله على الإنسان بعد موته أن جعل له قبرا توارى في جثته احتراماً له وإكراماً، ولم يترك جيفة على وجه الأرض كميتة سائر الحيوانات ترمى في الزبال يستفذرها الناس وتتوشها السباع والطيور، بل أكرمه بالدفن ستراً عليه وحفظاً لشرفه ومراعاة لمشاعر أهله من بعده، إذ كيف ستكون مشاعرهم إذا رأوا ميتهم تأكل منه الكلاب؟!.

وقوله تعالى (ثم إذا شاء أنشره) أي ثم إذا شاء الله تعالى أنشر هذا الميت من قبره، أي أحياء بعد موته للجزاء والحساب إذا جاء الوقت المقدر في علم الله لذلك، ومنه يقال: البعث والنشور.

وفي قوله تعالى (ثم إذا شاء أنشره) دليل على أن ذلك لا يعجز الله وليس عليه بصعب ولا عسير بل هو يسير عليه جد يسير، كما قال تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وذلك لأن إعادة الخلق أهون من إنشاءه، ولما كان سبحانه لم يعجزه ابتداء الخلق من عدم كانت إعادة أهون عليه من ذلك بكثير.

والحاصل أن الله ﷻ لا يعجزه أن ينشر هذا الميت بعد موته ودفنه، ولكن لم يأت أمر الله بعد في ذلك ولهذا قال تعالى (كلا لما يقض ما أمره) لمّا: هنا بمعنى لم، أي لم يقض ما أمر به كونا وقدرًا، والمعنى لم يأت الموعد المنتظر لنشر هذا الميت.

وفي هذا رد على المكذبين بالبعث الذين يقولون لو كان البعث حقا لوجدنا آباءنا الآن، وهذا القول منهم تحد مكذوب للرسل لأن الرسل لم تقل إنكم تبعثون الآن، وإنما قالوا: إنكم ستبعثون جميعا بعد أن تموتوا جميعا.

ويحتمل أن يكون معنى الآية كلا: حرف ردع وزجر للإنسان عما هو عليه من الطغيان. وقوله (لما يقض ما أمره) أي لم يأت بما أمره به ربه من الطاعة والعبادة بل استكبر وكفر ولم يشكر الله على نعمه ولا أدى فرائضه التي فرضها عليه، وهذا الحكم للغالب من البشر فهو كقوله تعالى (وقليل من عبادي الشكور) وكلا المعنيين وارد محتمل، وإن كان الأخير أظهر.

وقوله تعالى (فلينظر الإنسان إلى طعامه) يرشد تعالى الإنسان إلى النظر والتفكر في طعامه كيف وصل إليه؟ ومن الذي أوجده؟ وكيف أوجده؟.

فذكر تعالى أهم المراحل التي يمر بها الطعام لأن فيها إشارة . لمن كان له قلب وعقل . إلى أن هذا الطعام إنما جاء بأمر الله وتيسيره، فقال تعالى (إنا صببنا الماء صبا) أي نحن لا غيرنا من جاء بالماء الذي هو أصل إيجاد الطعام، وإنما جاء بصيغة الجمع مع أن الله واحد لا ثاني له ولا شريك ليدل الجمع على التعظيم، ومعنى: **صببنا الماء صبا** أي أنزلناه من السحاب على الأرض بكثرة.

وقوله (ثم شققنا الأرض شقا) أي أسكنا الماء فيها فنزل في تخومها حتى وصل على الحب المودع فيها فنبت وارتفع الحب نباتا خارجا من الأرض شاقا لها شقا بديعا بما يناسب صغر النبات وكبره وشكله وهيئته.

وقوله تعالى (فأنبتنا فيها حبا) أي فأخرجنا من الأرض حبا وهو ما يقتات به الإنسان ويدخره كالحنطة والشعير والذرة.

وقوله (وعنبا وقضبا) العنب: هو المعروف ويؤكل للتفكه به، وقضبا: أي علفا رطبا للدواب وهو ما يسمى بالقتّ، سمي قضبا لأنه يقضب أي يقطع بعد ظهوره مرة بعد أخرى كالكلأ والبرسيم.

وقيل: أن المراد به ما يأكله الإنسان غضا طريا كالبقول التي تقطع فينبت أصلها، وكلا المعنيين محتمل والأول أظهر.

وقوله تعالى (وزيتونا ونخلا) الزيتون: هو المعروف يستعمل أدما ويستصبح بعصيره ويدهن به ويأتم به، وهو الشجرة المباركة المذكورة في سورة المؤمنين.

والنخل: يؤكل بلحا وبسرا ورطبا وتمرا ونيئا ومطبوخا، ويعتصر منه الزيت والخل، هذا مع ما يبقى في النخلة من فوائد غير الأكل من استعمال شجرها أصولها وفروعها وورقها للإنسان في بقية منافعه الدنيوية. وإنما خصت هذه المذكورات بالذكر من بين سائر المطعومات لكثرة فوائدها ومنافعها والله أعلم.

وقوله تعالى (وحدائق غلبا) الحدائق: جمع حديقة وهي ما أحيط من النخل والشجر وجرى فيه الماء، سميت بذلك تشبيها لها بحديقة العين، وإنما يسمى بالحديقة ما أحيط، من قولهم أحدقوا به إذ أحاطوا، فإذا لم يحط فليس بحديقة وإنما هو بستان.

وقوله (غلبا) جمع أغلب وغلباء: وهي العظيمة الملتفة المشرفة، والمعنى: وأنبتنا لكم أشجارا كثيرة ملتفة فيها من أنواع الأشجار وشتى الثمار غير ما ذكر مفصلا قبل، كل ذلك بفضلنا وإنزالنا الماء.

وقوله تعالى (وفاكهة وأبا) الفاكهة: هي ما يتفكه به الناس من أنواع الفاكهة، والأب: هو العشب والكأ الذي تأكله البهائم والأنعام وينبت في الأرض بعد نزول المطر، فيكون للدواب كالفاكهة للإنسان.

وقوله تعالى (متاعا لكم ولأنعامكم) أي كل ذلك المتقدم ذكره أنعمنا به عليكم لتتمتعوا به في هذه الحياة الدنيا، وتتمتع به أنعامكم فتشبع وتسمن، ومن ثم تتمتعون بها أنتم فرجع كل ذلك إلى الإنسان، وهذه من نعم الله عليه التي لا تكاد تتفك عنه ليل نهار، ومع ذلك لم يراقب الله ولم يشكره عليها بل قابل ذلك بالكفر والعصيان، ولكن ربك يمهل ولا يهمل، وإذا كفر العبد لم يقطع الله عنه الرزق بل ربما زاد له فيه استدراجا له حتى يوافي يوم القيامة إلى ربه فيجازيه على تمرده وعصيانه، ولا ينفعه إذ ذاك ماله ولا

ولده، ولا يهتم أحد بأحد بل كل امرئ منهم مشغول بنفسه كما قال تعالى
في بيان ذلك:.

[فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ
(٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا
غَبَرَةٌ (٤٠) تُرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)].

قوله تعالى (فإذا جاءت الصاخة) الصاخة: هي الصيحة العظيمة يوم
القيامة لبعث الناس من قبورهم، سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع أي تبلغ
في إسماعها حتى تكاد تصمها، وأصل الصخ: الصك الشديد، قال ابن
عباس: الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده.

والحاصل أن الصاخة تكون يوم القيامة، سواء كانت اسما للقيامة لكونها
داهية عظيمة أو للنفخة والصيحة التي هي أول القيامة، فكلا الأمرين
متلازم.

وجواب (إذا) محذوف تقديره: إذا جاءت شغل كل إنسان بنفسه، كما أفاد
ذلك قوله تعالى (يوم يفر المرء من أخيه * وأمّه وأبيه * وصاحبه

وبنيه) يفر: أي يهرب ويبتعد، فهو لمّا يرى هؤلاء المذكورين يهرب منهم بعيداً، قال بعض العلماء: إنّما يهرب منهم لئلا يطالبونه بما فرط في حقهم مما يجب لهم عليه.

وإنما قدم ذكر الأخ . والله أعلم . لأن الأخ عادة ما يقوم في نصرة أخيه في الدنيا قبل كل الناس حتى قبل أبيه، لكن لما جاءت القيامة بأهوالها وكرها نسي الناس إخوانهم وأبناءهم، والصاحبة المذكورة في الآية هي الزوجة، يهرب منها زوجها ويفر.

وقوله تعالى (كل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) أي كل إنسان مشغول بنفسه قد أهمته واهتمّ لفكاكها، ولم يلتفت إلى غيرها ولو كان أقرب الأقربين إليه.

وقد روى الإمام الترمذي في جامعه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "تحشرون حفاة عراة غرلاً". فقالت امرأة: أيبصر - أو يرى - بعضنا عورة بعض؟. قال: "يا فلانة (كل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه)".

وروى الإمام النسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً". فقالت عائشة: يا رسول الله فكيف بالعورات؟ فقال: "(لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه)".

ففي ذلك اليوم وفي تلك الساعات العصبية ينقسم الناس حسب أعمالهم إلى قسمين كما بين ذلك ﷺ في قوله (وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة) ذكرت الوجوه . مع أن المقصود أصحابها . لأنها هي المعبرة عما في القلب من سرور وانشراح، فوجوه المؤمنين مسفرة: من الإسفار وهو الوضوح والضياء والإشراق، ومنه قوله تعالى (والصبح إذا أسفر) أي: أضاء وأشرق، فوجوههم قد ظهرت عليها البهجة لما عرفوا نجاتهم، وأشرقت بالابتسامات لما كمل سرورهم، واستبشرت بدخول الجنات لما رأوا رضا ربهم، وحق لهم أن تسفر وجوههم وتبتسم ثغورهم وتستبشر قلوبهم بنعيم لا يحد ولا يوصف وقرة عين لا تنقطع وأولئك هم المؤمنون الطائعون الصالحون.

وأما الكفار العصاة الملحدون فوجوههم كما قال تعالى (ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قتره * أولئك هم الكفرة الفجرة) فقله تعالى (عليها غبرة) أي يعلوها شيء كالغبار لأنها ذميمة قبيحة، وقله تعالى (ترهقها قتره) أي تغشاها، يقال: رهقه أي غشيه، والقتره: هي الظلمة والسود، فوجوههم سوداء مظلمة كما قال تعالى (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة، ما لهم من الله من عاصم، كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلمًا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

وقوله تعالى (أولئك هم الكفرة الفجرة) بيان لحالهم ولسبب خزيهم وسود وجوههم في الآخرة، وذلك أنهم جمعوا بين الكفر بنعمة الله والتكذيب بآياته، وبين الفجور والتجرؤ على محارم الله وحدوده، نسال الله أن يجعلنا ممن تستتير وجوههم وتستبشر قلوبهم إنه جواد كريم.

ما يستفاد من هذه السورة

١/ حرص الرسول ﷺ على إسلام الناس عامة، ومن يرجى بإسلامه عز الإسلام لكثرة أتباعه كعظماء العشائر ورؤوس القبائل خاصة.

٢/ تفضيل المؤمن مهما قل جاهه على الكافر مهما كان جاهه، وبيان أن المسلم أولى بالاهتمام به من الكافر لأنه أقبَل للهداية.

٣/ الإشارة إلى أن الرسول ﷺ بشر يجري عليه ما يجري على سائر البشر من الرضا والغضب والبشر والعبوس، وأنه قد يجتهد ﷺ في الدعوة وأساليبها.

٤/ جواز ذكر الإنسان بما يعرف به ولو كان عيبا فيه إذا كان لا يعرف إلا بذكره، والإشارة إلى أن ذلك ليس من الغيبة ولا السخرية.

٥/ حرص الصحابة رضوان الله عليهم على التعلم مهما كانت ظروفهم الشخصية والصحية.

٦/ الإشارة إلى أن قبول العلم والذكر تزكية وطهارة، وأن المؤمن ينتفع بالعلم والذكر.

٧/ عتاب الله ﷻ رسوله ﷺ بصيغة الغائب في الصفات التي تشعر بذهم ونقص كما في قوله تعالى (عبس وتولى) ولم يقل: عبست وتوليت، مما يضيف على هذا العتاب أسلوبا حكيما يجعله كله رفق ولين، بينما في ذكر

حرصه على إسلام الناس ذكره بأسلوب الخطاب المباشر كما في قوله تعالى (فأنت له تصدى) مما يدل على الحرص البالغ المبذول من الرسول ﷺ في سبيل إسلام ذلك الشخص المدعو للإسلام.

٨/ الإشارة إلى أن العلم لا يبذل إلا لطلبه، وفي ذلك توجيه للدعاة إلى عدم الاهتمام بمن أظهر الاستغناء عن العلم والإيمان، لأنه باستغنائه وحرصهم على دعوته تضيق أوقاتهم سدى، ومن لم يجعل الله نورا فما له من نور.

٩/ بيان أن ما على الرسول إلا البلاغ، وأن من لم يهتد فلا يضر إلا نفسه، وفي هذا إظهار معنى قوله تعالى (لا يضركم من ضل إذا اهتديتم).
١٠/ إرشاد الدعاة إلى الاهتمام بمن جاء يطلب العلم منهم، وأنه يجب الاهتمام به ولا يجوز احتقاره ولا إغفال طلباته مهما كان ضعة مقامه في المجتمع وقلة جاهه.

١١/ بيان أنه في آيات القرآن الكريم الهداية والنور لمن أراد الاستقامة والطاعة.

١٢/ ذكر علو منزلة القرآن عند الله تعالى وكرم مكانه ورفعته وطهارته، وفي ذلك الحث على تكريم حملته، وتوجيه حملته أن يكرموا ما حملوا من آيات الله والحكمة، وأن ينأوا بأنفسهم التي تحمل القرآن الكريم عن مواطن الذلة والصغار والمعاصي والعار.

١٣/ بيان شرف الملائكة كتبة القرآن الكريم وكرمهم، وأنهم مطيعون لله قائمون بأمره.

١٤/ الإشارة إلى ما ينطوي عليه الإنسان الكافر من الغباء والحماقة، وكيف أنه لم يستخدم عقله فيما يدلّه على الخير والسعادة، مما أوجب له الخزي واللعن في الدنيا والآخرة.

١٥/ ذكر أصل خلقة الإنسان وأنه من نطفة حقيرة مهينة، ومن ثم الإشارة إلى أنه ليس له أن يستكبر على خالقه وموجده من عدم الذي أسبغ عليه وافر النعم، وهو عاجز عن أن ينفع نفسه منها بشيء لولا فضل الله عليه.

١٦/ تكريم الله للإنسان وتشريفه إياه بالعناية به في بطن أمه، وتيسير طريق الخروج له إلى هذه الدنيا، وتبيين طريقي الخير والشر له، ليضل من ضل عن بينة ويهتدي من اهتدى عن بينة.

١٧/ الإشارة إلى أن إكرام الميت دفنه لا كما يفعل بعض الوثنيين من تحريقه بالنار.

١٨/ إثبات البعث والنشور، وبيان أن ذلك راجع إلى مشيئة الله فمتى شاءه كان.

١٩/ الإشارة إلى أن من قضاء الله وقدره أن البعث يكون بعد موت الناس أجمعين.

٢٠/ ذكر تفريط الإنسان وتقصيره في طاعة ربه، وأن أغلب البشر غير قائمين بعبادة الله كما أوجب الله عليهم.

٢١/ إرشاد الإنسان إلى التفكير في طعامه ومأكله: كيف وجد؟ ومن أوجده؟ مما يقوده إلى الخضوع والإذعان لله رب العالمين خالق ذلك كله وحده جلّ جلاله.

٢٢/ امتنان الله على عباده بتيسيره سبل المعيشة لهم من إنزال الغيث وإخراج النبات وشتى المأكولات مما ينتفع به الإنسان والدواب، كما أن في قوله (أنعامكم) الإشارة إلى الأنعام وإن انتفعت بالنبات فإن نفع ذلك عائد للإنسان فينتفع به فعادت جميع الفائدة إليه.

٢٣/ الوعيد بمجيء يوم القيامة، وأنه آت لا محالة، وذكر شدة وقعه على النفوس حتى أن الإنسان يهرب فيه من أقرب أقربائه، مما يدل على فزعه العظيم ورعبه الشديد.

٢٤/ حرص الإنسان على نجاة نفسه يوم القيامة وعدم مبالاته بالآخرين، وشحه على حسناته وفرقه من المطالبين.

٢٥/ انقسام الناس يوم القيامة حسب أعمالهم إلى فريقين: فريق قد ظهر الفرح والسرور والبشر والحبور وعلامات ذلك على وجوههم، فضحكوا واستبشروا.

وقسم آخر قد اسودت وجوههم وأظلمت بسبب كفرهم وجحودهم مما يدل على أن العمل الصالح سبب في نضارة وجه العبد واستنارته يوم القيامة، وأن العمل السيء سبب في سواد وجه العبد يوم القيامة.

تفسير سورة التكويد

سورة التكويد مكية، نزلت بعد سورة المسد، عدد آياتها {٢٩} آية، ترتيبها في المصحف {٨١}، وترتيبها في النزول {٧}.

باب

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ "من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي العين فليقرأ (إذا الشمس كورت) و(إذا السماء انفطرت) و(إذا السماء انشقت) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب.

وروى الإمام النسائي في سننه عن عمرو بن حريث رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر (إذا الشمس كورت).

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣)
وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ
(٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ

(٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا أَحْضَرْتُ (١٤)].

قوله ﷺ (إذا الشمس كورت) إذا: في هذه الآية وجميع الآيات التالية: أداة شرط، وجواب شرطها قوله تعالى بعد ذلك (علمت نفس ما أحضرت) كما سيأتي بيانه.

والتكوير: هو جمع الشيء بعضه إلى بعض أي لفه واستدارته، ومنه: كورت العمامة: أي لفتها، والمعنى: أن الشمس يوم القيامة يجمع بعضها إلى بعض ثم تلف فيرمى بها في جهنم تكيّتا لعبادها وزيادة في تعذيبهم وإيقاد النار عليهم كما جاء في البخاري وغيره عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: "الشمس والقمر مكوران يوم القيامة".

وجاء عند الطحاوي في مشكل الآثار - وكذا رواه البزار بإسناد صحيح على شرط البخاري - عن عبد العزيز بن المختار بن عبد الله بن الداناج قال: شهدت أبا سلمة بن عبد الرحمن جلس في مجلس في زمن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد قال: فجاء الحسن فجلس إليه فتحدثا فقال أبو سلمة: حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: "الشمس والقمر ثوران مكوران في النار

يوم القيامة". فقال الحسن: ما ذنبهما؟. فقال: إنما أحدثك عن رسول الله ﷺ.

وليس الأمر كما تبادر إلى الحسن - رحمه الله - ولكن الأمر على ما قدمنا إنما هو تبيكتا لعبادهما وزيادة في إيقاد النار عليهم.

وقوله تعالى (وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ) أي انقضت وتناثرت، يقال: انكدر مثل انحدر أسرع وانقض، أو أن المعنى: تغيرت وانطمس نورها، من كدّرت الماء فانكدر وتكدر أي جعلته متغيرا، وكلا المعنيين صحيح محتمل.

وقوله جل شأنه (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) معنى سيرت: أي سارت عن أماكنها، وذلك لأن الجبال تكون يوم القيامة كثيبا مهيلا ثم تصير كالعهن المنفوش ثم تتغير فتصير هباءا منثورا، وهذا كقوله تعالى (وسيرت الجبال فكانت سرابا) وقوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا).

وقوله تعالى (وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ) العشار: هي جمع عُشراء وهي الناقة الحامل التي أتى لحملها عشرة أشهر، تسمى بهذا إلى أن تضع لتمام

السنة، فتجد صاحبها مهتما بها مراقبا لها في هذه الأيام، موليا من الإهتمام ما لا يولي سواها.

ومعنى عطلت: أي أهملت وتركنت بلا راع، وهذا بيان لما يصيب الناس يوم القيامة من ذهول عن أموالهم ولو كانت أنفسها، لأن كل امرئ منهم يومئذ مشغول بنفسه عن غيره.

وقوله تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) الوحوش: جمع وحش، والمراد بها جميع الدواب، وحشرت: أي جمعت، يقال: حشروهم يحشروهم حشرا إذا جمعهم، ومنه (والطير محشورة) أي: مجموعة، والمعنى: جمعت ليوم القيامة ليقص لبعضها من بعض، ويرى العباد كمال عدل الله تعالى حتى انه يقتص للجماء التي لا قرون لها من القرناء كما ثبت في صحيح مسلم.

وقوله سبحانه (وَإِذَا الْبُحَارُ سُجِّرَتْ) البحار: جمع بحر، وجمعت لعظمتها وكثرتها، ومعنى سُجِّرَتْ: أي أوقدت فصارت نارا تأجج، من قولهم سَجَرْتُ التتور أي أوقدت فيه النار.

وقيل: يتفجر بعضها في بعض بحيث تمتلئ بالمياه عذبها ومالحها فتصير بحرا واحدا، كما قال تعالى (وَإِذَا الْبِحَارُ فَجَرَتْ) من قولهم: سَجَرْتُ الحوض إذا ملأته بالماء، وكلا المعنيين صحيح محتمل والأول أظهر.

وقوله جل شأنه (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) النفوس: جمع نفس، والمراد بها جميع الإنسانية.

ومعنى زوجت: أي صنفت بحيث يضم كل صنف إلى صنفه وكل صاحب عمل مع نظيره، فالأبرار مع الأبرار والفجار مع الفجار، كما قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) أي أشكالهم.

وقوله تعالى (وَإِذَا الْمَوْعُودَةُ سَأَلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) الموعودة: هي البنت تدفن حية، كما كان أهل الجاهلية يفعلون ببنايتهم خشية الفقر والعار، كما أخبر تعالى عنهم بأنهم (إِذَا بَشَّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون).

ومعنى سئلت: أي يسألها الله تعالى يوم القيامة سؤالاً يراد به تقرير وتوبيخ قاتلها.

وقوله (بأي ذنب قتلت) أي ما هو الذنب الذي اقترفته هذه المسكينة حتى قتلت بهذه الطريقة الوحشية التي لا تفعلها ولا الحيوانات المتوحشة، وفي هذا السؤال تهديد لقاتلها بأنه سيقصص لها منه، وإذا كان المظلوم يسأل فما هو حال الظالم.

وقد جاء عند الإمام أحمد في مسنده عن سلمة بن يزيد الجعفي رضي الله عنه قال: انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ قال قلنا: يارسول الله إن أمنا مليكة كانت تصل الرحم، وتقري الضيف، وتفعل وتفعل، هلكت في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: "لا". قلنا: فإنها كانت قد وأدت أختنا لنا في الجاهلية، فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: "الوائدة والموعدة في النار إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فيعفو الله عنها".

وجاء عن الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها عن جدامة بنت وهب أخت عكاشة قالت: حضرت رسول الله ﷺ في أناس

وهو يقول: "لقد هممت أن أنهي عن الغيلة، فنظرت فإذا فارس والروم يغيلون أولادهم فلا يضر أولادهم ذلك شيئاً". ثم سأله: عن العزل؟. فقال رسول الله ﷺ "ذلك الواد الخفي، وهي (إذا الموعودة سئلت)".

وقوله تعالى (وإذا الصحف نشرت) الصحف: جمع صحيفة وهي ما يكتب فيه عمل الإنسان في هذه الحياة الدنيا، ومعنى نشرت أي بسطت بعد أن كانت مطوية، وذلك أنها تطوى حين موت الإنسان، فلما يبعث الناس للحساب والجزاء تتشر ليقراها وليعلم ما فيها كما قال تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا).

وقوله سبحانه (وإذا السماء كشطت) الكشط: هو القلع عن شدة التصاق، ومنه كشط جلد الدابة أي سلخه، والمعنى: أن السماء تعلق وتزال فلا تبقى سماء تغطي ما تحتها، وذلك أن الله ﷻ يطويها بيمينه كما قال تعالى (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وقال تعالى (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب) فلا تبقى

للخالق سماء تظلمهم سوى عرش الرحمن ﷻ كما قال جل ذكره (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية).

وقوله ﷻ (وَإِذَا الْجَحِيمُ سَعَتْ) الجحيم: هي النار، سميت بذلك لبعدها وقعرها وظلمة مرءاها، ومعنى سعرت: أي أوقدت إيقادا شديدا والتهمت التهاوبا لم يكن لها من قبل.

وقوله جل شأنه (وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ) الجنة: هي دار المتقين في الآخرة، ومعنى أزلفت: أي أدنيت وقربت منهم، كما قال تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) مأخوذة من التزلف وهو التقرب، يقال تزلف فلان إلى فلان أي تقرب منه، فهذه دار المتقين تقرب إليهم، وتلك دار الكفار تسعر عليهم، وفرق بين الدارين كما أن هناك فرقا بين عمل الفريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقوله تعالى (علمت نفس ما أحضرت) هذا جواب الشرط في الآيات السابقة، أي علمت علم يقين ومشاهدة.

وقوله (نفس) نكرة في سياق الشرط تفيد العموم أي كل نفس.

ومعنى (أحضرت) أي حضر لديها ما كتب عليها في الصحف من العمل، والمعنى: إذا وقع كل ذلك فهناك تعلم كل النفوس ما عملت من خير فيكون سبب نجاتها، أو شر فيكون سبب هلاكها ونكالها وهذا كقول الله تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) وكقوله تعالى (ووجدوا ما عملوا حاضرا).

هذا وإن كان علم النفوس بما عملت . وإن كان جرى ذكره في الزمن الممتد السالف ذكره وكان جزءا منه وهو وقت نشر الصحف . إلا أنه لما كان بعض هذه الأمور من مبادئه وبعضها من روافده، نسب علمها بذلك إلى زمان وقوع هذه الأمور كلها، تهويلا للخطب وتفضيعا للأمر، وهو خطب فظيع جد فظيع.

وقوله تعالى [فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا

ذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)].

قوله جل شأنه (فلا أقسم بالخنس) "لا" مثبتة للقسم، ويؤتى بمثل هذا التركيب للتأكيد. والخنس: هي النجوم، سميت بذلك لأنها تخنس بالنهار أي تختفي عن الأعين وتظهر بالليل، من الخنوس وهو الانقباض والاستخفاء، ومنه الخَنَاس على ما سيأتي بيانه.

وقوله تعالى (الجوار الكنس) أصل الجوار بالياء، وإنما حذفتم تخفيفا، من الجري وهو المشي بسرعة، والكنس: أي التي تستتر وقت غروبها بنزولها تحت الأفق، والكنس: جمع كانس من كنس الظبي إذا دخل كناسه وهو بيته الذي يتخذه من أغصان الشجر، فشبهت به الكواكب لأن لها منازل إذا دخلت فيها اختفت عن العيون.

والحاصل: أنه تعالى أقسم بالنجوم التي تخنس بالنهار، أي يغيب ضوءها فيه عن الأبصار مع كونها فوق الأفق وتظهر بالليل، والتي تكنس أي تستتر وقت غروبها فتختفي في منازلها فلا ترى لا ليلا ولا نهارا حتى يأتي زمن طلوعها فتظهر مرة أخرى، وهكذا إلى أن يشاء الله رب العالمين.

وهي بهذه الحركات المختلفة والأحوال المتسقة تدل على عظمة مبدعها
وقدرة خالقها ومصرفها، فسبحانه جل في علاه، وتعالى عما يقول الظالمون
علوا كبيرا.

وقوله تعالى (والليل إذا عسعس) أي أدبر بظلامه أو أقبل، لأن كلمة
عسعس تطلق على المعنيين فهي من المشترك المعنوي، وإن كان الظاهر
أن المراد الأول ليتوافق مع قوله تعالى (والليل إذ أدبر * والصبح إذا
أسفر).

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عمرو بن حريث رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ
في الفجر (والليل إذا عسعس).

وقوله سبحانه (والصبح إذا تنفس) أي إذا أقبل بضوءه، وأصل التنفس:
خروج النفس من الجوف، فجعل النسيم الذي يقبل مع الصبح نفسا له.

وقوله تعالى (إنه لقول رسول كريم) هذا جواب القسم في الآيات السابقة،
وهو مع كونه جوابا للقسم جاء مؤكدا بأنّ واللام ليثبت أن ما جاء به

الرسول ﷺ حق وصدق من عند الله تعالى ووحى منه، ليس تقولا من الرسول ﷺ ولا افتراه كما زعم المشركون.

والضمير في (إنه) عائذ على القرآن الكريم، والمقصود بالرسول هنا جبريل عليه السلام، وإنما أضيف إليه القرآن لكونه نزل به من عند الله إلى محمد ﷺ،

وقد أضاف الله القرآن إلى جبريل كما هنا، وإلى محمد ﷺ كما في قوله تعالى في سورة الحاقة (إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون) فإضافته إلى جبريل لكونه بلغه عن الله تعالى إلى محمد ﷺ، وإضافته إلى محمد ﷺ لكونه بلغه إلى الناس، وإلا فالذي قاله ابتداء هو الله ﷻ كما قال جل شأنه (وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين).

ووصف الله تعالى جبريل عليه السلام في هذه الآية بالكرم: لحسن خلقه ومنظره وجمال هيئته وكثرة خصاله الحميدة، إذ أنه أفضل الملائكة وأعظمهم رتبة عند الله رب العالمين كما قال تعالى عنه (ذي قوة عند

العرش مكين) أي أعطاه الله قوة عظيمة حتى أنه قلب ديار قوم لوط وهي سبع قرى على طرف جناحه، وقد رآه نبينا محمد ﷺ في الأفق له ستمائة جناح قد سد بها الأفق.

وقوله تعالى (عند ذي العرش مكين) أي أن جبريل عليه السلام له مكانة عند الله تعالى مالك العرش العظيم، ولذا اختاره من بين سائر الملائكة لإنزال الوحي الذي هو أفضل النعم على بني آدم لأن به صلاح حياتهم في الدنيا والأخرى.

وقوله تعالى (مطاع ثم أمين) مطاع: أي مسموع القول، مطاع من قبل الملائكة، وثمّ: أي هناك في الملأ الأعلى، وأمين: أي ذو أمانة وقيام بما أمر به لا يزيد ولا ينقص ولا يتعد ما حد له.

وهذه الآيات تزكية لجبريل عليه السلام ونعت له، وبيان لعظيم منزلته عند الله تعالى، وهذا يدل على صدق القرآن وحفظه من الزيادة والنقصان، وأهميته عند الله تعالى وشرفه حيث أرسل به أفضل ملائكته وأشرفهم.

ثم أنّ الله تعالى بعد أن زكّى رسوله الملكى جبريل عليه السلام زكّى رسوله البشرى محمد ﷺ وهو الذى يعرفه المشركون كما يعرفون أبناءهم، لأنّه قد عايشهم عقودا متتابعة من الأعوام حتى عرفوه حق المعرفة ولقبوه بالصادق الأمين لصدقه وأمانته، لكن لما جاءهم بالحق من عند الله همزوه ولمزوه ووصفوه بالسحر والكهانة والشعر والجنون، فرد الله تعالى عليهم فريتهم فقال ﷺ (وما صاحبكم بمجنون) صاحب: هو الملازم، وجاء التعبير به هنا ليدل على عمق معرفة الكفار بالرسول ﷺ، كيف لا وهو الذى صاحبهم أربعين سنة أو تزيد؟.

ومن المعروف أن صاحب يطلع على أحوال صاحبه ويعرف جميع صفاته وباطن مخبره فى أقل من ذلك، لكن لما افترى أولئك المشركون على رسول الله ﷺ أنه مجنون نفى العليم الخبير تلك الصفة عن رسوله البشير النذير ﷺ فقال: (وما صاحبكم بمجنون) أي: بل هو أعقل العقلاء، أكمل الناس عقلا وأسدهم رأيا وأصدقهم لهجة، بلا شك ولا ريب.

وقوله تعالى (ولقد رآه بالأفق المبين) الأفق: هو أعلى ما يلوح للبصر،
والرائي: هو محمد رسول الله ﷺ، والمرأي: هو جبريل الأمين عليه السلام.
والمعنى ولقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق الواضح البين، وهذا
مفاد قوله تعالى (رآه بالأفق) يعني ومحمد ﷺ في الأرض، وهذه الرؤية
هي الرؤية الأولى لما كان رسول الله ﷺ في غار حراء كما ثبت في
الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "جاورت في حراء، فلما
قضيت جوارى هبطت فاستبطنت الوادي، فنوديت فنظرت أمامي وخلفي
وعن يميني وعن شمالي، فرفعت بصري فإذا هو جالس على عرش بين
السماء والأرض، فأتيت خديجة فقلت: دثروني، وصبوا علي ماء بارداً،
وأنزل علي (يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر).
وقوله تعالى (وما هو على الغيب بضنين) ما: نافية، وهو: أي محمد ﷺ،
وعلى: بمعنى {ب} لأن حروف الجر تتعاقب، والغيب: المقصود به
الوحي، وضنين: من الضن وهو البخل.

والمعنى وما محمد ﷺ بما أنزل عليه من الوحي ببخيل حتى يمنعه عن الناس، بل هو به جواد كريم يبذله للكبير والصغير والحر والعبد والغني والفقير والذكر والأنثى والحضري والبدوي، ويعلم أصحابه إجابة وابتداء، ومن أدلّ الأدلة على ذلك أنه بعث في أمة أمية فلم تمر سنوات معدودة إلا وهي أعلم الأمم وأفقهها، ولا معلم لها سواه بأبي هو وأمي ﷺ.

وورد في بعض القراءات بظنين - بالظاء بدل الضاد - من الظن وهو التهمة، وتكون على بمعنى {في} على أن معنى الجملة: وما محمد ﷺ في تبليغه الوحي بمتهم، بل صادق أمين ناصح بار دون شك ولا ريب، وكلا القراءتين والمعنيين صحيح ظاهر، وهذا من أبلغ التزكية له ﷺ.

وقوله تعالى (وما هو بقول شيطان رجيم) أي: وما هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ مما أوحته إليه الشياطين حتى تقولوا أنه كهانة، بل هو منزل من عند الله حقا وصدقا، جاء به أمين السماء إلى أمين الأرض، فهو من أمين إلى أمين، وليس من أخبار الكهان الكذابين، ولا من أنباء الشياطين الدجالين، إذ أنهم يعجزون عن قول مثله وعن حمل بعضه كما قال تعالى

(وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون) وكقوله تعالى (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين).

وهذا من أبلغ التزكية للقرآن العظيم ومن أعظم الأدلة على صدقه وكونه من عند الله تعالى بنقل العدل الضابط الأمين عن العدل الضابط الأمين، فهو كلام الله لا زيادة فيه ولا نقصان ولا شك ولا ارتياب.

ولذلك نعى الله على كفار قريش تخاذلهم عن الإيمان به، ونكوصهم عن التصديق به بعد أن تبينت لهم كل هذه الأدلة الدالة على كونه من عند الله تعالى، فقال جل شأنه (فأين تذهبون) أي: بأيّ طريق تسلكون أبين وأوضح من هذه الطريق التي بينت لكم؟.

وكيف يخطر ببالكم ويجري في أذهانكم أن كلام الله الحق المبين - الذي هو أعلى درجات الصدق واليقين - ككلام الكهان والشياطين - الذي هو أسفل دركات الكذب والمين - وهل هذا إلا من انعكاس الحقائق وانقلاب الموازين؟؟!.

وقوله تعالى (إن هو إلا ذكر للعالمين) إن: نافية بمعنى ما، والعالمين: هم جميع الناس الذين أرسل إليهم محمد ﷺ.

والمعنى وما هذا القرآن إلا ذكر يتعظ به من أرسل إليهم محمد ﷺ، تذكير لهم بربهم وصفاته، وتذكير لهم بما أحل لهم وما حرم عليهم، وتذكير لهم بما ينفعهم في الدنيا والآخرة، ولذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فهذا الذكر فيه الرحمة وفيه الهداية وفيه طريق الاستقامة، ولذا قال ﷺ (لمن شاء منكم أن يستقيم) أي: فإنه يطلب الاستقامة في القرآن الكريم، فإن فيه الهدى لمن أراد الهداية، ولا هداية في غير ما جاء به الصادق الأمين محمد ﷺ.

وقوله تعالى (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) أي: ليست المشيئة موكولة إليكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل كل ذلك تابع لمشيئة الله تعالى وعلمه بمن هو أهل للهداية ومجاهد لنفسه عليها فيهديه بفضله، ومن علم منه أنه ليس أهلاً لها وأنه من الغاوين المتبعين للشهوات والشبهات فيضله - ﷻ - بعدله وحكمته.

وليس في ذلك إباحة الاختيار للإنسان وإن كان له حرية الاختيار، ذلك لأن الله تعالى وضع طريق الخير وأمر به، وبين طريق الشر ونهى عنه، فمن اختار طريق الخير فبمشيئته بعد مشيئة الله تعالى وتوفيقه له، وهو من الصالحين لأنه اختار ما يرضي الله تعالى وما يحبه واتبع سبل السلام فهداه الله ورضي عنه.

ومن اختار طريق الشر فبمشيئته بعد مشيئة الله تعالى وحكمته، وهو من العاصين لأنه اختار ما نهى الله تعالى عنه واتبع سبل الفساد، فاستحق سخط الله عليه وجازاه بما يستحق.

وهذا بين ظاهر في قوله تعالى (إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر، وإن شكروا يرضه لكم) وهو كقوله تعالى (إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا * وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيمًا * يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما).

وقوله تعالى عن نفسه (رب العالمين) الرب: هو الخالق المالك المدبر، والعالمين: هم كل من سوى الله ﷻ، فهو سبحانه رب جميع المخلوقات، وهو الذي خلقها، والذي هو يملكها ملكا حقيقيا تاما، وهو الذي يدبرها فلا يكون شيء منها إلا بإذنه، ولا يقع منها أمر إلا بعلمه ومشيئته، ملكه لها ملك عام مطلق، وحكمه فيها حكم نافذ لا يرد، سبحانه وبحمده هو نعم المولى ونعم النصير.

ما يستفاد من هذه السورة

١/ تغيّر الكون يوم القيامة واختلال نظامه، مما يدل على هول ذلك اليوم واختلافه عن سائر الأيام، وفي ذلك إشارة إلى شدة وقعه على النفوس.

٢/ الإشارة إلى أن لكل بداية نهاية مهما طال الزمن، فالشمس التي مرت عليها ملايين السنين تنتهي ويختفي ضوءها ويستغني عنها الخلائق.

٣/ انطماس الكواكب وتفرقها وتهاويها يوم القيامة.

٤/ زوال الجبال عن أماكنها ورجوعها سرايا هباء بعد أن كانت صلبة متماسكة، وإذا كانت الجبال الصلبة تتأثر من يوم القيامة فكيف بابن آدم الذي أصله من ماء مهين.

٥/ اشتغال الناس يوم القيامة عن منافعهم بأنفسهم، وإهمالهم لنفائس أموالهم، وفي ذلك إشارة إلى أن المال لا ينفع صاحبه يوم القيامة، وأن الناس يزهدون فيه زهدا تاما.

٦/ إثبات حشر الوحوش والدواب يوم القيامة ليققتص لبعضها من بعض، وهذا من تمام عدل الله وكماله، وبيان أن يوم القيامة هو يوم الجزاء الأكبر على كل صغيرة وكبيرة.

٧/ تغير الأشياء عن طبائعها واختلافها عن عاداتها يوم القيامة، فالبحر الذي هو ماء يعود نارا تأجج بعد أن كان يطفئ النار، وهذا دليل على قدرة الله على كل شيء.

٨/ حشر كل صنف مع من يناسبه يوم القيامة من أشكاله وأضرابه.

٩/ توبيخ وتقرير الظالمين يوم القيامة، وشدة بطش الله بهم، وانقطاع حججهم وتلبيساتهم، وذلك بسؤال من ظلموه بحضرتهم ليستبين ظلمهم له واستحقاقهم للعذاب.

١٠/ تطاير صحف الأعمال، وأخذ كل إنسان صحيفته وإطلاعه على عمله، وفي ذلك إشارة إلى أن الإنسان لم يكن في الدنيا مهملا بل كان عليه من يحفظ أقواله وأفعاله ليجازى بها يوم القيامة.

١١/ تغير السماء وزوالها من مكانها، وبيان أنها تكون كالسجل بيد الله تعالى، وفي ذلك دليل على عظمة الله وقدرته جلّ جلاله.

١٢/ تأجج النار يوم القيامة وتغيظها على العصاة وزيادة إيقادها لتزداد حرارة على حرارتها.

١٣/ تقريب الجنة من المتقين دليل على إكرامهم وعلو مكانهم وشرف مقامهم.

١٤/ انكشاف الحقائق يوم القيامة والأسرار والمخفيات وظهورها.

١٥/ قسم الله بالنجوم السيارة دليل على عظمتها، وعظمة المخلوق دالة على عظمة خالقه.

١٦/ قسم الله بالليل والنهار واختلافهما وتضادهما دليل على أنه يفعل ما يشاء ويقضي ما يريد، لا يعجزه شيء عن ضده ولا النظير عن نظيره.

١٧/ شرف القرآن وحفظه من الزيادة والنقصان، وبيان أنه أرسل به رسول ملكي كريم إلى رسول بشري كريم، وكرمهما دليل على أنهما أمينان شريفان لا يكذبان ولا يخونان.

١٨/ ثناء الله تعالى على جبريل عليه السلام بالقوة والمكانة عند الله، وبيان أنه مطاع بين الملائكة، وأنه ذو رتبة وشرف وسيادة على الملائكة.

١٩/ اختيار الله تعالى من بين الملائكة دليل على أنه على قدر عال من الطاعة والتقرب إلى الله وحفظ أمره وكرمه على ربه.

٢٠/ نفي الجنون عن رسول الله ﷺ وتزكيتة، وبيان عقله الراجح ورأيه الثاقب.

٢١/ إثبات رؤية محمد ﷺ لجبريل عليه السلام بوضوح وظهور على هيئته التي خلقه الله عليها.

٢٢/ تنزيه جناب الرسول ﷺ عن أن يكون أخفى شيئا من الوحي أو كتمه، أو قصر في تبليغ الرسالة أو كلّ عنها أو ملّ، أو احتكر شيئا منها عن أحد من الناس كائنا من كان، وفي ذلك رد على أهل البدع الذي يستدركون على رسول الله ﷺ في أمور الدين فيحدثون فيه ما لم يشرع ﷺ.

٢٣/ تنزيه القرآن العظيم عن أن يكون من وحي الشياطين أو اختلاق الأفاكين، وبيان أنه من عند الله حقا وصدقا.

٢٤/ الإشارة إلى أن الكافر، مرتبك التفكير متردد في المسير، كالشاة العائرة لا يدري ما يقول ولا يعرف إلى ماذا يهدف، وذلك لأنه كذب بالحق ونصر الباطل فعاش حيرانا كئيبا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، فالبهائم

أهدى منه إلى خالقها وأعرف بطريقها إليه منه، وفي ذك إشارة إلى أن المشركين لا يعقلون.

٢٥/ الثناء على القرآن العظيم، وبيان أن فيه ذكر وشرف للعالمين، وأن صلاحهم في تمسكهم به.

٢٦/ بيان أن الاستقامة في التمسك بالقرآن الكريم، وأن من ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

٢٧/ بيان أن مشيئة الإنسان مقيدة بمشيئة ربه، وأن الله يهدي من يشاء بعلمه وفضله، ويضل من يشاء بحكمته وعدله، فهو أعلم بعباده منهم بأنفسهم، وأعلم بأعمالهم وما انطوت عليه أفئدتهم وقلوبهم، فهو أعلم بالصالح فيصلحه ويهديه، وعليم بالفاسد فيضله ويغويه.

٢٨/ بيان أن من اهتدى فبهدي الله له، ومن ضل فبعدل الله، ولا يظلم ربك أحداً.

٢٩/ ربوبية الله للعالمين المتمثلة في خلقهم وملكهم وتديبرهم دليل على علمه بأحوالهم وبما ينفعهم وبما عملوا وبما هم عاملون.

تفسير سورة الإنفطار

سورة الإنفطار مكية، نزلت بعد سورة النازعات، عدد آياتها {١٩}، ترتيبها

في المصحف {٨٢}، ترتيبها في النزول {٨٢}.

باب

عن جابر رضي الله عنه قال: قام معاذ ف صلى العشاء الآخرة فطوّل، فقال النبي ﷺ "أفتان يامعاذ؟. أفتان يامعاذ؟. أين كنت عن (سبح اسم ربك الأعلى) (والضحى) و(إذا السماء انفطرت). رواه النسائي، وأصل الحديث في الصحيحين.

وانظر للمزيد أول سورة التكوير.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)].

قوله تعالى (إذا السماء انفطرت) إذا: في هذه الآية والثلاث الآيات التي تليها شرطية.

ومعنى (انفطرت) انشقت، من الفطر وهو الشق، ومنه قوله تعالى (السماء منفطر به) أي منشق بسببه، وفي سورة الانشقاق قال تعالى (إذا السماء انشقت).

وقوله تعالى (وإذا الكواكب انتثرت) الكواكب: هي النجوم صغيرها وكبيرها، ومعنى انتثرت: أي تهاوت وتساقطت متفرقة، من قولهم نثر الشيء: إذا رماه متفرقا.

وقوله تعالى (وإذا البحار فجرت) أي فجر بعضها على بعض فاختلفت عذبها بمالحها وملئت الأرض بمجموعها، ومنه قولهم فجر الشيء . بالتخفيف والتشديد . أي شقه شقا واسعا.

وقوله سبحانه (وإذا القبور بعثرت) أي أخرج ما فيها من الموتى ليقوموا بين يدي الله رب العالمين ليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون، وهذا كقوله تعالى (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور) يقال بعثر الشيء: إذا فرقه وبدده وقلب بعضه على بعض واستخرجه فكشفه وأثار ما فيه،

فإذا وقع كل ما تقدم بسبب هول يوم القيامة فعند ذلك يكون الأمر كما قال
ﷺ (علمت نفس ما قدمت وأخرت) وهذا جواب إذا في الآيات الأربع
السابقة.

(نفس) نكرة يراد بها العموم، فيكون المعنى علمت كل نفس ما عملت من
خير أو شر في القديم والحديث وأول الأمر وآخره من صغير العمل وكبيره.
أو أن المعنى: علمت كل نفس ما قدمت من خير أو شر قبل موتها وما
تركت من أمور بعدها مما يقتدى بها فيه، فإن كان خيرا فلها مثل أجر من
عمل به، وإن كان شرا فعليها مثل وزر من عمل به، كما ثبت عند مسلم
وغيره أن النبي ﷺ قال: "من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من
عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن سن في الإسلام سنة
سيئة فعليها وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا".
ويدخل في هذا ما يلحق الإنسان بعد موته كما جاء عند مسلم أيضا عن
أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من
ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

فكل هذه الأعمال يجدها الإنسان يوم القيامة ما عمل منها وما كان سببا في عمله أو اقتدي به فيه، ولا يظلم ربك (متقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما).

وقوله تعالى (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم) هذا خطاب من الله سبحانه وتعالى للإنسان ويشمل المسلم والكافر، وما: استفهامية، غرك: أي خدعك وأطمعك في ربك فاجترأت عليه وتهاونت بأمره وخالفته فعصيته، بل ربما كذب بعض الإنسانية بالبعث والجزاء بل وبوجود الله تعالى.

وفي ختم الآية بقول تعالى (الكريم) إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأعمال القبيحة والفجور والعصيان، كيف لا وهو الذي له النعم العظيمة والآلاء الجسيمة على هذا الإنسان كما قال تعالى عن نفسه مبينا بعض فضله على هذا المخلوق الكفّار (الذي خلقك فسواك فعدلك) خلقك: أي أوجدك من عدم، فسواك: من التسوية وهي جعل الشيء سواء، والمعنى: جعلك مستوي الخلقة، فيديك طولهما سواء، وكذا طول رجلتك، وحجم عينيك، وكبر أذنك، وليس واحدة من ذلك أطول أو أكبر من أختها.

(فعدلك) أي جعلك معتدل القامة مستوي الخلفة، لست كالبهائم تمشي على

يديك ورجليك بل ميزك بخاصية الإعتدال فجعلك تمشي على رجليك.

وقوله سبحانه ((فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ [الانفطار:٨]) أي وهو قادر -

سبحانه - على خلقك في أي شكل شاء وبأي لون شاء، فلو شاء جعلك

أسود أو أبيض أو أحمر أو غير ذلك، ولو شاء جعلك قردا أو خنزيرا أو

حميرا أو غير ذلك، فهو الذي لما خلقك لم يستشرك في أي صورة تشاء

أجعلك؟ بل أنه خلقك بقدرته ومشيئته، فخلقك على هذه الصورة الحسنة

الجميلة لتشكر نعمته وتعترف بفضله.

فيا ترى هل قابل الإنسان هذا الإحسان بالإحسان؟؟!

الجواب: لا، بل كذب أكثر الخلق بربهم وبلقاءه وكفروا نعمه، ولهذا قال

ﷻ ((كَلَّا بَلْ تُكَدِّبُونَ بِالَّذِينَ [الانفطار:٩]) كلا: للإضراب، يعني: مع هذا

الخلق والإعداد تكذبون بالدين، وهذا هو الذي حملكم على مواجهة الكريم

بالإساءة وعلى التماذي في المعاصي.

فلو كان هذا المكذب يؤمن بيوم الدين وأنه ملاق رب العالمين لما اغتر عنه بجهله وخدعه غروره فلم يشكر نعم الله عليه.

ومعنى الدين هنا الحساب والجزاء، وفي ذلك إشارة إلى أن عامة من لم يشكر نعم الله وكفر بالله هم من الذين لا يؤمنون باليوم الآخر ولقاء الله تعالى، لأن من آمن بلقاء الله حمّله إيمانه على الخوف من الله، ومن ثمّ على العمل بما يرضي الله، والبعد عما يسخطه، ولم يغره عن مراقبته ربه ومولاه شيء.

وقوله تعالى (وإن عليكم لحافظين) هذه الجملة مؤكدة بمؤكدتين اثنتين، الأول: إنّ، والثاني: اللام في قوله (الحافظين).

والمعنى: أن معكم من يحفظ عليكم أعمالكم - إن خيراً فخير، وإن شراً فشر - حتى توافون بها بين يدي الله فيحاسبكم بها، وهذا هو الجزاء المذكور في الآية السابقة.

وقوله تعالى (كراما كاتبين) هذا نعت للملائكة الحفظة الموكلين بكتب أعمال العباد بأنهم كرام غير لئام، فهم من كرمهم لا يظلمون الإنسان شيئاً، فلا يكتبون عليه إلا ما فعل.

وقوله (كاتبين) أي لأعمالكم، فهم يكتبونها فسموا الكتبة والكاتبين، وهو يحفظونها فسموا الحفظة والحافظين.

وقوله تعالى (يعلمون ما تفعلون) أي هم عالمون بأفعالكم بالمشاهدة، وأقوالكم بالسماع، وكذلك يطلعهم الله على أعمال القلوب فيكتبونها أيضاً كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك فقال: "...ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة، ومن همّ بالسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة كاملة". فأثيب هذان بهمّهما . والهمّ من عمل القلب . وكانت كتابة ذلك لما أطلع الله الملك الحافظ على ذلك.

وقوله تعالى [إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ

الدّين (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا
وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلّهِ (١٩)].

قوله تعالى (إن الأبرار لفي نعيم) يبين - سبحانه - فيه نتيجة كتابة الملكين
لأعمال بني آدم في الدنيا، فيذكر في هذه الآية أن من كان منهم من
الأبرار وهم: جمع برّ، أي متصف بالخير وبكثرة فعله له، فهو قائم بحقوق
الله وحقوق عباده، ملازم للبرّ في عمل القلب وعمل الجوارح . فهذا جزاءه
نعيم دائم حقيقي، يفوق ما سمعت وصفه الآذان، أو رأت مثله العيون، أو
خطر على قلب أي بشر، وهذا النعيم ملازم لهذا البار في الدنيا متمثلا في
راحة البال واطمئنان خاطر، وهو لاقية في الآخرة على ما تقدم ذكره
وبيانه.

وقوله تعالى (وإن الفجار لفي جحيم) في هذا بيان جزاء من كان من
الفجار، وهم: جمع فاجر من الفجور: وهو شق ستر الديانة، وأصله الفَجْرُ
وهو الشق الواسع، فهؤلاء الفجار مقصرون في حق الله وفي حق عباد الله،
فكان جزاءهم أنهم في جحيم، وهي النار الشديدة الحرارة.

وقوله سبحانه (يصلونها يوم الدين) أي يدخلونها ويعذبون بها يوم الدين وهو يوم الحساب والجزاء على الأعمال التي عملها العبد في الدنيا وحفظها عليه الحفظة.

وقوله ﷻ (وما هم عنها بغائبين) أي وليسوا بخارجين منها، ولا هي عنهم مفترقة ولا لساعة أو لحظة، بل عذابهم دائم أبدي وأزلي سرمدي.

وقوله سبحانه (وما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين) هذا الإستفهام للتفخيم والتعظيم، وفيه تهويل لذلك اليوم الشديد، الذي تضع فيه الحوامل حملهن، وتذهل المراضع عن مراضيعهن، ويفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، ويقول فيه كل إنسان نفسي نفسي، ولا يجزي فيه والد عن ولده ولا ولد عن والده، بل لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه عن أهله وذويه، ولذا قال ﷻ في بيان هول ذلك اليوم (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا) أي يوم لا يقدر فيه أحد أن ينفع أحدا ولو كان من أقرب المقربين إليه إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، بل كل واحد منهم مشغول بنفسه لا يطلب الفكاك إلا لها، وليس له همّ إلا خلاصها، وهذا كما

قال الله تعالى (يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبه وأخيه * وفصيلته التي تؤويه * ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه).
وقوله تعالى (والأمر يومئذ لله) أي: الملك يوم القيامة لله وحده لا ينازعه أحد ولا يشاركه فرد، ولا يزعم أحد فيه أن له ملكا أو سلطانا أو أمرا أو نهيا ممن كان له الأمر والنهي في الدنيا، وهذا كقوله تعالى (لمن الملك اليوم، لله الواحد القهار).

وقد جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يقبض الله تعالى الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض".

فالملك لله يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، وهو الذي يفصل بين العباد، وينتصر للمظلوم من الظالم، ويجازي المحسن بالحسنى ويزيده من فضله وهو ذو الفضل العظيم، ويجازي الفاجر بعذله والله عليم حكيم.

ما يستفاد من هذه السورة

- ١/ شدة يوم القيامة، وعظم هوله، وتغير الكون فيه.
- ٢/ خروج الموتى من قبورهم يوم القيامة، وموافاتهم للجزاء والحساب بين يدي الله العظيم.
- ٣/ ملاقة الإنسان لعمله، ورؤيته له جميعا لا ينقص منه صغيرة ولا كبيرة.
- ٤/ اغترار الإنسان بحلم الله وكرمه، وتماديه في الباطل حتى يأتيه الموت فيندم ولات حين مندم.
- ٥/ ذكر بعض نعم الله الجليلة على الإنسان والتي تستدعي شكرها والقيام بحق الله عليه بموجبها ولكن الإنسان ظلوم كفار.
- ٦/ تشريف الإنسان وتكريمه بتسوية خلقه واعتدال هيئته وتحسين صورته، وهذا من فضل الله عليه ومما يستحق أن يولى بالاهتمام ويقابل مسديه بالشكر والقيام بما أمر.
- ٧/ تكذيب بعض الناس بالحساب والجزاء يسبب كفر النعم والإفساد في الأرض.

٨/ ذكر الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم بكتابتها وحفظها وذكر صفاتهم.

٩/ إطلاع الله للملائكة الحفظة على أعمال بني آدم لتقييدها عليهم، والشهادة بها بين يدي الله يوم القيامة.

١٠/ الإشارة إلى أن مع الإنسان من ينظر عمله ويعلمه، ومن ثمّ دعوة الإنسان إلى أن يستحي منه، وأن يثابر عل الخير، وأن يبتعد عن الشر والقبائح.

١١/ جزاء الأبرار نعيم عظيم في الدنيا والآخرة.

١٢/ جزاء الفجار نار مستعرة تحرق أجسادهم وتنفذ إلى بطونهم.

١٣/ خلود الفجار في النار وعدم خروجهم منها، وأنهم لا يستريحون من عذابها.

١٤/ شدة يوم القيامة وعظم هوله، وأنه يفوق الوصف والخيال.

١٥/ اهتمام كل نفس يوم القيامة بنفسها، وعدم مبالاتها بما يلاقيه غيرها ولو كان أقرب المقربين إليها.

١٦/ انفراد الله بالملك والأمر يوم القيامة، وزوال ملك ملوك الدنيا القاصر

عنهم، وخضوعهم بين يدي الله يوم القيامة.

١٧/ في كون الأمر لله يوم القيامة إشارة إلى سعادة المؤمنين الذين كانوا

يتقربون إليه سبحانه ويتزلفون بعبادته وطاعته، كما أن فيه إشارة إلى بعد

أولئك الفجار الذين طالما جاهروا الله بالمعاصي وبارزوه بالقبائح.

تفسير سورة المطففين

سورة المطففين مكية، نزلت بعد سورة العنكبوت، وهي آخر سورة نزلت بمكة، عدد آياتها {٣٦}، وترتيبها في المصحف {٨٣}، وترتيبها في النزول {٨٦}.

سبب النزول

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله (ويل للمطففين) فحسنوا الكيل بعد ذلك. رواه النسائي وابن ماجه.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)].

قوله تعالى (ويل للمطففين) ويل كلمة وعيد بعذاب وعقاب، والمطففين: جمع مطفف وهو الذي يبخر المكيال والميزان، من الطفيف وهو الشيء الحقير اليسير، لأن ما يبخره المطفف شيء تافه قليل.

ثم بين سبحانه المقصود بذلك فقال (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) معنى اكتالوا على الناس أي اشتروا منهم ما يكال، وعلى هنا بمعنى منَ وهما يتعاقبان، وإنما عبّر بـ (على) ليتضمن معنى الاستيلاء والأخذ بالحظ الوافر وهذا معنى قوله يستوفون أي يأخذون ما لهم وافيا كاملا من غير نقص بل ربما كان زائدا، بعكس ما إذا باعوا للناس فإنهم لا يوفون المكيال ولا الميزان، بل يطففون ويبخسون ويحتالون لذلك بأنواع الحيل، ولذا قال سبحانه (وإذا كالوهم أو وزنوهم) أي باعوا لهم ما يوزن (يخسرون) من الخسارة وهي النقص، أي ينقصون مما يبيعونه لهم ولا يوفونه.

وقوله تعالى (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم) الهمزة: همزة استفهام، وإنما أدخلت على لا النافية توبيخا وإنكارا وتعجبا من حالهم،

ويظن هنا بمعنى يتيقن، وكثيرا ما ترد ظنّ بمعنى اليقين كما قال تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم، وأنهم إليه راجعون). ومعنى مبعوثون: أي خارجون من قبورهم بعد موتهم ليجازون على أعمالهم بين يدي ربهم، في يوم عظيم جد عظيم لا سيما على من لم يراع شرع الله ولم يؤد حقوق عباد الله، بل تمادى في ظلم الناس وأخذ أموالهم كما يفعل هؤلاء المطفون. والمعنى: كيف يستمر أولئك في عملهم هذا ؟.

ألا يخطر ببالهم أنهم سيبعثون!! وعلى أعمالهم سيحاسبون!! وعن مقال الذرة سيسألون؟.

فإن من تيقن ذلك لا يكاد يجترئ على أخذ أموال الناس.

ثم بين تعالى ذلك اليوم فقال عنه (يوم يقوم الناس رب العالمين) القيام: هو الوقوف على الأرجل، وإنما سمي يوم القيامة بهذا لأن الناس فيه واقفين لا يقعدون في موقف حرج ضحك على المجرمين، حتى أنهم ليرتمون أن لو يلقوا في النار ويتخلصون من مقامهم ذلك كما ورد في بعض الآثار.

وقد جاء في الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "(يوم يقوم الناس لرب العالمين) قال: "يقومون في الرشح إلى أنصاف آذانهم".

وجاء في صحيح مسلم عن المقداد ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "تدنى الشمس من الخلق يوم القيامة حتى تكون منهم كمقدار ميل". قال سليم بن عامر . الراوي عن المقداد . فوالله ما أدري بالميل أمسافة الأرض؟ أم الميل الذي تكتحل به العين؟. قال: "فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاما". قال وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه.

وروى مسلم عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ "(في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) يعني يوم القيامة".

وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجه عن عاصم بن حميد قال سألت عائشة

بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ يَفْتَتِحُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قِيَامَ اللَّيْلِ فَقَالَتْ لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ
مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَدٌ قَبْلَكَ كَانَ إِذَا قَامَ كَبَّرَ عَشْرًا وَحَمِدَ اللَّهَ عَشْرًا وَسَبَّحَ عَشْرًا
وَهَلَّلَ عَشْرًا وَاسْتَغْفَرَ عَشْرًا وَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي
وَيَتَعَوَّذُ مِنْ ضِيقِ الْمَقَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وقوله تعالى [كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ
(٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ
(١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ
عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ
هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)].

قوله جل شأنه (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين) كلا: بمعنى حقا، وكتاب
الفجار: أي ما كتبت فيه أعمالهم، كما أن مصيرهم أنفسهم إليه، وهذا كما
جاء في حديث البراء الطويل في قبض روح المؤمن والكافر وفيه في صفة
قبض روح الفاجر "اكتبوا كتاب عبي في سجين". والمقصود بالكتاب:
صاحبه وهذا وارد في الشرع كثيرا يذكر الشيء ويقصد صاحبه ومنه قوله
ﷺ "ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار" والمقصود صاحب الإزار.

والفجار: جمع فاجر المقصود بذلك الكفار والعصاة، ومنهم الذين كانوا يطففون المكيال والميزان.

و(سجّين) صيغة مبالغة من السجن، وهو المكان الضيق الذي يحبس فيه، وهو أسفل سافلين المذكور في سورة التين.

وقوله تعالى (وما أدراك ما سجين) أي وما تدري ما سجين هذا الذي سيصير إليه هؤلاء الفجار؟!.

وهذا الإستفهام يقصد به تعظيم المستفهم عنه تعظيما يبين هولاه وشده.

وقوله جل شأنه (كتاب مرقوم) هذا بيان للكتاب المذكور في الآية السابقة

(كلا إن كتاب الفجار لفي سجين) أي أن هذا الكتاب مرقوم فيه أعمالهم لا

يزاد فيه ولا يقص منه، ومعنى مرقوم أي مكتوب، من الرقم وهو الكتابة

البيئة الواضحة المعلومة.

وقوله تعالى (ويل يومئذ للمكذبين) ويل: أي عذاب وهلاك كما تقدم في

أول السورة.

و(يومئذ) أي يوم القيامة، والمعنى: ويل يوم القيامة للمكذبين بيوم القيامة.

ثم قال سبحانه وتعالى في بيان هؤلاء المكذبين (الذين يكذبون بيوم الدين) أي لا يصدقون بوقوعه ولا يؤمنون بمجيئه، بل هم له مستبعدون منكرون.

و(الدين) هو الجزاء، وإنما سمي يوم القيامة بهذا لكونه يجازى فيه الناس بأعمالهم، فمن آمن به فطوبى له وسعادة، ومن كفر به فتعسا له شقاوة، وما يكفر بيوم القيامة ويكذب به إلا من اتصف بصفات التي ذكرها سبحانه في قوله (وما يكذب به إلا كل معتد أثيم) أي وما ينكر وقوعه إلا كل من اتصف بكثرة اعتدائه على الخلق، فهو متجاوز لحدود الله، قد حمله تكذيبه بالبعث والجزاء على الاعتداء وفعل الآثام، وحمله كبره على بطل الحق ورده بعد وضوحه وظهوره، فهو كما قال تعالى عنه (وإذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) أي وإذا قرئت عليه آيات الله البينات الواضحات، فهو لم يقرأها بنفسه وإنما قرأها عليه أهل الإيمان لعله يؤمن أو يتذكر، لكنه يأبى ويتمرد ويقول: هذا أساطير الأولين، الأساطير: جمع أسطورة، وهي الكلام الذي يذكر للتسلية ولا حقيقة له ولا أصل.

والمعنى: أن هذا الفاجر إذا تليت عليه آيات الله كذب بها ولم يصدق أنها من عند الله، بل يزعم . وهو كاذب في زعمه . أنها من قصص الأولين، ولذلك لم يؤمن بها، فرد الله عليه زعمه قائلاً (كلا) أي ليس الأمر كما تزعم، وإنما هي آيات الله حقا.

ولكن هذا المجرم - ومن هو على شاكلته - قد (ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) ران: أي غلب وطمع على قلوبهم، (ما كانوا يكسبون) من المعاصي التي تراكمت وتوالت ولم يتخللها توبة ولا استغفار حتى عمي القلب بسببها عن قبول الحق وأصبح لا يبصر إلا هواه، كما جاء عند الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ثم ذكر سبحانه جزاءهم في الآخرة بعد أن ذكر كفرهم وسببه في الدنيا فقال (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) أي يحتجب عنهم ربهم فلا يرونه،

بخلاف المؤمنين الطائعين فإنهم يرونه . سبحانه . كما هو مفهوم المخالفة في هذه الآية، وهو منطوق غير ما آية في كتاب الله وغير ما حديث في سنة رسول الله ﷺ.

ولما كان هؤلاء الكفار في الدنيا قد حببوا قلوبهم بالمعاصي عن الاستتارة بنور الله وهدى آياته، كان مناسبا لهم أن يجازوا بهذا الجزاء العدل الحق فيحرموا رؤية ربهم التي هي أفضل ما أعطى عباده في الآخرة من النعيم. وهم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحيم الرحمن قد وجبت لهم النيران كما قال سبحانه (ثم إنهم لصالوا الجحيم) أي لداخلون النار ومقاسون حرها وشدائدها وعذابها.

ثم إنهم يوبخون ليزدادوا حسرة وتألما، فيجتمع عليهم ألم الجسم وألم القلب فيقال لهم توبيخا وتقريبا (هذا الذي كنتم به تكذبون) فاجتمع عليهم عذاب الجحيم، وعذاب حرمان رؤية الرحمن الرحيم، وعذاب التوبيخ واللوم (ومن يهن الله فما له من مكرم، إن الله يفعل ما يشاء).

وقوله تعالى [كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)].

قوله **عَلَيِّنَ** (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين) كلا: أي حقا، و(إن) للتوكيد، والكتاب المذكور هو ما كتب فيه عملهم، والمقصود أهله، الأبرار جمع برّ وهو القائم بعمل البرّ أي العمل الصالح، وهذا على الضد من الفاجر.

وقوله **(لفي عليين)** عليّون فعيل: صيغة مبالغة من العلو، والمعنى: في أعلى الأماكن وأشرفها وأرفعها وأوسعها وأطيبها، بخلاف الفجار الذين هم في أسفلها وأضيقتها وأخزاها.

ولما كان منزلة هؤلاء الأبرار عظيمة استقهم سبحانه عنها استقهما يفيد تعظيمها فقال جل شأنه **(وما أدراك ما عليون)** أي وما تدري ما حقيقتها وكنها وعظمتها وما احتوت عليه من طيب الصفات.

والمعنى: لقد احتوت على أعلى مما يتصور الإنسان أو يدور في خلد.

وقوله تعالى (كتاب مرقوم) هذا بيان للكتاب المذكور في الآية السابقة (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين) والمعنى: أنه كتاب قد رقم فيه عملهم فلا يزداد فيه ولا ينقص منه حتى يوافونه يوم القيامة.

وقوله سبحانه (يشهده المقربون) الضمير عائد إلى الكتاب المذكور، ومعنى يشهده أي يحضره أو يشهد به وبما فيه، والمقربون: هم الذين تقربوا إلى الله بصلاح الأعمال، فارتفعت منازلهم عند الله كما قال سبحانه (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات).

أو أن المقصود بالمقربين الملائكة الذين قربهم الله إليه وكلا الاحتمالين صحيح، فهذا الكتاب يشهده ويشهد بما فيه المقربون من الملائكة والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وكفى بالله شهيدا.

ثم قال سبحانه مبينا جزاء هؤلاء الأبرار (إن الأبرار لفي نعيم) إن: للتوكيد، والأبرار: قد تقدم تعريفهم، واللام: للتوكيد، والمعنى: حقا أكيدا أن الأبرار يوم القيامة لفي نعيم عظيم لا يخطر على بال، نعيم بدني بما أوتوا مما اشتتهت أنفسهم ولذت أعينهم وخطر على قلوبهم وأوتوا ما لم يخطر على

قلوبهم، ونعيم قلبي بما حصلوه من رضا الله عليهم ومجاورة رسوله الكريم في جنات النعيم، وكونهم في هذا النعيم خالدون لا يموتون ولا يمرضون ولا يحزنون ولا يخرجون، فلما كان هذا نعيمهم وفوق هذا استحق أن ينكر لفظه ليدل على عظمتة، وأنه فوق ما تتصوره الأذهان والعقول.

وقد ذكر - سبحانه - بعضا منه فقال ﷺ (على الأرائك ينظرون) الأرائك: جمع أريكة وهي السرير المزين المزخرف الذي وضع عليه مثل القبة، فهم عليها ينظرون إلى ما أعد لهم من النعيم بسائر أنواعه من قصور وأنهار وأشجار وخدام وأوان وغيرها، وهم أيضا على تلك السرر ينظرون إلى ربهم حين يكشف لهم الحجاب فيرونه عيانا كما يرى القمر ليلة البدر ليس دونه سحب ويحل رضوانه عليهم فلا يعطون شيئا أفضل من ذلك، وهذا في مقابلة حجب الفجار عن رؤيته ليزدادوا عذابا فوق العذاب.

وقوله سبحانه (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) الخطاب لكل من يصلح له الخطاب، والتقدير: أنك إذا رأيتهم وهم في الجنة فإنك ستري في وجوههم نضرة النعيم وهو حسنه ورونقه ونضارته، وحق لمن كان في الجنة واجتمع

له نعيمها وخلص من كل المنغصات والمكروهات حُقَّ له أي ينصّر وجهه
وأن تظهر علامات ذلك عليه.

وقوله سبحانه (يسقون من رحيق مختوم) يسقون: أي يسقيهم الخدم، كما
قال تعالى (ويطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين
* لا يصدعون عنها ولا ينزفون). والرحيق: هو الشراب الخالص الطيب
الذي لا ضرر فيه، وهو من ألد الأشرية ومنه الخمر الذي لا يضر بالعقل
ولا بالبدن، ومعنى مختوم: أي مصون أن يشاب بشيء، بل خالص صاف
طيب الريح لا قذى فيه ولا أذى، بل إن آخره . الذي عادة ما يرمى به في
الدنيا من أجل قذارته وترسب الأقدار فيه . إنه في خمر الجنة لمسك طيب
كما قال سبحانه (ختامه مسك) أي آخر ما تبقى منه في الإناء، فحري
بالمؤمن العاقل إذا علم هذا عن الجنة أن يسابق إليها ويسارع في طريقها
وينافس في سوقها ويزاحم في طلبها عسى أن يكون من أهلها، فإن نعيمها
هذا صفته لهو أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تراحمت
للوصول إليه فحول الرجال، ولذا قال سبحانه (وفي ذلك فليتنافس

المتنافسون) وأصل التنافس: التغالب في الشيء النفيس وهو ما تحرص على اكتسابه النفوس فيريده كل أحد لنفسه، مأخوذ من النفاسة. وهذا التنافس يكون في الطاعات وحبس النفس عن الشهوات، والموفق من وفقه الله تعالى.

وقوله جل شأنه (ومزاجه من تسنيم) أي ومزاج الشراب المتقدم وصفه من تسنيم، وهي عين في أعلى الجنة، يقال شيء مسنّم: أي مرتفع، وتسنيم: إسم مصدر، فهذه العين التي يمزج شراب أهل الجنة بها رفيعة حسا ومعنى.

وإذا كانت تمزج للأبرار أهل اليمين مزجا فإنها يشرب منها المقربون صرفا دون مزج كما قال تعالى (عينا يشرب بها المقربون) أي هذه التسنيم هي عين في أعلى الجنة يشرب منها لأن الباء بمعنى من وحروف الجر تتعاقب، والمقربون تقدم تعريفهم في الآيات السابقة.

وقوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣)

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥)
هَلْ تُثُوبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦).]

قوله تعالى (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) لما ذكر الله تعالى جزاء الفجار وثواب الأبرار في الآخرة، عقّب هنا بذكر بعض الأعمال التي كان يقوم بها الفجار تجاه الأبرار في الدنيا، وهي أنهم كانوا يضحكون منهم ويستهزؤون بهم ويسخرون منهم ويقولون أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، وهذا كقوله تعالى في سورة المؤمنين في جوابه للكفار أهل النار (قال اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادي يقولون * ربنا آما فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري، وكنتم منهم تضحكون * إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون).

وقوله ﷻ (وإذا مروا بهم يتغامزون) أي وإذا مرّ المجرمون بالمؤمنين فإن المجرمين يغمز بعضهم بعضا سخرية واستهزاء واحتقارا للمؤمنين.

وهم مع هذا آمنون من مكر الله، ويرون أنهم لم يفعلوا شيئا، وهذا بسبب أن الران قد علا على قلوبهم فأصبحت لا تعرف معروفا ولا تتكر منكرا، وفي

هذا يقول تعالى (وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلِبُوا فَكِهِينَ) أي وَإِذَا رَجَعَ
المجرمون إِلَىٰ بيوتهم رجعوا وهم فكهون وهي تحتل معنيين كلاهما
صحيح:.

الأول: من الفكاهة وهي التلذذ والتسلي بما نالوه من المؤمنين من أذى
وسخرية، فهم يخبرون أهليهم وجلساءهم بما بدر منهم تجاه المؤمنين إخبارا
للتلذذ والتسلي وإظهارا أنهم هم الغالبون.

الثاني: من التفكّه وهو التمتع أي وَإِذَا رَجَعُوا إِلَىٰ بيوتهم تفكّهوا بنعم الله ولم
يشكروها، أو يقودهم شكرها إلى معرفة حقه سبحانه عليهم فيقوموا بما أمر،
ويكونوا سلما لأوليائه، حربا على أعداءه، بل عكسوا الأمر وأطاعوا
الشيطان، فارتكبوا جرما عظيما بالاستهزاء بعباد الله والاستهانة بهم، ثم هم
مع ذلك آمنون من مكر الله مغترون ضاحكون، كأنهم قد علموا علم اليقين
أنهم من أهل السعادة في الآخرة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم هم المهتدون وأن
المؤمنين ضالون، وهذا من اكبر الافتراء على الله، والقول عليه بغير علم،
قال سبحانه (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ) ومعنى ضالين: أي

مخطئون للطريق الصحيح، فهم يزعمون أن المؤمنين لما خالفوهم وتركوا دينهم قد ضلوا عن سواء السبيل، وما علموا أنهم هم الضالون المنحرفون عن الصراط المستقيم.

وقوله جل شأنه (وما أرسلوا عليهم حافظين) أي وما بعث هؤلاء المجرمون وكلاء على المؤمنين يحفظون عليهم أعمالهم، بل إنهم في متابعتهم للمؤمنين وزعمهم أنهم ضلال لفي تتطع وضلال مبين.

وقوله جل شأنه (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) بين فيه مصير الفريقين وجزاءهم في الآخرة بأحسن الجزاء وأعدلته، وذلك أن الله يخزي المجرمين يوم القيامة، ويرفع المؤمنين درجات فيضحكون من المجرمين حين يرونهم في غمرات العذاب وفي دركات النيران أذلاء مهانين، جزاء ما كانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين ويهينونهم وفرق بين الضحكين:- فضحك المؤمنين على الصواب فرحا بنعمة الله عليهم وهدايته لهم، وضحك المجرمين على الضلال، وضحك المؤمنين لا بكاء بعده، وضحك

المجرمين بعده البكاء والعويل والدعاء بالويل والثبور، وضحك المؤمنين لا ينقطع، وضحك المجرمين سرعان ما يزول.

وقوله سبحانه (على الأرائك ينظرون) بيان لحال المؤمنين في الجنة، وأنهم على الأسرة الفاخرة المزينة ينظرون إلى ما أعد الله لهم من النعيم والملك الكبير في الجنة، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم في دار كرامته، وذلك نقضا لزعم الكفار في الدنيا أن المؤمنين ضالون، فاستبان الأمر أن الضلال حقا هم الكافرون، وأن المؤمنين هم المهتدون وأنهم من ربهم مقربون.

وهكذا أيضا فإن المؤمنين ينظرون إلى الكفار وهم يعذبون، فتشتفي صدورهم منهم جزاء ما كانوا يلاقونه منهم في الدنيا.

وقوله جل شأنه (هل تُؤبّ الكفار ما كانوا يفعلون) تُؤبّ جوزي من الثواب وهو الجزاء، وأكثر ما يستعمل في الخير، ويراد به في هذا الموضع وأمثاله التهكم والسخرية بالكافرين جزاء تهكمهم بالمؤمنين وسخريتهم بهم في الدنيا.

والاستقهام للتقرير، والمعنى هل جوزي الكفار على استهزاءهم وانتقاصهم

للمؤمنين في الدنيا وسخريتهم منهم أم لا؟

والجواب: بل قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمّله، عدلا من الله وحكمة والله

عليه حكيم.

يستفاد من هذه السورة

١/ تحريم الغش في الكيل والوزن، وبيان أنه كبيرة من الكبائر.

٢/ ليس من العدل أن يعامل الإنسان الآخرين بغير ما يعاملونه به في

حدود الشرع.

٣/ ضعف الإيمان باليوم الآخر يؤدي بصاحبه إلى الوقوع في المنكرات،

كما أن قوّته تردع صاحبها عن إتيان المعاصي.

٤/ عظم يوم القيامة، والإشارة إلى هوله وشدته.

٥/ الإشارة إلى قيام الناس على أرجلهم بين يدي الله تعالى في يوم طويل

شاق.

٦/ ذل الفجار وسفولهم، وسفول كتابهم ومصيرهم.

٧/ هوان الكافرين على ربهم، وبعدهم عنه، وضيق مأواهم.

٨/ كتابة أعمال الكافرين وثبوتها عليهم في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

٩/ بيان المصير المؤلم الذي ينتظر المكذبين بيوم الحساب والجزاء.

١٠/ كثرة الذنوب والإغراق في المعاصي قد يؤدي بالعبد إلى الكفر بالله ولقاءه، كما أنها تؤدي إلى التكبر عن قبول الحق ورد أوضح الآيات بعد تبينها.

١١/ طغيان المعاصي على القلب يسبب له عدم إِبصار الحق والوقوع في ظلمات الضلال.

١٢/ الإشارة إلى أن القلب أساس صلاح العبد، فإذا فسد القلب فسد العبد.

١٣/ عدم قبول آيات الله والإمعان في الكفر يسبب لصاحبه البعد عن ربه واحتجابه دونه، كما أن مفهوم ذلك أن العبد إذ أمعن في الطاعات وأكثر من العبادات فإنه يكون قريباً من ربه، يراه يوم القيامة بعينه.

١٤/ بيان أن النار مصير الكافرين بالله الغاشين لعباد الله.

- ١٥/ ذكر ما يتعرض له الكفار من التقرّيع والتوبيخ في نار الجحيم.
- ١٦/ علو مقام الأبرار عند ربهم وعلو مكانتهم ومكانة كتابهم علوا كبيرا.
- ١٧/ كتابة أعمال الأبرار ليجازون عليها أحسن الجزاء وأوفاه.
- ١٨/ شهادة المقربين لصحف الأبرار، وشهادتهم منازلهم.
- ١٩/ بيان ما ينتظر المؤمنين الأبرار من نعيم مقيم وثواب عظيم.
- ٢٠/ ذكر أسرة الأبرار وفرشهم.
- ٢١/ إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة.
- ٢٢/ تتعم المؤمنين في الجنة باطنا وظاهرا، وظهور ذلك عليهم.
- ٢٣/ طيب شراب المؤمنين في الجنة وحلاوته وكثرته، وخلوه من الشوائب والأقذار.
- ٢٤/ طيب ريح شراب المؤمنين في الجنة.
- ٢٥/ الإرشاد إلى التنافس لنيل ثواب الجنة، وذلك بالمسارعة في العمل الصالح والابتعاد عن العمل السيء.
- ٢٦/ علو المقربين عند رب العالمين.

٢٧/ تفاوت درجات أهل الجنة على قدر تفاوت تنافسهم في العمل الصالح في الدنيا ومسارعتهم إليه.

٢٨/ بيان ما كان عليه الكفار في الدنيا من استهزاء وسخرية واحتقار للمؤمنين.

٢٩/ تغامز الكفار من الأبرار، وانتقاصهم لهم في الدنيا.

٣٠/ أمن الكفار من مكر الله مع كونهم مرتكبين للذنوب العظام.

٣١/ مطاردة الكفار للمؤمنين في كل مكان، واتهامهم إياهم بالضلال والبعد عن الهدى لأنهم خالفوا طريق الكفر وآمنوا بالله، وهذا يدل على عمق ضلالهم ومحاربتهم لأولياء الله وصدّهم عن سبيله، بما يتمثل في الحرب الإعلامية الشعواء التي يثيرونها ضد من آمن بالله وصدق المرسلين.

٣٢/ إمهال الله للكافرين مع كفرهم بالله ومحاربتهم لأوليائه حتى يأتيهم العذاب وهم منغمسون في الضلال إلى أبعد الحدود.

٣٣/ ضحك المؤمنين من الكافرين في الآخرة جزاء ضحكهم منهم في الدنيا، وفي ذلك إشارة إلى هوان الكافرين في الآخرة وتعرضهم للعذاب المهين والخزي العظيم.

٣٤/ نظر المؤمنين في الآخرة للكفار وهم يعذبون لتشتقي صدورهم منهم وتطمئن قلوبهم بما آتاهم الله من فضله.

٣٥/ جزاء الكفار بأسوأ ما كانوا يعملون خاصة في إيذاءهم لأولياء الله في الدنيا.

٣٦/ التهكم الشديد بالكافرين، وإثبات أنهم سيجازون خلاف ما يؤملون في الآخرة، وذلك لأنهم زعموا أنهم أفضل من المؤمنين وأن لهم الحسنى في الآخرة، فكان في قوله تعالى (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) بيان لخيبة آمالهم وتعاسة مآلهم وشقاء أحوالهم، جزاء أفعالهم التي طالما فعلوها وافتراءاتهم التي طالما اقترفوها في حق المؤمنين الموحدين ولا يظلم ربك أحداً.

تفسير سورة الانشقاق

سورة الانشقاق مكية، نزلت بعد سورة الإنفطار، عدد آياتها {٢٥}، ترتبها في المصحف {٨٤}، ترتبها في النزول {٨٣}.

باب

جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ (إذا السماء انشقت) فسجد، فقلت له، فقال: سجدت خلف أبي القاسم عليه السلام، فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه".

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في (إذا السماء انشقت) و(اقرأ باسم ربك الذي خلق).

وموضع السجود بعد قوله عَبَّادٌ وَ (إذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون). وقد تقدم في تفسير سورة التكوير حديث ابن عمر عنها وعن سورة التكوير والانفطار.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥).]

قوله ﷻ (إذا السماء انشقت) يخبر فيه سبحانه عما يقع من تغير الأحوال الكونية يوم القيامة، ومنها انشقاق السماء أي انصداعها وانفطارها واختلال نظامها.

وقوله تعالى (وأذنت لربها وحقت) أذنت: أي استمعت وأنصتت، ومنه قوله ﷺ "ما أذن الله لشيء مثل ما أذن لنبي حسن الصوت يجهر بالقرآن".

والمعنى: أن السماء استجابت لربها حين أمرها أن تتشق فانشقت، كما أنه أمرها في بداية خلقها أن تأتي طوعا أو كرها فأنت طائعة فكذلك هنا

انشقت طاعة لربها واستمعا لأمره، وحقت: أي وحق لها أن تطيع ربها
وخالقها القهار العظيم.

وقوله جل شأنه **(وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ)** هذا أيضا من التغيرات الكونية يوم
القيامة أن الأرض تمد وتفرش وتبسط، وتسوى جبالها وسهولها، فتصبح
قاعا مستويا ليس فيه ارتفاع ولا انخفاض ولا اعوجاج، بل تمد كمد الأديم
حتى أنها تسع جميع الخلائق، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وهذا
كقوله تعالى **(فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا)**، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، يومئذ
يتبعون الداعي لا عوج له، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا
همسا).

وقوله تعالى **(وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)** أي طرحت ما فيها من الموتى
والكنوز وأخرجتهم على ظهرها، وهذا كقوله تعالى **(وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ
أَثْقَالَهَا)** وقوله تعالى **(وَتَخَلَّتْ)** أي صارت خالية ليس فيها من الموتى
والكنوز شيء.

وقوله سبحانه (وأذنت لربها وحقت) أي استمعت وانقادت لربها في إخراج كنوزها وما فيها من الموتى، وكانت حقيقة بطاعتها وحرية باستماعها، وهل لها أن تخالف من إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون.

وقوله ﷻ (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقية) الكدح: هو جهد النفس على العمل بمشقة، والمعنى: إنك أيها الإنسان عامل في الدنيا وجاهد في العمل ومجاهد لنفسك فيه إما على الخير والطاعة، وإما على الشر والمعصية، وأنت راجع إلى ربك رجوعاً أكيداً لا شك فيه ولا ريب، فإنك ستلاقية وبعملك . أياً كان . ستوافيه، فيجازيك به، والضمير في قوله سبحانه (فملاقية) يحتمل أن يكون عائداً على العمل أي فملاق عملك الذي عملته، ويحتمل أن يكون عائداً على الرب . سبحانه . أي فملاق ربك فيجازيك على عملك، والمعنيان متلازمان.

ولما كان العمل إما خيراً وإما شراً انقسم الناس حين ملاقاته إلى قسمين:.

أ . قسم أهل خير يأخذون كتبهم بأيمانهم: وهؤلاء الذين سعدوا.

ب . وقسم أهل شر يأخذون كتبهم بشمائلهم من وراء ظهورهم: وهؤلاء الذين شقوا.

قال تعالى مبينا للقسمين (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا * وينقلب إلى أهله مسرورا) وهؤلاء هم أهل السعادة، يعطون كتبهم بأيمانهم، ويعرض عليهم ربهم أعمالهم ويقول لهم: سترتها عليكم في الدنيا وأنا أغفرها لكم اليوم.

وهذا هو الحساب اليسير أي السهل الذي لا تعسير فيه، ولا تحقيق على جميع دقائق الأعمال، وإنما يقرر الإنسان بأعماله ويعرضها ربه عليه ليعلم الإنسان أنه لم يكن خلق عبثا ولا ترك سدى، وإنما كان معه من يرصد عليه أعماله ويحفظ أفعاله، حتى إذا أقر بذلك ورآه رأي العين تجاوز الله عنه وصفح وغفر له سيء عمله وأدخله جنته كما جاء في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك . وفي بعض الروايات من نوقش الحساب عذب . قالت: فقلت: يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى (فأما من أوتي

كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا) فقال رسول الله ﷺ: إنما ذلك

العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب".

وروى الإمام أحمد في مسنده . بإسناد صحيح على شرط مسلم . عن عائشة

رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته "اللهم

حاسبني حسابا يسيرا". فلما انصرف قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟.

قال: "أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحساب . يا عائشة

. هلك".

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله إني

لأعلم أشد آية في كتاب الله؟. قال: "آية آية يا عائشة؟". قالت: قلت: قول الله

تعالى (من يعمل سوءا يجز به) قال: "أما علمت . يا عائشة . أن المسلم

تصيبه النكبة والشوكة فيكافأ بأسوأ عمله، ومن حوسب عُدْبَ". قالت: أليس

الله يقول (فسوف يحاسب حسابا يسيرا). قال: "ذاكم العرض، يا عائشة: من

نوقش الحساب عذب".

ثم يرجع إلى أهله مسرورا ، ولك أن تتصور مدى سعادته وسروره وقد نجا من نار الجحيم وفاز بجنات النعيم وعلم أنه لن يموت بعد الآن ولن يخرج منها ولا تتغير حاله ولا يمسه فيها نصب ولا لغوب، فلولا أنه قدر عليه أنه لا يموت لمات من شدة فرحه وسعادته .

وقول الله تعالى (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره) أي أعطي كتابه الذي فيه عمله بشماله من وراء ظهره، وذلك أن شماله تُلَوَّى خلف ظهره إشارة إلى أن هذا المخذول نبذ كتاب الله وراء ظهره ولم يعمل بما فيه فكان هذا عقابه وجزاءه ولا يظلم ربك أحدا.

وقوله جل شأنه (فسوف يدعو ثبورا) إخبار عن حال من يأخذ كتابه بالشمال من خلف ظهره بأنه يدعو على نفسه بالثبور وهو الهلاك، وهذا كقوله تعالى في سورة الحاقة (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * ياليتني كانت القاضية)

وقوله ﷻ (ويصلى سعيرا) هذا جزاءه أي يدخل سعيرا، وهي النار المستعرة أي الشديدة الحرارة، فتحيط به من كل جانب، ويقلب فيها ظهرا لبطن.

وقوله جل شأنه (إنه كان في أهله مسرورا) أي أن هذا المخدول كان في الدنيا فرحا بمتاعها وبما أوتيته من بهرجها ولا يفكر في العواقب ولا أن الله سيبيعه بعد موته فيحاسبه على عمله كما قال عنه في الآية السابقة (ولم أدر ما حسابيه) فأعقبه ذلك السرور اليسير حزنا طويلا لا ينفك عنه، وهذا ما بينه - سبحانه - بقوله (إنه ظن أن لن يحور) الحور: هو الرجوع، والمعنى: أنه كان يعتقد أنه لا يرجع بعد الموت إلى ربه فيجازيه على أعماله، ولهذا عمل أعمال من يعتقد أنه لا يحاسب عليها.

وقوله سبحانه (بلى، إن ربه كان به بصيرا) بلى: أي ليرجعن ويبعثن بعد موته.

(إن ربه كان به بصيرا) أي: خبيرا بما يراه ويطلع على أعماله وأفعاله، ويعلم ما يدور في خلدته وخاطره، وما يعتقد به بقلبه وجنانه، وسيجازيه بذلك كله.

وقوله تعالى [فَلَا أُفْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ

أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)].

قوله تعالى (فلا أقسم بالشفق) ال (لا) مثبتة للقسم، ويؤتى بها بمثل هذا التركيب للتأكيد، والقسم: هو الحلف، والشفق: هو الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس، سمي بالشفق: لرقته، ومنه شفقة الإنسان، يقال فلان شفيق أي رقيق.

وقوله **حَلَّالٍ (والليل وما وسق)** هذا قسم ثان بالليل وهو المعروف، وقسم ثالث وهو قوله **(وما وسق)** والوسق: هو الاجتماع، يقال: استوسق له الأمر: أي اجتمع له.

والمعنى: وأقسم بالليل وما اجتمع فيه من الوحوش والهوام والمخلوقات، وذلك لأن طبيعتها أنها تجتمع بالليل.

وقوله **حَلَّالٍ (والقمر إذا اتسق)** هذا قسم رابع بالقمر إذا اتسق أي حين امتلاءه نورا، وذلك ليلة البدر، وإنما خصت بالذكر لأنها الأكثر نفعا من بين سائر ليالي القمر.

وجواب هذه الأقسام هو قوله تعالى (لتركن طبقا عن طبق) اللام والنون: للتوكيد، وركبته: أي حل به، طبقا عن طبق: أي حال بعد حال كما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لتركبن طبقا عن طبق أي حالا بعد حال، قال هذا نبيكم ﷺ.

ألا فكم تتغير بالإنسان الأحوال في خُلُقِه وخُلُقِه ودينه ودنياه وآخرته، وهو مع هذا لا يتذكر ولا يتعظ، ولذا نعى الله على الكفار كيف لا يعتبرون بذلك وهم له مشاهدون فقال سبحانه وتعالى (فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون) أي فماذا يمنعهم من الإيمان بالله وقد رأوا آياته الدالة على عظمته وربوبيته وألوهيته، ورأوا بديع صنعه ولطيف قدرته في أنفسهم وفي ما حولهم، ألم يكونوا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما ولحما ثم أخرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا فعلمهم ورزقهم ورياهم وكبرهم فبلغوا قوتهم ثم يعودون إلى ضعف وشيبة، ثم يموتون ثم يبعثون، ثم على أعمالهم يحاسبون!؟!.

كل هذه الأحوال التي تمر بهم - مع ما يتخللها من فرح وسرور وحزن ونكد وبلوغ للمراد ونكوص دونه - كل ذلك يرونه ويحسون به ومع ذلك هم ممتنعون عن الإيمان فماذا يمنعهم منه؟؟.

وماذا يمنعهم من الاعتراف بالقرآن، وقد رأوا آياته المعجزة وحججه الواضحة الدامغة رأي العين؟.

فلماذا لا يخضعون لسلطانه، ولا يسجدون لله الذي أنزله على رسوله، وتحداهم به فعجزوا عن المجيء بمثله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا).

وقوله جل شأنه (بل الذين كفروا يكذبون) أي سجيّتهم وديدنهم تكذيب الرسل ومعاندة الحق بالباطل، وهذا كقوله تعالى (بل الذين كفروا في تكذيب).

وقوله سبحانه (والله أعلم بما يوعون) أي أعلم بما في أنفسهم من أنفسهم، فهو أعلم بما يكتُمون في صدورهم وما تخفي ضمائرهم.

وقوله (يوعون) من الإيعاء، وهو حفظ الأمتعة في الوعاء، واستعمل هنا لِمَا كَتَمُوهُ في صدورهم من بغض ومحاربة للحق ومجادلة بالباطل (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون).

وهم بهذا لا يضرّون الله شيئاً، وإنما يضرّون أنفسهم لأنهم يعرضون أنفسهم لسخط الله ويستحقّون بذلك عقابه، ولهذا قال تعالى مبينا جزاء أفعالهم (فبشرهم بعذاب أليم) هذا خطاب للرسول ﷺ ولمن يصلح له الخطاب من المؤمنين الذين حملوا لواء الدعوة إلى الله: أن يبشّروا الكافرين المعاندين للحق والمستكبرين عن الخضوع لله والسجود عند تلاوة آياته سجود اعتراف بها وإيمان بمن أنزلها (فبشرهم بعذاب) مؤلم شديد الألم ينتظرهم في الآخرة جزاء كفرهم بالله وتكذيبهم بآياته ولقاءه، وسميت البشارة بشارة لأنها تؤثر في البشرية سرورا وغما.

وقد جاء عند الطبراني والبزار عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي كان يصل الرحم وكان وكان فأين هؤلاء؟ قال: "في النار". فكان الأعرابي وجد من ذلك، فقال: يارسول الله:

فأين أبوك؟ فقال رسول الله ﷺ "حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار". قال:
فأسلم الأعرابي بعدُ فقال: لقد كلفني رسول الله ﷺ تعباً، ما مررت بقبر
كافر إلا بشرته بالنار".

وقوله تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) إلا:
بمعنى لكن، لأن الإستثناء هنا منقطع، فيكون معنى إلا الذين آمنوا لكن
الذين آمنوا أي صدقوا بالله واعترفوا بقلوبهم وأقروا بألسنتهم، ولهذا قادهم
هذا الإقرار والتصديق والاعتراف إلى أن عملوا الصالحات، والعمل
الصالح: ما كان خالصاً لله متابعاً فيه رسول الله ﷺ، فمن اتصف بهاتين
الصفتين المتلازمتين . وهما الإيمان والعمل الصالح . فهذا له أجر: أي
ثواب، (غير ممنون) أي غير مقطوع ولا منقوص، بل في نعيم دائم
وسرور لا يحول ولا يزول، وثمار ليس لها وقت دون وقت (لهم فيها ما
يشاءون خالدين، كان على ربك حتماً مقضياً) نسأل الله أن يبلغنا ذلك بمنه
وكرمه.

ما يستفاد من هذه السورة

١/ تغير السماء وانشاقاقها من هول يوم القيامة، وطاعتها لربها واستماعها لأمره.

٢/ تغير الأرض ودك جبالها وتسويتها بسهولة من هول ذلك اليوم. وإخراجها كنوزها وموتاهها وخلوها منهم، واستماعها لربها وطاعتها لأمره.

٣/ شدة يوم القيامة وعظمتها وهوله، إذ قد انصدعت لهوله السماء، وانشقت الأرض، ودكت الجبال وسويت، فكيف بابن آدم الضعيف العاجز؟!.

٤/ طاعة السماء والأرض لربهما واستجابتهما لأمره، بعكس حال كثير من البشر في تمردهم عليه، وفي ذلك إشارة إلى قساوة قلب الكافر وخبث طبعه وطويته.

٥/ إثبات المعاد والجزاء للإنسان على ما عمل من خير أو شر، وملاقاته له بين يدي ربه فيجازيه عليه بما يستحق وما ربك بظلام للعبيد.

٦/ انقسام الناس يوم القيامة إلى فريقين: آخذ كتابه باليمين، وآخذ كتاب بالشمال.

٧/ فوز المؤمنين يوم القيامة وخسارة الكافرين، ونجاة المؤمنين من سوء الحساب.

٨/ فوز المؤمنين بجنات النعيم ورجوعهم إلى أهلهم فيها.

٩/ ذكر الفرق بين الحساب والعرض، وبيان رحمة الله ولطفه بعباده المؤمنين.

١٠/ تمنى المجرم للموت عند رؤيته لكتابه، ودعاه على نفسه بالهلاك وندمه إذ ذاك، ولكن لا ينفعه ندمه.

١١/ استحقاق الكافر دخول النار بعمله السيء.

١٢/ ترك محاسبة النفس للدنيا سبب للعذاب يوم القيامة.

١٣/ عدم الاعتراف بالمعاد يشجع الإنسان على الفساد، ويقلل عنده الإهتمام بالعمل الصالح.

١٤/ علم الله بجميع خلقه وأفعالهم، وإطلاعه عليهم وما يعملون.

١٥/ إثبات اسم البصير لله سبحانه، ومن ثمّ إثبات اتصافه بهذا الوصف الجليل كما يليق بجلاله.

١٦/ إقسام الله بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق دليل على عظمة هذه المخلوقات، وعظمة المخلوق دالة على عظمة الخالق.

١٧/ تقلب الأحوال بالإنسان في كل أموره وتغايرها جدير بأن يتفكر فيه، ليقوده ذلك إلى الإيمان بالله الذي لا يكون شيء من ذلك إلا بأمره وبإذنه

١٨/ العجب من كفر الكافر بعد وضوح البينات أمامه على وحدانية الله وربوبيته واستحقاقه للعبادة، ولكن من يضل الله فلا هادي له.

١٩/ إسراف الكافر في المعاصي والذنوب يعمي بصيرته عن الاستتارة بنور القرآن والاهتداء بهديه.

٢٠/ عادة الكفار وهجراهم في تكذيب الرسل ومعاندة الحق دائما وأبدا.

٢١/ إطلاع الله على ما أخفى الناس من خير وشر وحق وباطل، ومجازاتهم بذلك يوم القيامة.

٢٢/ تبشير الكافر - في الدنيا - بعذاب مؤلم في الآخرة جزاء كفره وتكذيبه.

٢٣/ فوز المؤمنين بالجنات ونجاتهم من النيران بسبب إيمانهم وعملهم

الصالح بعد فضل الله ورحمته.

٢٤/ بيان أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع ولا ينتهي ولا يتحدد بوقت دون

وقت.

تفسير سورة البروج

سورة البروج مكية، نزلت بعد سورة الشمس، عدد آياتها {٢٢}، ترتيبها في المصحف {٨٥}، ترتيبها في النزول {٢٧}.

باب

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ "كان يقرأ في الظهر والعصر بـ (السماء ذات البروج) و(السماء والطارق) وشبهها". رواه أبو داود والترمذي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعُلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فتنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١)].

قوله تعالى (والسماء ذات البروج) الواو: للقسم، والسماء: مقسم به، والله أن يقسم بما شاء من خلقه، وقسمه بشيء من مخلوقاته دليل على عظمة ذلك

المخلوق، وتنبه للخلق أن يتفكروا في ذلك المخلوق، لأن عظمة المخلوق دالة على أن خالقه أعظم وأعظم، وذات: بمعنى صاحبة، والبروج: جمع برج، وهو في الأصل القصر العالي، ومنه قول الله تعالى (أيما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) والمقصود به هنا: المجموعة العظيمة من النجوم، سميت بروجاً لعلوها وارتفاعها، وقيل أن البروج: هي منازل الشمس والقمر، وهي اثنا عشر برجاً للشمس والقمر، تتكون منها فصول العام، فثلاثة للربيع، وثلاثة للصيف، وثلاثة للخريف، وثلاثة للشتاء.

وقوله تعالى (واليوم الموعود) هذا قسم ثان باليوم الموعود وهو يوم القيامة الذي وعد الله خلقه أن يجمعهم فيه، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعمله، وينتصر فيه للمظلوم من الظالم، وينقسم فيه الخلق إلى شقي وسعيد، والله لا يخلف الميعاد.

وقوله تعالى (وشاهد ومشهود) هذا قسم ثالث ورابع، يقسم فيه تعالى بالشاهد: وهو يوم الجمعة، والمشهود: وهو يوم عرفة، كما جاء عند

الترمذي عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ "اليوم الموعود: يوم القيامة، واليوم المشهود: يوم عرفة، والشاهد: يوم الجمعة، وما طلعت الشمس على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب الله له، ولا يستعيز من شر إلا أعاده الله منه".

وجواب القسم قوله تعالى (قتل أصحاب الأخدود) بتقدير اللام أي لقد قتل أصحاب الأخدود . وهم الذين عملوه للمؤمنين . أي لعنوا أشد اللعن وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله بسبب ما اقترفوه في حق عباد الله المؤمنين، والأخدود: هو الشق المستطيل في الأرض كالخندق، وأصحاب الأخدود: هم قوم كفارون كانوا في الزمن الأول أرادوا من المؤمنين إذ ذاك أن يرجعوا عن إيمانهم فأبوا، فأحرقوهم بالنار في أخاديد حفروها، لهم كما روى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه عن صُهَيْبٍ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَأَبْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمُهُ السَّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرًّا

بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرْبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ:
إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي
السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَقَالَ:
الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ
أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَأَقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمُوتَ
النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ:
أَيُّ بُنْيَ . أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي . قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى
فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ
مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ:
مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي
اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَأَمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فَأَتَى
الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟
قَالَ: رَبِّي. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟. قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ
يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِئَءَ بِالْغُلَامِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيُّ بُنْيَ قَدْ بَلَغَ

مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِشَارِ فَوَضَعَ الْمِشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذْهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَارْجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟. قَالَ: كَفَانِيَهُمُ اللَّهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرُقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْدِفُوهُ، فَذْهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَاكْفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟. قَالَ: كَفَانِيَهُمُ اللَّهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمْرُكَ بِهِ.

قَالَ: وَمَا هُوَ؟. قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ،
ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ
رَبِّ الْعُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ
وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ
الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْعُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ،
فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ
الْعُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْعُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْعُلَامِ، فَأَتَى الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا
كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالْأَخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ
السَّكَاكِ فَخُدَّتْ وَأُضْرِمَ النَّيرانَ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ
قِيلَ لَهُ اقْتَحِمُوا. فَفَعَلُوا، حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ
فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْعُلَامُ: يَا أُمُّهُ، اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ.

وبنحو هذا رواه الترمذي عن صهيب رضي الله عنه، وفي آخره قال: فخد أخدودا ثم
ألقي فيها الحطب والنار ثم جمع الناس فقال: من رجع عن دينه تركناه،
ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار، فجعل يلقيهم في تلك الأخدود قال يقول

الله تعالى (قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود) حتى بلغ (العزيز الحميد) قال: فأما الغلام فإنه دفن، فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب وأصبغه على صدغه كما وضعها حين قتل.

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب.

وقوله تعالى (النار ذات الوقود) بدل اشتمال من أصحاب الأخدود، والتقدير: قتل أصحاب النار ذات الوقود، والمعنى: ذات الحطب الكثير المتأجج بالنيران.

وقوله تعالى (إذ هم عليها قعود) أي لعنوا لأنهم عذبوا المؤمنين وأرادوهم على ترك الإيمان وأحرقوهم من أجل ذلك بالنيران، وحضروا ساعة إحراقهم قاعدين على أسرتهم محققين بالنيران ينظرون إليها وهي تلتهم المؤمنين وهم لها مشاهدون، كما قال تعالى (وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) أي وهم حضور لتلك الفعلة الشنيعة التي فعلوها، والتي تدل على تجبرهم وقساوة قلوبهم التي لا ترحم ولا تلين لما انطوت عليه من الكفر الصراح والمعاندة لرب العالمين، فهم قد جمعوا بين الكفر بآيات الله،

ومعاندتها، ومحاربة أهلها، وتعذيبهم بهذا العذاب الذي تتفطر منه القلوب، وحضورهم إياهم عند إلقاءهم فيها دون خوف من الله نعوذ بالله من الخذلان.

وقوله تعالى (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) أي وما كره هؤلاء الكفار وعابوا على هؤلاء المؤمنين إلا أنهم آمنوا بالله الذي له العزة والعظمة، وهو الذي ينبغي أن يحمد على نعماءه ويشكر على آلاءه، وهو الذي يعطي على القليل كثيرا، (وإن تك مثقال حبة من خردل يضاعفها ويؤت من لذه أجرة عظيمًا).

والحاصل أن هؤلاء الكفار نقموا من المؤمنين شيئا إنكاره هو المنكر، ومن قام به يستحق أن يعان ويساعد لا أن يعذب ويحرق، كيف لا وهم قد قاموا بعبادة من خلقهم، وأقروا له بالملك والألوهية، ولجأوا إليه لأنه على كل شيء قدير، فقام هؤلاء المخدولون يمنعونهم ويردعونهم ويعذبونهم بالنيران، فكان جزاءهم أن لهم في الآخرة عذاب الحريق كما أحرقوا المؤمنين، غير أن المؤمنين ماتوا واستراحوا من ألم الحريق في لحظات وجيزة، بينما هؤلاء

لا يخرجون من حريقهم أبداً، ولا يخفف عنهم ولا يستريحون ولا يموتون،
والجزاء من جنس العمل ولا يظلم ربك أحداً.

وقوله تعالى (الذي له ملك السماوات والأرض، والله على كل شيء شهيد)
أي وكيف ينقمون عليهم أن آمنوا بمن يملك السماوات والأرض ومن فيها
ملكا مطلقا، ومن جملة هؤلاء الممالك له الكافرون المحرقون للمؤمنين،
وهو شهيد على كل شيء، ومحيط وعالم بما كان وما سيكون في السماوات
والأرض، ومن جملة ذلك فعل الكافرين بالمؤمنين، ولو شاء الله لانتصر
للمؤمنين من الكافرين ولكن ليبلوا بعض الناس ببعض، وهو الذي يمهل
للظالم حتى إذ أخذه لم يفله.

وقوله جل شأنه (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات . ثم لم يتوبوا . فلهم
عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) إنّ: للتوكيد، و(فتنوا): من الفتنة وهي
الامتحان، أي امتحنوهم وابتلوهم بالحريق، (ثم لم يتوبوا): أي لم يرجعوا
ويقلعوا عن كفرهم، (فلهم عذاب الحريق): الفاء جزائية والمعنى: أن هؤلاء
الكفار الذين عذبوا المؤمنين وفتنوا دينهم . إن ماتوا قبل أن يتوبوا

ويرجعوا عن كفرهم . فإن لهم جهنم جزاء أعمالهم القبيحة، ولهم عذاب الحريق جزاء إحراقهم المؤمنين.

والمفهوم من الآية أنهم إن تابوا نجوا من هذا الوعيد، وهذا من حلم الله وجوده ورحمته . سبحانه ويحمده . فانظر كيف يدعوهم ويرغبهم في التوبة ويحضهم عليها، قال الحسن البصري رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

ثم انظر . بصرك الله . كيف اشتملت هذه الآية على الوعد والوعيد في آن واحد وسياق واحد ولكن لا عجب فهو كلام الله العليم الحكيم.

وبعد أن بيّن سبحانه وتعالى ما فعل الكافرون بالمؤمنين في الدنيا والآخرة بيّن سبحانه ما ينتظر أولئك المؤمنين من نعيم في الجنة التي لا تفتنى ولا تبيد، ولا يلحق أهلها غم ولا هم ولا يكدر صفوهم فيها شيء، قال سبحانه (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ذلك الفوز الكبير) إن: للتوكيد، وآمنوا: أي صدقوا وأقروا واعترفوا بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر

خيرهُ وشره، وعملوا الصالحات: أي عملوا الأعمال الصالحة، والعمل الصالح: ما كان خالصا لله وعلى ما جاء به رسول الله ﷺ، لهم: أي عند الله تعالى، جنات: جمع جنة وهي البستان الكثيف الملتف الذي سترت أشجاره ما بداخلها حتى أنك لا ترى إلا الأشجار والخضرة، تجري من تحت هذه الأشجار . التي تخللتها قصور المؤمنين . أنهار الماء واللبن والتمر والعسل المصفى، وهذه الأنهار تجري على وجه الأرض في غير أخاديد، لا تتغير ولا تنقص ولا تتلوث ولا يلحقها أذى، وذلك: إشارة إلى هذا النعيم، وإنما أشير إليه . والله أعلم . بصيغة البعيد باعتبار نظر الناس إليه كما قال تعالى (إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) فلا سيما مع الفتن والمصائب التي تنزل على الإنسان فتطول عليه بسببها الدقائق والثواني فضلا عن الشهور والأيام، كما قال بعضهم:.

وطوالهن مع السرور قصار

وقصارهن مع الهموم طويلة

والفوز: هو النجاة مما يهرب منه الإنسان والحصول على ما يطلب ويتمنى، والكبير: صفة لهذا الفوز بأنه كبير لا أكبر منه، وهذا حق، وهل مثل الفوز بالجنة من فوز؟؟!.

فإذا آمن الإنسان بهذا حق الإيمان هانت عنده الدنيا بما فيها، وجاد بماله ونفسه التي بين جنبيه كما فعل أولئك الصادقون، ولكن ما هي إلا أن تفارق الروح الجسد حتى تدخل نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع في أعلى جنان الخلد بجوار الصمد الفرد مع (النبين والصادقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا).

وقوله تعالى [إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنٌ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)].

قوله تعالى (إن بطش ربك لشديد) إن: للتوكيد، والبطش: هو الأخذ بقوة وشدة، والمعنى: إن بطش ربك . يا أيها النبي ورب المؤمنين . عندما يبطش

بمن أعرض عن دينه وحارب أولياءه لشديد أليم، وإن طال إمهاله فإنه يمهّل ولا يمهّل كما جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد).

فالله عليم بأعمال الظالمين وهو لهم بالمرصاد، وعليم بأحوال المؤمنين وهو بهم رحمن رحيم، ومرد كل الفريقين إليه، والله لا يستوي من قدم على الله وهو عنه راض، ومن قدم عليه وهو عليه غضبان.

وقوله سبحانه (إنه هو يبدئ ويعيد) أي أن الله هو الذي يبدأ الأشياء وإليه تعود، وهو الذي أنشأها وهو الذي يعيدها.

وقوله تعالى (وهو الغفور الودود) أي ذو المغفرة وهي ستر الذنب وعدم المؤاخذه به، مأخوذة من المغفر الذي يستر الرأس ويقيه الضربات، فإذا أذنب العبد ثم تاب واستغفر ستر الله ذنبه وعفا عنه فلم يعاقبه عليه، والودود: مأخوذ من الود وهو خالص المحبة فهو ﷻ محبوب من خلقه، وحاب لمن آمن به واتبع شرعه، وعلى ذلك تظاهرت الأدلة من كتاب الله

وسنة رسوله ﷺ كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه..... الآية).

فإذا تاب العبد من ذنبه وآمن بربه غفر الله له وفرح بتوبته، وأحبه وقذف في قلب عباده حبه فله الحمد والشكر حمدا لا ينفد وشكرا لا ينقطع، ولن نعدم خيرا من رب يحبنا ويسترنا ويدعونا إلى حبه.

وقوله تعالى (ذو العرش المجيد) أي صاحب العرش، والعرش: سرير الملك، والمقصود هنا العرش الذي استوى عليه ربنا استواء يليق بجلاله، والعرش: أكبر المخلوقات وأعظمها وأثقلها وأوسعها وهو سقف المخلوقات كلها، وإنما خصه الله بالذكر هنا من بين سائر المخلوقات لأنه أعظم المخلوقات وأخص المخلوقات بالقرب منه سبحانه وتعالى، وهو أثقل المخلوقات كما دل على ذلك قوله تعالى " الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم " .

وما جاء عن أبي ذر رضي الله عنه قال : "دخلت المسجد الحرام فرأيت

رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فجلست إليه ، فقلت : يا رسول الله

أيما آية نزلت عليك أفضل ؟ قال : آية الكرسي : ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة و فضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة " "

وما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه عن جويرية رضي الله عنها : " أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة ، فقال : ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت نعم، قال النبي صلى الله عليه وسلم " لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته".

والمجيد: من المجد وهو سعة الأوصاف وعظمتها، وفيها قراءتان بالرفع والجر، فعلى قراءة الرفع يكون المجيد نعتا لله سبحانه وتعالى، وعلى قراءة الجر يكون المجيد نعتا للعرش وكلاهما صحيح.

وقوله تعالى **(فعال لما يريد)** أي له القدرة التامة والسلطان الكامل، فيفعل ما يشاء لا يمانعه أحد ولا يعاونه وإنما إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وليس هذا لأحد إلا الله تعالى وهو العلي العظيم.

وقوله ﷺ **(هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود)** أي هل بلغك ما حل بهم من ذي البطش الشديد عندما كفروا به وصدوا المؤمنين عن الإيمان به، كيف فعل بهم الذي قضاه نافذ لا محالة مع أنهم عتوا وتمردوا وكانوا على قدر كبير من القوة والشدة فلم ينفعهم ذلك من الله شيئاً، بل أتاهاهم أمر الله من حيث لم يحتسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون.

وفرعون: هو ملك مصر والمقصود به هنا ملكها في زمن موسى عليه السلام، **وثمود:** هم قوم صالح، وسيأتي في تفسير سورة الفجر بعض أخبار قوتهم واغترارهم بالله كيف أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وقوله جل شأنه **(بل الذين كفروا في تكذيب)** أي لا يزال الكفار . حاضرا ولاحقا كما كانوا سابقا . في تكذيب للرسل وعناد مستمر ومحاربة للمؤمنين وصد عن سبيل الله، ولكن ما أضعفهم وأهونهم على الله، لأنه سبحانه (من

ورائهم محيط) أي محيط بهم من كل جانب ليس لهم منه مهرب ولا عن علمه معزب ولا من عقابه مفر، فهو عليهم قادر وفوقهم قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه، وكيف يكون ذلك والأرض أرضه والسماء ملكه وهم عبيده بنو عبيده بنو إمامه نواصيهم بيده ومصيرهم إليه، ففي هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لهؤلاء الكافرين لو كانوا يعقلون.

وقوله جل شأنه (بل هو قرآن مجيد) في لوح محفوظ أي ما جاء به محمد ﷺ وكذب به الكفار ولم يحيطوا بعلمه، إنه قرآن مجيد: ذو صفات عظيمة وإليه المنتهى في الشرف والرفعة، وقد كتب في اللوح المحفوظ عند الله كما في أم الكتاب، وهو محفوظ من أن يلحقه تغيير أو تبديل أو تحريف أو تزيف، حتى يرفعه الله من صدور العباد كما أنزله على رسوله ﷺ مصونا محفوظا (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد).

يستفاد من هذه السورة

١/ الله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وقسمه بالشيء يدل على عظمة ذلك المقسم به، وعظمة المخلوق دالة على عظمة الخالق.

٢/ عظمة السماء وكبر خلقها وما فيها من بروج ومنازل للشمس والقمر.

٣/ الوعد والوعيد بيوم القيامة، وأنه حق وواقع لا محالة.

٤/ فضل يوم الجمعة ويوم عرفة.

٥/ غضب الله لأوليائه، وسخطه على أعدائه عندما يؤذونهم، وانتقامه لهم منهم.

٦/ جفاء الكافر وقساوته لبعده عن ربه، وكونه جبارا عنيدا لا يرحم، فلا ريب أن يستحق جزاء من جس عمله.

٧/ حمق الكافر وعناده في رؤيته لما يعمل من المنكر معروفا وما يعمل من المعروف منكرا.

٨/ كفر الكافر يصده عن الخوف بالله ومراقبته وإطلاقه، فيعمل ما يشين ويفعل ما يعرضه لعقاب الله فينزل به فلا يستطيع له دفعا ولا يجد منه مهربا ومناصا.

٩/ إثبات صفة الحمد والعز لله تعالى.

١٠/ وعيد من حارب أولياء الله بنار جهنم وعذاب محرق.

١١/ حلم الله ورحمته وقبوله توبة التائب ومغفرته لذنوبه مهما عظمت وكبرت وتجاوزته عما قدم في زمن الغواية.

١٢/ قيمة المؤمن عند ربه، وأنه يغضب له على من يؤذيه وسينتقم له منه.

١٣/ فوز المؤمنين بجنات النعيم يوم القيامة بما فيها من قصور وأنهار وحبور وسرور.

١٤/ أن الفوز الكبير هو الفوز بالجنة ودخولها، وما سواها فليس بشيء.

١٥/ شدة بطش الله وانتقامه من المجرمين، المحاربين لأوليائه الصادين عن سبيله.

١٦/ قدرة الله التامة الكاملة على إبداء الخلق وإعادته دون تعب ولا مشقة.

١٧/ بيان أن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه.

١٨/ لا علم لأحد من المخلوقات إلا بما علمه الله سبحانه وتعالى.

١٩/ الإشارة إلى ضرورة التفكير فيمن كان قبلنا من الأمم وما فعل بهم، من انتصاره للمؤمن وتدميره للكافر، وفي هذا تسلية للمؤمنين وشد لهم للقيام بحمل الدعوة للإيمان وعدم التخاذل والكسل والخوف من الكفار مهما كانت قوتهم.

٢٠/ مغفرة الله وستره لذنوب عباده المؤمنين وعدم مؤاخذتهم بها كما يؤاخذ الكافرين لأنهم يستغفرونه ويخافون منه، وإن غلبهم طبعهم البشري على الخطأ والزلل فإنهم سرعان ما يتوبون ويذكرون.

٢١/ إثبات صفة الود لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته.

٢٢/ إثبات العرش وبيان عظمته ومجده.

٢٣/ ذكر فرعون وثمود، وفيه إشارة إلى ما كانوا يتمتعون به من قوة ومملك، ولكن ذلك لم يكن لينفعهم لما كفروا بالله وصدوا عن سبيله.

٢٤/ شقاوة الكافر الأبدية وضلاله في تكذيبه بآيات الله وعدم إيمانه بها.

٢٥/ إحاطة الله بالكافرين وقدرته عليهم وفيه تهديد لهم لو كانوا يفقهون.

٢٦/ ضعف العبد مهما بلغ وأوتي من قوة وجاه.

٢٧/ شرف القرآن ومجده، وبيان أنه غالب لا يغلب.

٢٨/ حفظ الله لكتابه، وصونه إياه من التحريف والتبديل.

تفسير سورة الطارق

سورة الطارق مكية، نزلت بعد سورة البلد، عدد آياتها {١٧}، ترتيبها في المصحف {٨٦}، ترتيبها في النزول {٣٦}.

باب

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: صلى معاذ المغرب فقراً البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ "أفتان أنت يامعاذ؟ أما كان يكفيك بـ(السماء والطارق) و(والشمس وضحاها) ونحوها". رواه النسائي في الكبرى بإسناد رجال ثقات.

وقد تقدم في تفسير سورة البروج حديث جابر بن سمرة ؓ في قراءة الرسول ﷺ بها في صلاتي الظهر والعصر.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا السَّمَاءُ وَالطَّارِقُ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ

دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨)
يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)].

قوله تعالى (والسّماء والطّارق) الواو: للقسم، والسّماء: هي كل ما علا
عن الرّأس، والواو الثّانية: للقسم أيضا، والطّارق: في الأصل هو الآتي
ليلا، لأن الطروق هو الإتيان بالليل، إذ الغالب أن من يأتي بالليل يجد
الأبواب مغلقة فيطرقها، ومنه "تهيه ﷺ أن يطرق أحدنا أهله ليلا إذا قدم
من سفر". أي لا يدخل عليهم بالليل.

والمقصود بالطّارق هنا: النجم كما بينه سبحانه بقوله (وما أدراك ما
الطّارق) أي: وما يدريك يا أيها النبي ما الطّارق المقسم به هنا؟. ثم بينه
ﷺ فقال (النجم الثاقب) أي هو النجم الثاقب وإنما سمي النجم طارقا لأنه
يظهر بالليل ويختفي بالنهار، والنجم: إسم جنس عام في جميع النجوم،
والثاقب: أي المضيء الذي يثقب ضوءه الظلام حتى يصل إلى الأرض،
وقيل: هو الثاقب للشياطين، وكل ذلك محتمل كما قال تعالى (ولقد زينا
السّماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) وقال تعالى (إلا من
خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب).

وقسم الله بالسماء وبالطارق وهما من مخلوقاته ليفخم من شأنهما، إذ عظمة المخلوق دالة على عظمة الخالق، وليس للخلق أن يقسموا إلا بالله لا بشيء من مخلوقاته.

وقوله تعالى (إن كل نفس لما عليها حافظ) هذا جواب القسم، وإن: نافية بمعنى ما، ولمّا: بمعنى إلا، والتقدير: ما كل نفس إلا عليها حافظ أي حافظ من الله وهم الملائكة الموكلون بحفظ الإنسان وبحفظ عمله كما قال تعالى (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليهم حفظة) وقوله تعالى (وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون) وعُدّي حافظ بـ (على) لتضمنه معنى القيام والإحصاء، وهذا الحفظ ليجازى الإنسان بعمله يوم القيامة.

ولما أخبر الله تعالى عبده الإنسان بأن عليه من يحفظ عمله، أرشده إلى التفكير بداية نشأته ليأخذ به تفكره ذلك إلى العمل الحسن الذي يسره رؤيته يوم رجوعه إلى ربه فقال سبحانه (فلينظر الإنسان مم خلق) اللام: لام الأمر، فهو أمر للإنسان بالتفكر في ضعفه وضعف منشأه وفقره إلى خالقه

ومولاه الذي ابتداء خلقه، وإرشاد للعاقل إلى الاعتراف بالمعاد، لأن الذي أنشأه من عدم قادر على أن يعيده بشرا سويا كما قال تعالى (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)، والنظر المأمور به: نظر اعتبار وتأمل.

وقوله **وَعَلَىٰ** (خلق من ماء دافق) أي أن الإنسان خلق من ماء وهو المنى منى الرجل ومنى المرأة، والدافق: هو المصبوب بسرعة واندفاع.

وقوله (يخرج من بين الصلب والترائب) أي أن هذا الماء الذي خلق منه الإنسان يخرج من قعر عميق وهو ما بين صلب الرجل والمرأة وترائبهما، والصلب: هو الظهر، والترائب: الثديان

وقوله تعالى (إنه على رجهه لقادر) أي أن الله الذي خلق الإنسان من هذا الماء الخارج من هذا الموضع الصعب لقادر على إرجاع الإنسان خلقا جديدا بعد موته وكونه ترابا وعظاما، وذلك لمجازاته ومحاسبته على عمله الذي كان يعمل في دنياه، وكان يحفظه عليه ملكاه حتى يوافي بين يدي خالقه ومولاه، فيقال له (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا).

وقوله تعالى (يوم تبلى السرائر) هذا بيان لليوم الذي يرجع فيه الإنسان إلى ربه، أي في يوم تتكشف فيه الأسرار وتظهر المخفيات ويبدو ما في القلوب من خير أو شر، فتبيض وجوه وتسود وجوه، ويظهر بر الأبرار وفجور الفجار ونفاق المنافقين الذين طالما في الدنيا أخفوه وكنتموه، واليوم صار السر علانية وصارت الأمور إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ونودي على الخلائق (فريق في الجنة وفريق في السعير) ففي ذلك اليوم لا ينفع أحد ماله ولا بنوه، ولا ملكه ولا جنوده، وليس لأحد من دون الله من ولي ولا نصير، لذا قال تعالى (فما له من قوة ولا ناصر) أي فليس للإنسان حينئذ قوة في نفسه يدفع بها عن نفسه، ولا ناصر خارجي ينتصر به، فاللهم سلم سلم.

وقوله تعالى [وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُويًا (١٧)].

قوله تعالى (والسمااء ذات الرجع) الواو: للقسم، والسمااء مقسم به، وذات: بمعنى صاحبة، والإضافة هنا إضافة اختصاص، والرجع: هو المطر،

سمي رجعا لكونه يجيء كل عام، أو لأن أول أصله أنه تبخر من بحار الأرض ثم صعد إلى السماء فيكون سحابا ثم تسوقه الرياح إلى حيث أمر الله أن ينزل فينزل هناك بأمره، فحقيقته أنه خرج من الأرض ثم رجع إليها وقوله تعالى (والأرض ذات الصدع) الصدع: هو انشقاق الأرض لخروج النبات منها، وهذا كقوله تعالى (فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبا * ثم شققنا الأرض شقا * فأنبتنا فيها حبا * وعنبا وقضبا * وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا * متاعا لكم ولأنعامكم). وقوله جل شأنه (إنه لقول فصل) هذا جواب القسم، والضمير يعود على القرآن الكريم الذي من جملته هذه الآيات الدالة على المعاد وإثباته، ومعنى فصل: أي حق وصدق، يفصل بين الهدى والضلال والحق والباطل ثم قال تعالى مبينا أحقية القرآن الكريم وصدقه (وما هو بالهزل) أي ليس بلعب ولا باطل ولا يشوبه شيء من ذلك بل هو حق كله صدق جميعه، هدى يهدي به الله المؤمنين ويخرجهم به من الظلمات إلى النور.

لطيفة:- في إقسامه ﷻ بالسماء وما ينزل منها من مطر، والأرض وما يخرج منها من نبات، الأمران اللذان هما أساس حياة البشر وأنعامهم، إشارة إلى أن القرآن فيه حياة للقلوب كما تحيا الأرض بالمطر فهو غذاء الروح كما قيل:-

والذكر فيه حياة للقلوب كما
تحيا البلاد إذا ما مسها المطر
ثم أخبر سبحانه عن الكفار الضلال الذين لم يستتيروا بنور القرآن ولم يهتدوا بهداه، بل كذبوا به وهو الحق وحاربوه وقالوا (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) أخبر أنهم في كيد مستمر وحرب متواصلة على القرآن وأهله، وهذا في العصور السالفة وعصورنا هذه وفي ما سيأتي من الزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كما يفيد الفعل المضارع يكيّدون الدال على الإستمرار، فقال سبحانه وبحمده (إنهم يكيّدون كيّدا) الضمير عائد على الكفار المكذّبين بالقرآن، ومعنى يكيّدون: أي يمكرون ويخططون للقضاء على القرآن ومن جاء به كيّدا عظيما ومكرا كبيرا بكل ما في وسعهم وما أمكنهم إلى ذلك سبيلا، فهم يبذلون الأموال والأرواح وما

في جهدهم وما هو فوق جهدهم للقضاء عل القرآن وأهله، ولكن أنى لهم ذلك والله هو الحافظ وهو نعم المولى ونعم النصير، والأشرم المغلوب ليس الغالب، ولذا قال تعالى (وأكد كيدا) أي وأقابل مكرهم بأعظم منه، ومن أضعف من مملوك أمام مالكة، ومن مخلوق أمام خالقه، ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

فلا ريب ولا شك أن أمرهم إلى وبال، وعاقبتهم إلى سفال، كما قال الكبير المتعال (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون).

فهذه بشارة عظيمة لمن قام بالدعوة وحمل راية القرآن أن الله معه ناصره ومؤيده، وكفى بربك هاديا ونصيرا، (ويمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) وإن طال الليل بظلامه فلا بد أن يأتي الصبح بضوءه، فلم العجلة وكل ما هو آت قريب، فكم مكث رسول الله ﷺ في مكة مضطهدا، ثم نصره الله وأعزه، ودخل مكة يوم الفتح عزيزا منتصرا، ولذا قال تعالى مشيرا إلى أن النصر وإن تأخر وقوعه فإنه كائن لا محالة للقرآن وأهله،

قال سبحانه (فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا) أي أنظرهم ولا تستعجل لهم فإنني مطلع على ما يعملون، والله يمهّل ولا يهمل كما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "إن الله ليملّي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته" ثم قرأ رسول الله ﷺ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد).

ومعنى قوله تعالى (أمهلهم رويدا) أي إمهلا قليلا وسترى ماذا أحل بهم من العذاب قريبا، كما قال الله تعالى (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها * ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم).

يستفاد من هذه السورة

١/ لله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وقسمه بمخلوقه دال على عظمة هذا المخلوق وعظمة المخلوق دالة على عظمة خالقه سبحانه وتعالى.

٢/ قصور علم البشر وسعة علم الله تعالى، وتعليم الله للخلق بتعليم رسوله ﷺ كما يفيد قوله تعالى (وما أدراك) ثم أخبره بعلمه.

٣/ بيان أن كل نفس قد وكل بها من يحفظ عليها أعمالها ويحصى أفعالها من الملائكة الكرام، مما يدعو الإنسان إلى إحسان العمل والبعد عن كل ما يشين حياء من الملائكة وخوفا من الله وطمعا في ثوابه.

٤/ كثرة الملائكة وبيان أنهم أكثر من البشر كما يفيد قوله تعالى (إن كل نفس لما عليها حافظ) وهذا غير حملة العرش وسكان السماء وخزنة الجنة والنار ومن لا نعلمهم ولا نعلم وظائفهم، (وما يعلم جنود ربك إلا هو).

٥/ أمر الله لعباده أن يتفكروا في مبدأ خلقهم الدال على ضعفهم واحتياجهم لربهم سبحانه، ليكون ذلك حاثا لهم وحاظا على مراقبتهم له سبحانه وعلمهم بطاعته وعبادته.

٦/ ضعف الإنسان كما يفيدّه ضعف أصله وحقيقة منشأه من ماء مهين.

٧/ قدرة الله على كل شيء، ومن ذلك إعادة خلق الإنسان بعد كونه تراباً وعظاماً.

٨/ إثبات المعاد وإثبات الجزاء على الأعمال.

٩/ بيان أن ما كان يخفى على الإنسان من العمل السيء في الدنيا يظهر يوم القيامة، وهذا يدعوه إلى أن يصلح سره ويكون خائفاً من الله في خلواته كما يخاف منه في جلواته.

١٠/ بيان أن يوم القيامة لا ينفع فيه قوة ولا مال، ولا يغنى أحد عن أحد شيئاً من الله.

١١/ ضعف الخلق كلهم بمجموعهم كما أنهم ضعفاء بأفرادهم، ولذا خضعوا أمام ربهم ولم ينصر بعضهم بعضاً، وهذا كقوله تعالى (هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيّدون) والجواب: لا، لا كيد ولا مناصرة.

١٢/ تسخير الله للسماء والأرض في خدمة الإنسان، مما يدفع العاقل على

شكر ربه على هذه النعمة واعترافه بالفضل له والقيام بأمره سبحانه.

١٣/ صدق القرآن وأحقيته، وبيان أنه من عند الله لا يأتيه الباطل من بين

يديه ولا من خلفه، بل هو محكم، آياته بينات واضحات، وأنواره زاهرات

ساطعات، (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من

الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم).

١٤/ محاربة الكفار للدين والقرآن، وتسخيرهم لجهدهم وطاقاتهم لإطفاء نور

الله، (والله متم نوره ولو كره الكافرون).

١٥/ نصر الله لدينه وكيده لأوليائه على أعداءهم.

١٦/ بيان أن الحق سينتصر مهما علا الباطل، وأن الله منتقم من الكافرين

وإن طال الزمن.

١٧/ إرشاد الله عباده إلى عدم التعجل وإلى الصبر، وموعدهم النصر إن

شاء الله لا محالة كما قال ﷺ "واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع

الكرب".

١٨/ وعيد الله للكفار بإهلاكهم وتدميرهم، كما فعل بأشياءهم من قبل.

تفسير سورة الأعلى

وتسمى سورة سبح

سورة الأعلى مكية، وعدد آياتها {١٩} آية، نزلت بعد سورة التكويد، ترتيبها في المصحف {٨٧}، وترتيبها في النزول {٨}.

باب

روى البخاري في صحيحه عن البراء رضي الله عنه قال: أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلنا يقرأنا القرآن، ثم جاء بلال وعمار وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت (سبح اسم ربك الأعلى) في سورة مثلها.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: لما نزلت (فسبح باسم ربك العظيم) قال لنا رسول الله ﷺ "اجعلوها في ركوعكم". ولما نزلت (سبح اسم ربك الأعلى) قال: "اجعلوها في سجودكم".

وروى الإمام أحمد أيضا عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ "كان إذا قرأ (سبح اسم ربك الأعلى) قال: "سبحان ربي الأعلى".

وسياتي في تفسير سورة الغاشية أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بها معها في العيدين والجمعة.

وسياتي في تفسير سورة الليل أن رسول الله ﷺ أمر معاذاً أن يقرأ بها في صلاة العشاء.

وسياتي في تفسير سورة تفسير سورة الكافرون أن رسول الله ﷺ كان يوتر بسبح والكافرون والإخلاص.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكَرْ أَنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩)].

قوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى) سبح: أي نزه الله عن كل عيب ونقص وعن كل ما لا يليق به، والمخاطب رسول الله ﷺ ابتداءً وجميع أفراد أمته تبعاً له.

(إسم ربك) أي سبح الله ذاكرة له باسمه . سبحانه وبحمده . والمقصود جميع أسماء الله تعالى لأن المفرد إذا أضيف أفاد العموم، (الأعلى) أي الذي ليس أعلى منه شيء، له العلو المطلق علو الذات وعلو الصفات.

وقوله (الذي خلق فسوى) هذا ذكر لبعض أفعاله الدالة على عظمته . سبحانه . واستحقاقه للعبادة والربوبية والألوهية لا احد يستحق ذلك سواه، فمنها أنه خلق - أي أوجد من عدم - خلق الخليقة كلها، فسواها في أحسن الصور والهيئات والأشكال المتناسقة المتناسبة مع طبيعتها وطبيعة عيشها، فالكون بما فيه في أحسن خلق وأدق نظام.

وقوله ﷻ (والذي قدر فهدى) أي قدر مقادير الخلائق وقدر مصالحهم قبل خلقهم، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كتب الله مقادير الخلائق قبل

أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة". قال: "وكان عرشه على الماء".

فهو ﷻ - لسعة علمه - قد علم ما الخلائق فاعلون وما هم عاملون فكتب أعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، وهداهم إليها أي أرشدهم ودلهم، وهذا كقوله تعالى (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى).

فهاهو الطفل يخرج من بطن أمه للتو واللحظة فإذا به يلتقم الثدي فمن علمه؟ وهذه الطيور تحذب على أبناءها وتصنع لهم البيوت فمن ألهمها؟ فسبحان من هذا صنعه.

وقوله سبحانه (والذي أخرج المرعى) أي أنبته أخضر رطبا، لا يستطيع الخلق كلهم جميعا أن ينبتوا منه ولو شيئا يسيرا.

وقوله ﷻ (فجعله غثاء أحوى) أي ثم بعد أن كان رطبا يجعله تعالى غثاء أي هشيمًا يابسًا جافًا متغيرًا، (أحوى) أي أسود من القدم وهو سواد إلى الخضرة، وصف به المرعى لأنه إذا تقادم به الزمان وأصابه الماء تعفن واسود وعاد غير صالح لأن تأكله الحيوانات وترعاه بعد أن كان صالحا

لذلك، وهذا من التغيرات الذي لا يمكن أن يحدث عبثاً ولا يمكن أن يكون عن طريق الصدفة ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وقوله سبحانه (سنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله، إنه يعلم الجهر وما يخفى) سنقرئك: أي سنعلمك القرآن يا أيها النبي بواسطة جبريل وسنحفظه لك في قلبك ونجعلك تعيه فلا تنساه وتحفظه فلا يذهب منك، إلا ما شاء الله أن ينسيكه أو يذهب منه منك بنسخ ونحوه، وأما غيره فإن الله تعالى وعد رسوله ﷺ أن لن ينساه، وإن نسيه ﷺ فسيذكره لا محالة، ولا يسقط منه إلا ما شاء الله أن يذهب منه كما قال تعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) وقال سبحانه (يمحو الله ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب).

وقوله تعالى (إنه يعلم الجهر وما يخفى) يعني أن الله سبحانه وتعالى يعلم علماً تاماً الجهر: وهو ما يفعل علانية، ويتكلم به الإنسان مسموعاً، ويعلم ما يخفى: أي ما يكون خفياً مستوراً من الأعمال والأقوال، لأنه سبحانه بكل شيء عليم وعلى كل شيء شهيد، ومن ذلك علمه بما تقتضيه مصالح

عباده فيشرع لهم ما ينفعهم ويحكم لهم بما يريد مما فيه منفعتهم وفيه خير لهم.

وقوله تعالى (ونيسرك لليسرى) يعني وسنوفقك للأمر الحسن المتيسر في الدين والدنيا والآخرة وذلك بأن نشرع لك ديناً سهلاً سمحاً يسيراً لا حرج فيه ولا مشقة بل هو قائم على رفع الحرج ودفع المشقة، وهذه بشارة للرسول ﷺ وأنعم بها من بشارة.

وقوله تعالى (فذكر إن نفعك الذكرى) هذا أمر من الله لرسوله ﷺ ولمن جاء من بعده ممن يحمل راية الدعوة إلى الله تعالى أن يذكروا الناس بالوحي والآيات إذا كانت هناك منفعة للتذكير ويظن الداعية إلى الله أنه ستحصل بذلك فائدة، هذا بعد إقامة الحجة على الناس جميعاً بالتذكير بالله واليوم الآخر.

وأما إذا كانت الذكرى غير نافعة فإن مفهوم الآية أنه من الأدب أن يمسك عنها، وكذلك إذا كان التذكير يزيد في الشر أو ينقص من الخير، وهذا ما يفهم من قوله تعالى (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) وأما من سواه فإنه ﷻ

قد أمر بالإعراض عنه فقال سبحانه (فأعرض عن تولى عن ذكرنا) وهذا بعد إقامة الحجة عليه كما سلف.

وفي معاتبة الله لرسوله ﷺ في سورة عبس ما يشير إلى ذلك، وفي هذه الآية أدب عظيم من آداب نشر العلم، وذلك بأن لا يلقي إلا عند من هو أهل له والله المستعان.

ولذلك بين ﷺ أنه لا ينتفع بالذكرى إلا الخائف من ربه المؤمن به وبلقاءه فقال سبحانه (سيدكر من يخشى) أي سينتفع بالموعظة من في قلبه خشية لله وخوف من عقابه وأولئك هم المؤمنون.

وأما من كان على غير الإيمان فقال ﷺ عنهم (ويتجنبها الأشقى * الذي يصلّى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى) أي وسيتجنب هذه الموعظة والانتفاع بها الأشقى: وهذا إسم تفضيل من الشقاء وهو ضد السعادة والمقصود من بلغ في الشقاء النهاية وذلك لخلو قلبه من الإيمان والخوف من الله تعالى ومن عذابه وهو الكافر المعاند، ثم ذكر سبحانه مآله بأنه (يصلّى النار الكبرى) أي يدخلها، والنار الكبرى: هي نار الآخرة،

سميت كبرى بالنظر إلى نار الدنيا إذ نار الدنيا عند نار الآخرة صغرى كما ثبت في الحديث الذي رواه أحمد وغيره وأصله في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد.

فهذا الشقي الأشقى يدخل هذه النار، ثم لا يموت فيها: أي يهلك فيستريح، ولا يحيى حياة طيبة يتلذذ بها وينعم، بل هو في حياة كأنها ليس حياة لما فيها من عذاب ونكال وسوء حال، وهذا كقوله تعالى (إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا) وكقوله تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليها فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور).

وكما جاء في صحيح مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون".

وقوله تعالى (قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلّى) قد: تفيد التحقيق أي أن ما بعدها محقق الوقوع، والفلاح: هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، ومعنى تزكى: أي تطهر ظاهرا وباطنا من المعاصي والعيوب. واسم ربه: مفرد مضاف يفيد العموم فبأي اسم من أسماء الله لهج العبد فهو ذاكر لربه.

وقوله (فصلّى) أي أقام الصلاة، والصلاة تعم الفرائض والنوافل فجميع الصلوات داخلة في هذا وإن كانت الفرائض أقدم وأولى. والحاصل أن من اتصف بهذه الصفات الحميدة والخلال الجميلة فهو المفلح في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى (بل تؤثرن الحياة الدنيا) المقصود هنا غالب الناس، وهو إخبار عن أفعالهم أنها إثّار للحياة الدنيا وتقديم لها على الآخرة، وذلك لأن الإنسان خلق من عجل فهو بطبعه يميل إلى ما قرب وإن كان الشيء البعيد أفضل منه.

وإيثار الحياة الدنيا خلاف ما أمر الله به إذ قال (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا) فالعقل يجعل همه الآخرة وأما الدنيا فيعطيهما ما تيسر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ولذا قال سبحانه (والآخرة خير وأبقى) أي والآخرة بما فيها من النعيم خير من الدنيا وما فيها، فكل شيء في الآخرة خير من كل شيء في الدنيا في كل وصف، وأبقى أي لا ينتهي ولا ينقطع كل ما فيها من نعيم ولذة وسرور وحبور، بل هي باقية أبد الأبدان ودهر الداهرين كما قال تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق، ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ألا فما أشد غبن من باع آخرته بدنياه واشترى الفانية بالباقية.

وقوله ﷻ (إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى) إن: تفيد التوكيد، وهذا: اسم إشارة للشيء القريب والمقصود به قوله تعالى (قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى * بل تؤثر الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى) يعني أن هذا القول الحكيم مذكور في صحف إبراهيم وموسى بلفظه أو بمعناه والله أعلم.

و(الصحف الأولى) أي التي قبل هذا القرآن، والمقصود بذلك ما أنزل الله من كتاب على إبراهيم وموسى عليهما السلام والله أعلم.

يستفاد من هذه السورة

١/ الأمر بتسبيح الله وتنزيهه عما لا يليق به، وهذا يدل على عظمته وجلاله سبحانه وبحمده.

٢/ إثبات صفة العلو لله سبحانه، علو ذات وعلو صفات.

٣/ بيان أن الله خلق خلقه، وسواهم في أحسن الأشكال والهيئات، فكل ما خلق الله حسن.

٤/ تقدير الله للمقادير، وهداية كل لما قدر له سواء كان هذا التقدير شرعياً أو كونياً.

٥/ رحمة الله بخلقه في إيجاده لهم ما ينفعهم كإخراج المرعى للدواب، وإن في اختلافه من حال إلى حال خضرة إلى يبوسة ثم إلى هشيم أحوى لآية من آيات الله الدالة لإرادته وقدرته على كل شيء.

٦/ بيان أن هذا القرآن من عند الله أقرأه رسوله ﷺ وجعل قلبه له واعيا وحفظه عليه من النسيان، وفي هذا إشارة إلى حفظ الله لكتابه كما قال ﷻ (إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون).

٧/ الإشارة إلى وجود النسخ في القرآن الكريم ورفع بعضه تلاوة وحكما بأمر الله وإذنه، وذلك بأن ينسي رسوله ﷺ ما يشاء نسخه.

٨/ علم الله الواسع المحيط بكل شيء سرا وجهرا باطنا وظاهرا بعيدا وقريبا. ٩/ سهولة هذا الدين ورفع الحرج عن هذه الأمة.

١٠/ الأمر بالتذكير والوعظ والإرشاد حيث ينفع ذلك بعد إقامة الحجة على الجميع، وهذا من آداب الدعوة.

١١/ بيان أنه لا ينتفع من الذكرى والتذكير إلا من يخاف الله ويخشاه وهذا كقوله سبحانه (إنما يستجيب الذين يسمعون) وكقوله تعالى (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة).

١٢/ لا يعرض عن التذكرة إلا شقي أشقى ولا يصد عن الذكر إلا مخذول أعمى.

١٣/ بيان أن النار جزاء من أعرض عن الطاعة وأدبر عن الله وذكره.

١٤/ عظم النار وشدة حرارتها وبيان أنها أعظم من نار الدنيا.

١٥/ خلود الكفار في العذاب دائما وأبدا وتمنيهم الموت فلا يأتيهم، وفي

ذلك الترهيب من النار والتحذير من كل عمل يؤدي إليها.

١٦/ بيان أن من زكى نفسه بالطاعة وطهرها من المعاصي فهو المفلح

الناجح.

١٧/ فضل الذكر والصلاة مع تزكية النفس، وبيان أن ذلك من أسباب

الفلاح.

١٨/ طبيعة الإنسان إثارة الدنيا على الآخرة وهذا من قلة علمه وكثرة غفلته

وعظيم استعجاله، يرضى بالقليل ويقنع بالدون في سبيل العجلة، ويترك ما

هو أفضل من ذلك بكثير إن كان متأخرا.

١٩/ فضل الآخرة على الدنيا، وبيان أن كل ما فيها من نعيم خير من

الدنيا وما فيها، وأنها باقية دائما وأبدا بخلاف الدنيا التي لا تدوم ولا يقر لها

حال إن أسرت يوما أضحكت أياما وإن أفرحت زمنا أترحت أزمانا.

٢٠/ ذكر صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، والإشارة إلى أنها اشتملتا على مواعظ من عند الله عظيمة.

تفسير سورة الغاشية

سورة الغاشية مكية، وعدد آياتها {٢٦} آية، نزلت بعد سورة الذاريات، ترتيبها في المصحف {٨٨}، وترتيبها في النزول {٦٨}.

باب

روى الإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ "كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ(سبح اسم ربك الأعلى) و(هل أتاك حديث الغاشية) وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما.

روى الإمام أحمد في مسنده عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ "كان يقرأ في العيد بـ(سبح اسم ربك الأعلى) و(هل أتاك حديث الغاشية).
وروى أبو داود في سننه عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أيضا أن رسول الله ﷺ "كان يقرأ في صلاة الجمعة بـ(سبح اسم ربك الأعلى) و(هل أتاك حديث الغاشية).

وروى الإمام البزار في مسنده عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ "كان يقرأ في الظهر والعصر بـ(سبح اسم ربك الأعلى) و(هل أتاك حديث الغاشية).

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُوءَ يَوْمِنَا حَاشِعَةً (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣)
تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنِ أَنْبِيَاءِ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ
ضَرِيحٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وَجُوءَ يَوْمِنَا نَاعِمَةً (٨)]

لَسَعِيْهَا رَاضِيَةً (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيْهَا لَاجِيَةً (١١) فِيْهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيْهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)].

قوله تعالى (هل أتاك حديث الغاشية) الإستفهام إما أن يكون للتشويق وإما إن يكون للتعظيم وهو الأظهر، وحديث الغاشية أي خبرها ونبأها، والغاشية: اسم من أسماء يوم القيامة سميت بذلك لأنها تغطي الناس بفرعها وهولها فتعمهم جميعا.

وفيها ينقسم الخلائق إلى قسمين قسم العصاة وقسم الطائعين، وحال كل منهم يختلف عن حال الآخر هناك.

فالقسم الأول قال عنهم سبحانه وتعالى (وجوه يومئذ خاشعة) عبر بالوجه مع أن المقصود أصحابها من باب إطلاق البعض وإرادة الكل، وإنما عبر بالوجه لأن الوجه هو صورة الإنسان المعبرة عما في داخله ومنه تقرأ سعادته وفرحه أو شقاوته وبؤسه، ويومئذ: المقصود به يوم القيامة، خاشعة: أي ذليلة خاضعة مهانة قد أذلها كفرها وأخضعها عصيانها كما قال سبحانه وتعالى (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من

طرف خفي وقال الذين آمنوا إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين) وقال تعالى (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

وقوله جل شأنه (عاملة ناصبة) أي هي يوم القيامة في عمل شديد يورث لها النصب وهو التعب وذلك لما يحملون من سلاسل وقيود وأغلال وأنكال، وما يكفون به من الصعود، والجر الشديد، والسحب المضني على الوجوه وفي النار أعادنا الله من ذلك، وهذا هو الأظهر. وأما من قال بأنها عاملة في الدنيا فإن السياق لا يساعد على ذلك لأن هذا إخبار عن يوم القيامة وما يحدث فيه لأولئك المجرمين.

وقوله جل شأنه (تصلى نارا حامية) أي تدخل نارا حامية قد اشتد حماها وعظم حرها، وفضلت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها، وفيها الشمس قد كورت وهي ما هي في الحمأ والحرارة.

وقوله جل شأنه (تسقى من عين آنية) تسقى إذا استغاثت تريد الماء تسقى بماء هذا وصفه بعد أن يشتد عطشهم، يسقون بماء لا خير فيه لا باطنا ولا ظاهرا فهو كما قال تعالى (وسقوا ماءا حميما فقطع أمعاءهم) وكما قال تعالى (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا) والعين: هي الماء الجاري، والظاهر أن هذه العين نابعة من نار جهنم أعادنا الله منها.

وآنية أي حارة شديدة الحرارة قد بلغ حرها نهايته وغايته كما قال تعالى (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن) هذا شرابهم.

وأما طعامهم فشر من ذلك قال تعالى في بيانه (ليس لهم طعام إلا من ضريع) الضريع قيل أنه شجر ذو شوك عظيم، إذا يبس لا ترعاه البهائم وهو يسمى بالشبرق، وضريع الآخرة غير ضريع الدنيا فهو أمر وأنتن ولا يمكن أن يستساغ إلا بشق النفس، وهو عذاب أكثر من كونه طعام، ولذلك قال سبحانه وتعالى عنه (لا يسمن ولا يغمي من جوع) وهذان الأمران هما

القصد من أكل الطعام إما أن يسد جوع الآكل وإما أن يضمن بدنه من الضعف والهزال، وهما منعمان في طعام أهل النار نسأل الله العافية.

هذا حال الأشقياء الفجار العصاة الكفار وهم القسم الأول المذكورون في هذه السورة، وأما القسم الثاني وهم الأتقياء الأبرار المطيعون لربهم الغفار فهم في أهنأ عيش وأرغد حال كما قال تعالى عنهم (وجوه يومئذ ناعمة) وجوه أي أصحابها، يومئذ: أي يوم القيامة، ناعمة: أي ظاهرة عليها نضرة النعيم التي تدل على ما ينتظرهم من خير وسرور وفرح وحبور.

وقوله ﷻ (لسعيها راضية) أي رضيت عن عملها وكسبها في الدنيا، وذلك لأنها عملت حسنا فأورث لها الحسنى فرضيت بذلك ورضي عنها ربها بذلك، وكيف لا ترضى وهي (في جنة عالية) الجنة: هي دار النعيم الذي أعده الله لأولئك الطائعين، وعالية: أي مرتفعة رفيعة في محلها ومنازلها فمحلها في أعلى عليين، ومساكن أهلها عالية.

ومن الصفات التي تتميز بها تلك الدار التي نزلوها أنها (لا تسمع فيها لأغية) أي لا يسمع فيها قول لغو ولا باطل فضلا عن مكروه أو محرم، بل

كل ما فيها طيب تسبيح وتحميد وذكر لله وتسليم كما قال تعالى (لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا * إلا قيلا سلاما سلاما) فهم طيبون في محل طيب.

وقوله جل شأنه (فيها عين جارية) أي في تلك الجنة عين: والمراد بها الجنس لأن فيها أنهار اللبن والماء والخمر والعسل، جارية: أي تجري حيث أراد أهلها لا تحتاج إلى حفر ساقية ولا إلى إقامة أخاديد.

وقوله سبحانه (فيها سرر مرفوعة) السرر: جمع سرير وهو المجلس، ومعنى مرفوعة: أي مرفوعة السمك بالفراش الوطيء الناعم الملمس.

وقوله تعالى (وأكواب موضوعة) الأكواب: جمع كوب وهو الكأس أو الكوز الذي لا عرى له، ومعنى موضوعة: أي أمامهم لا ترفع، فيها ألوان الأشربة وأصناف الأطعمة يطوف عليهم بها ولدان مخلدون وغللمان كأنهم لؤلؤ مكنون، متى ما أرادوا شربوا منها وارتووا.

وقوله (ونمارق مصفوفة) النمارق: جمع نمرقة وهي الوسادة، ومصفوفة: أي قد نظمت حتى صارت تسر الناظرين بمرآها قبل أن يلتذ بالجلوس والاتكاء عليها.

وقوله (وزرابي مبنوثة) الزرابي: جمع زربي وهو البسطة الطويلة العريضة، ومبنوثة: أي منتشرة هنا وهناك في الجنة فأين أراد صاحبها جلوس، قد انتشرت في كل مكان، فيالله ما أنعم من دخل الجنة وحق لهم أن ينعموا. وليعلم المؤمن أن ما عندنا من أسماء هذه المسميات لا يشبه ما هناك، بل ما هناك أفضل وأطيب وأحسن وأجمل، ويكفي أن فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين وأشياء لم تخطر على قلب أي بشر (وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون).

وقوله تعالى [أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)].

قوله سبحانه (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) الإستفهام للتوبيخ أي أن الله تعالى يوبخ من أنكر يوم القيامة وما يحدث فيه، يوبخهم لأنهم لم يتفكروا في آيات الله الدالة على قدرته على كل شيء ومنها إعادة الناس بعد موتهم، وبدأ بالإبل لأنها . والله أعلم . أكثر ما يلبس الناس في ذلك الزمن، وفيها من المنافع والعبرة ما ليس في سواها، فمنها يأكلون ويشربون ويركبون وعليها يحملون أمتعتهم وأثقالهم وتبلغهم بلدا لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس وتحمل من المشاق ما لا يتحمله سواها من الدواب، ينظرون إليها كيف خلقت عظمُ جثة وكبر جسم ومع ذلك فهي مذللة للصغير والكبير والقوي والضعيف، وكيف تتحمل وهي باركة ثم تقوم بحملها الأمر الذي يعجز عنه سائر الدواب، ألا فكم فيها من آية لو كانوا يعقلون.

وقوله تعالى (والى السماء كيف رفعت) هذا معطوف على الجملة الأولى، وفيه يدعو . سبحانه . هؤلاء المعرضين عن التفكير في آيات الله إلى أن ينظروا نظر تفكر إلى السماء من فوقهم، بما فيها من كواكب ونجوم

وأفلاك كيف رفعت هذا الارتفاع العظيم بغير عمد، ولا أحد ممسكها غير الله؟.

كيف استقرت في هذا الارتفاع آلاف السنين بل بلايينها دون أن تسقط أو تهبط على كبرها وعظمتها وسعتها وكثرتها؟.

ولكن صدق الله إذ يقول (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، إنه كان حليما غفورا).

وقوله جل شأنه (وإلى الجبال كيف نصبت) أي أولا ينظر أولئك إلى هذه الجبال العظيمة الشامخة الراسية كيف نصبت وجعلت مرتفعة شماء؟.

أليس الذي أرساها بهذه المتانة والقوة بقادر على أن يعيد الخلق بعد موتهم؟!.

هذه الجبال العظيمة التي لو اجتمع منْ بأقطارها على أن يخلقوا سلسلة مثلها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، هذه الجبال التي تثبت أمام الأعاصير الشديدة والرياح القاسية العنيفة والأمطار الكثيرة المتتابة التي لا يثبت

أمامها بنيان بني آدم ولو عظم واشتد، لكن الجبال ثابتة أمام كل ذلك، ولا غرو فهو صنع الله الذي أنقن كل شيء.

هذه الجبال التي جعلت للأرض أوتادا تثبتها قد ساخ الجبل في الأرض مثل ما علا أو أكثر فسبحان الذي خلقها ونصبها.

وقوله تعالى (والى الأرض كيف سطحت) يأمرهم سبحانه أن ينظروا إلى هذه الأرض التي هي تحتهم وعليها يعيشون، كيف سطحت فجعلت على هذه الهيئة التي هي عليها مما يمكن لهم العيش عليها، ولو كانت كالمسلة لما استطاعوا العيش عليها ولا البقاء فوقها، ولكن الذي خلقهم يعلم ما يصلحهم فجعلها على هذه الهيئة وإن فيها لآيات للناظرين.

ومما ينبغي التنبيه له أن الله سبحانه وتعالى خاطب البدو بهذه الآيات، ولذا ذكر لهم ما يشاهدونه دائما فالإبل مركوبهم، والسماء سقّهم، والجبال بجانبهم، والأرض من تحتهم، لا يكاد احدهم ينفك عن رؤية هذه الأشياء العظيمة، وإن فيها لعبرا وخبرا.

وقوله جل شأنه **(فذكر إنما أنت مذكر)** فذكر: أي كل الناس لأنك أرسلت للناس كافة، ومعنى ذكر: أي بلغ ما أرسلت به للناس، **(إنما أنت مذكر)** هذا كقوله تعالى **(ما على الرسول إلا البلاغ)** وكقوله تعالى **(ما عليك إلا البلاغ)**.

وقوله تعالى **(لست عليهم بمسيطر)** أي ليس لك عليهم سلطة حتى تلزمهم باستماع الذكرى وبالإيمان، ولست عليهم بجبار تقهرهم على ذلك.

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، ثم قرأ **(إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر)**."

وقوله تعالى **(إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر)** الإستثناء هنا منقطع فتكون إلا بمعنى لكن، من تولى: هو الذي أعرض عن الحق واتباعه والعمل به، وكفر بلسانه وجوارحه أي استكبر ولم يقبل ما جاء به الرسول ﷺ، **فيعذبه الله**: هذا الجزاء الذي ينتظر ذاك المعرض الكافر،

العذاب الأكبر: أي الذي هو أكبر من كل عذاب قد بلغ الغاية في الكبر والمشقة والإهانة والإذلال وهذا هو عذاب الآخرة، وأما ما يحصل من فتن وابتلاءات ومصائب على الكافر في الدنيا فإن ذلك هو العذاب الأدنى أو الأصغر بالنسبة لما ينتظره في الآخرة، كما قال تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) نسأل الله العافية.

وقوله تعالى (إِن إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ* ثُمَّ إِن عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ) إن: تفيد التوكيد، ومعنى إِيَابُهُمْ: أي مرجعهم كما قال تعالى (إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) والمعنى: أن مرد الخليقة - مؤمنهم وكافرهم - إلينا، ثم إن علينا حسابهم فنحاسبهم بالخير والشر فمن كثر خيره وقل شره فأولئك هم المفلحون، ومن لا فلا.

لكن ينبغي التنبيه إلى أن حساب المؤمن يختلف عن حساب الكافر، فالمؤمن يخلو به ربه ويقرره بذنوبه حتى إذا أقر بها قال الله تعالى له "سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم". كما تقدم بيانه في سورة التكوير.

وأما الكافر الفاجر فإنها تحصى عليه أعماله السيئة . وذلك انه لا حسنات له . تحصى عليه ذنوبه ويقرر بها أمام العالم وينادى عليه (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين) نعوذ بالله من سوء المنقلب).

يستفاد من هذه السورة

١/ تعظيم يوم القيامة كما يدل عليه تعدد أسمائه، وكذا شموله لجميع الناس وكرهه عليهم.

٢/ إنقسام الناس يوم القيامة إلى فائزين وخاسرين وذلك حسب أعمالهم في الدنيا ولا يظلم ربك أحداً.

٣/ ذل الكفار وخزيهم يوم القيامة وتعبهم ونكالهم، وشدة عذاب يوم القيامة.

٤/ شدة حرارة النار وعظم حماها، وشدة حرارة ماءها الحميم.

٥/ قبح طعام أهل النار، وبيان انه لا ينفعم بل يضرهم.

٦/ فرح المؤمن وسروره يوم القيامة وتنعمه في الدار الآخرة.

٧/ فضل العمل الصالح في الدنيا، وبيان أنه يورث الرضا يوم القيامة.

٨/ علو الجنة ورفعتها وتنزهها عن اللغو والباطل والهزل والعبث.

٩/ أنهار الجنة جارية حيث شاء أهلها.

١٠/ وصف سرر الجنة وأنيتها وفرشها، مما يحدو بالمؤمن إلى الشوق إليه
والمسارعة نحوه.

١١/ أمر الله عباده بالتفكر في مخلوقاته وعظمتها الدالة على عظمته
سبحانه.

١٢/ أمر الله رسوله ﷺ بالتذكير، وهو أمر لسائر الدعاة من بعده، وبيان
أن الدعاة لا يملكون إلا التذكير وليس عليهم أن يجعلوا الناس مؤمنين.

١٣/ الإشارة إلى أن الداعية إذا بلغ الرسالة فلا يضره ضلال الناس بعد
ذلك، ففيه معنى قوله تعالى (لا يضركم من ضل إذا اهتديتم).

١٤/ عقوبة الكافر يوم القيامة العذاب الأكبر، وكذا كل من تولى واستكبر.

١٥/ إثبات المرجع إلى الله، ومنه البعث بعد الموت.

١٦/ محاسبة الله للخلائق على أعمالهم، فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن
وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه والله المستعان.

تفسير سورة الفجر

سورة الفجر مكية، وعدد آياتها ثلاثون آية، نزلت بعد سورة الليل، ترتيبها في المصحف {٨٩}، وترتيبها في النزول {١٠}.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)].

قوله **وَالْفَجْرِ** (وَالْفَجْرِ) الواو: واو القسم، والفجر: هو الصبح بداية النهار وآخر الليل، وفيه صلاة الفجر التي هي إحدى الصلوات الخمس وأولها والتي تشهدا الملائكة.

وقوله تعالى (وليل عشر) هذا قسم ثان بالليالي العشر وهي . والله أعلم .
العشر الأواخر من رمضان، التي فيها ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وهذا الذي يظهر من الآية واضحا جليا.

وأما من قال بأنها عشر ذي الحجة الأول فإن سياق الكلام لا يساعد عليه
إذ الفضل المذكور هنا لليالي لا للأيام، ومن المعلوم أن عشر ذي الحجة
الفضل فيها للأيام لا لليالي فنتبه.

وقوله جل شأنه (والشفع والوتر) هذا قسم ثالث بالشفع والمقصود به الخلق
كلهم كما قال تعالى (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)، والوتر .
بفتح الواو وفي قراءة بكسرها وكلا القراءتين ثابت صحيح . المقصود به الله
ﷻ كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "لِلَّهِ
تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَإِنَّ اللَّهَ وَتَرَّ يُحِبُّ الْوِتْرَ".

وقوله تعالى (والليل إذا يسر) هذا قسم بالليل حين سريانه أو سيره، لأن
السري: هو السير في الليل، والمعنى أقسم بالليل إذا ذهب وسرى.

وفي الليل آيات عظيمة من آيات الله كالصلوات الثلاث وقيام الليل وسكون الخلق وراحتهم واطمئنانهم وكذا تنزل الله في الثلث الأخير منه إلى السماء الدنيا، فالليل آية عظيمة من آيات الله الباهرة التي لا يستطيع الخلق أن يأتوا بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا كما قال ﷺ (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون).

وقوله سبحانه (هل في ذلك قسم لذي حجر) الحجر: هو العقل، وسمي حجرا لكونه يمنع صاحبه من الوقوع في ما لا فائدة فيه ولا منه، والمعنى هل في ما ذكر من الأقسام ما يغني عن صاحب العقل فيراه حقيقا أن يقسم به إجلالا وتعظيما، ويصدق بما أقسم به عليه.

والحق أن بعض ذلك يكفي (لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) بل إن ذكر الله للشيء ليفيد العلم القطعي اليقيني من دون أن يقسم سبحانه

تعالى عليه ومن أصدق من الله حديثًا وقيلاً، لكن من طبع الله على قلبه لا يؤمن ولو جاءتة كل آية حتى يرى العذاب الأليم.

وفائدة هذا القول . بعد القسم . زيادة التأكيد والتحقيق للمقسم عليه، كمن ذكر حجة باهرة ثم قال هل في ما ذكرته حجة أم لا؟

وجواب القسم محذوف تقديره: ليعذب الله الذين كفروا أو ليهلكهم كما دلت عليه ما بعده من سياق إهلاك الله للأمم السابقة إذ قال تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد) ألم تر: أي ألم تعرف، والخطاب للرسول ﷺ ابتداءً ولجميع الإنس والجن الذين سمعوا هذه الآيات من بعده، يدعوهم تعالى للتفكر والإعتبار بما حل بمن قبلهم من الأمم السابقة الذين كذبوا بآيات الله فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون.

وعاد: هم قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون في الأحقاف في نواحي حضرموت، وكانوا عظام الخلقة شداداً أقوياء، فاغتروا بقوتهم ولم يعلموا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، فكذبوا رسولهم هوداً عليه السلام واستهزؤوا به وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب الذي يتهدهم به، فأرسل الله

عليهم ريحا شديدة قوية في أيام نحسات فاستمرت عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فأهلكتهم عن آخرهم، وأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم وفي ذلك عبرة للمعتبرين، فهذا فعل الله بعاد، وهم عاد الأولى قوم هود.

وقوله تعالى (إرم ذات العماد) قيل: أن إرم اسم جدهم، وقيل هو اسم للقبيلة وهو بيت مملكتهم، وجميع ذلك يدل على أن إرم بدل من عاد، وذات العماد: أي صاحببتها وهي الأعمدة التي ترفع عليها بيوت الشعر، وهذا كله يدل على أنهم كانوا بدوا رحلا لا يستقرون، وهذا هو الظاهر من طبيعة بلادهم فإنهم سكان صحراء يقطنون الأحقاف وهي جمع حقف وهو الجبل من الرمل.

وقوله تعالى (التي لم يخلق مثلها في البلاد) هذا بيان لما كان عليه أولئك القوم من شدة وقوة وعظم خلقة فهم لم يخلق مثلهم في البلاد، ومع ذلك لما عتوا عما نهوا عنه وكذبوا رسل الله أهلّكهم الله، ولم تغن عنهم شدتهم ولا قوتهم من شيء (إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون).

وقوله تعالى (وتمود الذين جابوا الصخر بالواد) هذا عطف على ما سبق أي ألم تر ما فعل ربك بتمود: وهم قوم صالح عليه السلام كانوا يسكنون أرض الحجر من بلاد الشام بوادي القرى كما جاء في الصحيحين عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الحجر أرض تمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئرها وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة فاستقوا من بئرها وعجنوا به.

وقد دعاهم نبيهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله وتوحيده وترك ما كانوا يعبدون من دون الله فكذبوه، وطلبوا منه أن يأتي بآية دالة على صدق نبوته فبعث لهم - بإذن الله - ناقة على الأوصاف التي طلبوها منه، وجعل لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، ونهاهم عن قتلها فكذبوه فعقروها فأخذهم الله بصيحة من فوقهم ورجفة من تحتهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

ومعنى جابوا: أي قطعوا من الجوب وهو القطع ومنه الجيب، والصخر: هو الحجارة العظيمة كالجبال ونحوها كانوا ينحتونها بيوتاً، وهذا دال على قوتهم التي أعطاهم الله فغرّتهم ولم يعبدوا الله رب العالمين.

والواد: هو وادي القرى الذي كانوا يسكنون على ضفافه وفيه.

وقوله جل شأنه (وفرعون ذي الأوتاد) هذا عطف على ما سبق، والمعنى: ألم تر كيف فعل ربك بفرعون وهو ملك مصر في زمن موسى عليه السلام، وكان قد طغى وبغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى وما علمت لكم من إله غيري، فأرسل الله إليه موسى لعله يتذكر أو يخشى، لكنه استكبر وأبى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى بأن أغرقه في البحر هو وجنوده وذلك عاقبة بغى وتكبره وافتخاره بأن الأنهار تجري من تحته فأجراها الله من فوقه وأهلكه بها، وأخرج بدنه ليكون آية للناس فسبحان الذي يمهّل ولا يهمل.

وقوله (ذي الأوتاد) أي صاحبها، والأوتاد: جمع وتد والمقصود بذلك العساكر والجنود لأنها تثبت الملك كما تثبت الأوتاد الخيمة.

وقوله ﷺ (الذين طغوا في البلاد) المقصود بذلك كل من سبق ذكرهم من عاد وثمود وفرعون، ومعنى طغوا أي تجاوزوا الحد في المعاصي لأن الطغيان هو مجاوزة الحد، فهؤلاء تعدوا حدود الله وتعدوا على عباد الله. ولذا قال سبحانه (فأكثرُوا فيها الفساد) أي أكثرُوا من عمل المعاصي وعلى رأسها الكفر بالله ورسله ومحاربة رسل الله والصد عن سبيل الله، فلما فعلوا ذلك أخذتهم العقوبة ونزل عليهم عذاب الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين كما قال ﷺ (فصب عليهم ربك سوط عذاب) الصب: هو الإنزال من أعلى، وعبر بالصب: وهو الإفراغ والإلقاء للإشارة إلى كثرة العذاب النازل وتتابعه عليهم، وربك: المخاطب محمد رسول الله ﷺ ليتسلى وليخف عنه ما يلاقى من أذى قومه، وليعلم أن الله ناصر دينه ورسله، والسوط: في الأصل شائع في العصا المعروفة، لكن المقصود به هنا العذاب الذي أهلّكهم وأبادهم.

والمعنى: أن الله أنزل بكلّ منهم لونا من ألوان العذاب الشديد الذي أهلّكهم وجعل فيهم عبرة للمعتبرين.

وقوله ﷻ (إن ربك لبالمرصاد) إن: تفيد التوكيد، والمخاطب رسول الله ﷺ وكل من يصلح أن يوجه له الخطاب، ومعنى بالمرصاد: أي يرصد على خلقه أعمالهم فهو مطلع عليها عالم بها يسمع ويرى وسيجزي كلا بما قدم وسعى، وهو بالمرصاد للظالمين الطاغين يهلك من طغى ويعذب من بغى وإليه المصير.

وقوله تعالى إفاًما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربّي أكرمن (١٥) وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربّي أهانن (١٦) كلاً بل لا تكرمون اليتيم (١٧) ولا تحاضون على طعام المسكين (١٨) وتأكلون الثراث أكلاً لماً (١٩) وتحبون المال حباً جماً (٢٠) كلاً إذا دكت الأرض دكاً دكاً (٢١) وجاء ربك والملك صفاً صفاً (٢٢) وحيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى (٢٣) يقول يا ليتني قدمت لحياتي (٢٤) فيومئذ لا يعذب عذابه أحد (٢٥) ولا يوثق وثاقه أحد (٢٦) يا أيتهما النفس المطمئنة (٢٧) أرجعي إلى ربك راضية مرضية (٢٨) فادخلي في عبادي (٢٩) وادخلي جنّتي (٣٠).

قوله جل شأنه (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول: ربّي أكرمن) هذا إخبار عن حال غالب بني الإنسان أن أحدهم إذا ما اختبره ربه وامتنحه بالمال والجاه فإنه لجهله وقلة فهمه يظن أن هذا الإكرام الذي

حصل له إنما وقع لأنه يستحقه، فيفتتن به ولا ينجح في الاختبار، لأنه لم يعلم أن المال والجاه إنما هو فتنة له لينظر هل يشكر أو يكفر فيقول ربي أكرمن لأنني أستحق الإكرام والجاه.

وكثير منهم إذا ابتلاه ربه واختبره بالفقر وقلة الرزق فإنه يعترض على ربه ومولاه ولا يصبر على ما قدر إلهه وقضاه، بل يتضجر ويعتقد أن ذلك إهانة من الله له كما قال سبحانه (وأما إذا ما ابتلاه فقد رزقه فيقول ربي أهانني) ابتلاه أي اختبره وامتحنه، ومعنى قدر: أي ضيق عليه في رزقه بحيث يكون بقدر قوته لا يفضل منه شيء.

وما ذكر من ظن الإنسان المكرم من أنه أهل للإكرام ومن تسخط المبتلى بضيق الحال بأنه مهان هذا هو الغالب في بني الإنسان كما قال تعالى [إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) (الآيات).

أما المؤمن . حق الإيمان . فإنه يعلم إذا أنعم الله عليه بنعمة أن هذا اختبار وامتحان لينظر هل يقابلها بالشكر أم بالكفر كما جاء ذلك عن نبي الله

سليمان عليه السلام، وإذا ما ضاق به الحال فإنه يرد ذلك إلى عمله هو ويوقن أنه بسبب ذنوبه منع فضل ربه، أو أن ربه قد أراد به خيرا إذ لم يعرضه لفتنة المال، فيكون حاله مكان التضجر شكرا، وعلى البلاء وضيق الحال صبرا وهذا للمؤمن خاصة وليس لغيره، كما جاء في صحيح مسلم عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ عجا لأمر المؤمن إن أمره كله خير . وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له".

ولذا أشار سبحانه وتعالى إلى أن ضيق الحال بالعبد قد تكون بسبب عدم معرفته الحقوق التي عليه فيتجاهلها فقال تعالى (كلا بل لا تكرمون اليقيم) كلا أي ليس الأمر على ما أنتم عليه من ظنكم أن الإكرام لمن أكرم بسبب أنه يستحقه وأنه أهل له، ولا أن من قدر عليه رزقه أن ذلك إهانة له كما جاء في مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يُعْطِي الدُّنْيَا

مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطَى الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ.

وقوله بل: تفيد الإضراب عما تقدم، وهذا التفات إلى كفار قريش من باب أولى، وهو عامة لمن كان على ما ذكر من الحال والجهل بما يقدره الله ويقضيه.

وقوله (بل لا تكرمون اليتيم) اليتيم: هو من فقد أباه قبل البلوغ، وإكرامه يكون بالعطف عليه وتفقد حاله وشراء ما يحتاج إليه.

وقوله (ولا تحاضون على طعام المسكين) الحض: هو الحث على الشيء والترغيب فيه، والمسكين: هو الذي أسكنه الفقر فلا يملك كامل قوته، والمعنى: أنكم لا تحثون بعضكم بعضا على إطعام مثل هؤلاء، ومن لم يحض غيره على الإطعام فلا شك أنه في نفسه لا يقوم بذلك العمل الشريف، وهذا يدل على ما هو واقع من شح الناس وبخلهم ومن تعلق قلوبهم بالمال وهذا ما صرح به تعالى في قوله (وتأكلون التراث أكلا لما * وتحبون المال حبا جما) التراث: هو المال المخلف للإنسان من ميراث

ونحوه، ومعنى أكلا لَمّا: أي شديدا ذريعا بحيث لا يبقى منه الآكل شيئا، بل يأخذه ويلمه سواء كان من حلال أم من حرام له أو لغيره، وهذا يدل على شدة حرص الإنسان ومحبته الشديدة للمال كما قال تعالى (وإنه لحب الخير لشديد) يعني لحب المال.

وهذا ما بينه سبحانه في الآية الثانية بقوله (وتحبون المال حبا جما) معنى جما: أي كثيرا يقال جمّ البئر إذا كثر ماءها، وهذا هو الحاصل من كثير من الناس، حرص على المال وجمعه وعدم إنفاقه في حقه ومنعه.

وقول سبحانه (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا): أي ليس الأمر على ما تتوقعون من أن الإكرام في الدنيا والإهانة باقية أبدا، لا فإن ذلك له نهاية لا محالة، وسيأتي بعده يوم القيامة الذي جمع الأهوال العظيمة ومن أكرم فيه فهو المكرم حقا ومن أهين فيه فما له مكرم، وذلك إذا دكت الأرض أي سويت ببعضها، دكا دكا: أي دكا بعد دك حتى صارت قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمّتا أي ليس فيها ارتفاع ولا انخفاض ولا اعوجاج يمنة

ولا يسرة بل هي مستوية ملساء كقرصة النقي، قد ذهب ما كان على وجهها من جبال وتلال وعمران وأشجار .

وقوله سبحانه (وجاء ربك والملك صفا صفا) جاء ربك: أي أتى لفصل القضاء والحكم بين العباد، وهذا المجيء مجيء حقيقي كما ينبغي لجلال وجه ربنا وعظمته كما دلت على ذلك آيات الكتاب وصحاح الأحاديث، نعم يجيء لكن لا ندري كيف يجيء، نؤمن بمجيئه كما أخبرنا مجيئاً حقيقياً، وليس علينا أن نعلم كيف يجيء لأنه لمن أخبرنا بذلك، وهو سبحانه لا يحيط به أحد علماً.

وهذا المجيء يأتي بعد شفاعة سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ إلى ربه في أن يقضي بين الخلائق كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ؓ قال: أتى رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة ثم قال: "أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟". يجمع الله الناس . الأولين والآخرين . في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول

الناس ألا ترون ما قد بلغكم ألا تتظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟. فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي ﷻ قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليفه من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت

ثلاث كذبات - فذكرهن أبو حيان في الحديث - نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قد قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد صبيا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله قط ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنبا - نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ﷺ . فيأتون محمدا ﷺ فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي ﷻ، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد

ارفع رأسك، سل تعطه واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأقول: أمّتي يا رب، أمّتي يا رب. فيقال: يا محمد أدخل من أمّتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة وبصرى".

فيشفع ﷺ فيشفعه ربه ويجيبه، فيأتي ﷺ في ظلل من الغمام والملائكة لفصل القضاء بين الخلائق كما قال تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور). وقوله تعالى والمَلَكُ: اسم جنس للملائكة أي جميع الملائكة، صفا صفا: أي صفا بعد صف يتقدمون بين يدي الله فيحيطون بالخلائق إحاطة السوار بالمعصم، عندها تظهر لمن لم يكن من أهل الإيمان عظمة الله وملكه وأن ما سواه لا شيء، فينادي الله ﷻ (لمن الملك اليوم) فلا يجيبه أحد إذ كلهم خاضعون خاشعون لا يملكون خطابا، فيجيب نفسه بنفسه ﷻ (الله الواحد القهار).

فيا لله كم من عزيز ذل ذلك اليوم، وكم من زعيم ود أن لو لم يتزعم، وكم من ملك تمنى أن لو كان مملوكا، والأمر يومئذ لله.

وقوله تعالى (وجيء يومئذ بجهنم، يومئذ يتذكر الإنسان، وأنى له الذكرى)

جاء: أي أتى، يومئذ: أي يوم القيامة يوم يجيء الملائكة الغلاظ الشداد

بجهنم على صورة لا يراها بشر إلا خر على ركبتيه كما جاء في صحيح

مسلم عن عبدالله بن مسعود ؓ قال: قال رسول الله ﷺ "يؤتى بجهنم يومئذ

لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها".

فلما ان يراها الخلائق على هذه الصفة العظيمة يعلمون أن ما كانوا

يوعدون حقا، ويتذكر المفرط ويندم العاصي ويتمنى الكافر أن لو كان ترابا.

يومئذ: أي يوم القيامة عند أن يؤتى بتلك الفاجعة يتذكر الإنسان أنه وعد

بهذا اليوم وهدد بمجيء جهنم، يتذكر ما أنذرت به الرسل من أهوال هذا

اليوم حين يراها امام عينيه عين اليقين، (وأنى له الذكرى) أي وكيف تنفعه

الذكرى ذلك اليوم وقد فات أوانها وذهب زمانها، عندها يتندم ويتحسر كما

قال تعالى مخبرا عن حال هؤلاء المفرطين أن كل واحد منهم يقول (يا

ليتني قدمت لحياتي) أي ياليتني عملت أعمالا صالحة في الدنيا تدخر لي ليومي هذا، لحياتي: أي الآخروية، وفي قوله (لحياتي) ما يشعر أنه عرف أن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخروية وأن حياته الدنيا كانت لا شيء، فتمنى أن لو كان عمل صالحا ولا ينفع إذ ذاك الندم.

وقوله تعالى (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد) أي ففي يوم القيامة لا يعذب كعذاب الله أحد لأن عذابه أشد وأشق وأخزى وأكبر لو كانوا يعلمون.

وقوله (ولا يوثق وثاقه أحد) أي ليس أحد أشد ربطا ووثقا من الزبانية الذين يأمرهم الله بقوله (خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم في سلسلة ذرعاها سبعون ذراعا فاسلكوه) فيوثقونه بالسلاسل ويربطونه بالأغلال ويكون الأمر كما قال الكبير المتعال (إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون * في الحميم ثم في النار يسجرون).

وقوله تعالى (يا أيها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية) لما ذكر الله جزاء المفرط الذي ذهب عليه دنياه بغير كسب للصالحات، ذكر سبحانه مآل من حافظ على الإيمان والعمل الصالح حتى جاء يوم

القيامة مطمئنا والناس وجلون، وآمنا والناس خائفون ويقول سبحانه له على لسان ملائكته عند احتضاره وفي يوم القيامة (ياأيّها النفس المطمئنة) أي التي اطمأنت بالإيمان إذ لا اطمئنان إلا به كما قال تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب).

وقوله (ارجعي إلى ربك) أي عودي إلى ربك الذي ربك بالنعمة في الدنيا، ومن جملة ما أنعم عليك نعمة الإيمان حتى صرت من أصفیائه وأوليائه، راضية في نفسك بما أعطاك الله من النعيم، مرضية عند الله لما قمت به من طاعته وعبادته وهذا كقوله تعالى (رضي الله عنهم ورضوا عنه).

ثم ذكر سبحانه جزاءها فقال ﷺ (فادخلي في عبادي * وادخلي جنّتي) أي فادخلي في عبادي الصالحين، وادخلي جنّتي جزاء لأعمالك الصالحة في الدنيا.

وإضافة الجنة لله رب العالمين إضافة تشريف وتكريم حتى ترغب فيها النفوس وبتنافس في طلبها المتنافسون نسأل الله الكريم من فضله.

يستفاد من هذه السورة

١/ لله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وقسمه سبحانه بالشيء يدل على عظمة المقسم به وفضيلته.

٢/ بيان أن صاحب العقل هو الذي ينتفع بالكلام لأنه هو الذي يعقل ما يراد به وله.

٣/ بأس الله لا يرد عن القوم المجرمين، وعاقبة الفساد والطغيان الهلاك، فمن طغى وبغى كان ذلك إيذانا بهلاكه.

٤/ بيان أن الإنسان مهما كانت قوته وقدرته في الدنيا فليس ذلك بمغن عنه من عذاب الله من شيء.

٥/ شدة عذاب الله، وبيان أنه حق يقع لا محالة على من أراد الله.

٦/ إطلاع الله على كل شيء، وعلمه بكل صغير وكبير ورصده له سبحانه، وسيجازي كل عامل بما عمل.

٧/ غالب حال الإنسان أنه مناع في الرخاء جزوع في الضراء، إذا أكرم ظن أنه لأهليته واستحقاقه، وإن افتقر ظن أن ذلك إهانة له واحتقاراً، ولا ينجو من ذلك إلا المؤمنون.

٨/ الحث على إكرام اليتيم والعطف عليه، وإطعام المساكين والحض عليه، وندم من لم يقم بذلك أو يساعد فيه.

٩/ جشع الناس وطمعهم وكسبهم للمال من حل ومن غير حل من غير مبالاة بذلك، وحبهم الشديد للكثير للمال وافتتانهم به.

١٠/ الإشارة إلى بعض أهوال يوم القيامة، وما يجري فيه.

١١/ إثبات صفة المجيء لله رب العالمين مجيئاً يليق بجلاله وعظمته.

١٢/ كثرة الملائكة وإحاطتهم بالخلق يوم القيامة وطاعتهم لله رب العالمين.

١٣/ مجيء جهنم على تلك الصفة التي تتخلع بسببها القلوب، وفي ذلك إشارة إلى عظمتها وحنقها على العصاة.

١٤/ ندم العاصي يوم القيامة على تقصيره في طاعة الله، وعلمه حينذاك

أن الحياة الحقيقية هي حياة الآخرة وأما حياة الدنيا فهي زيف وخداع.

- ١٥ / شدة عذاب الكافر يوم القيامة وإحكام وثاقه وحلول العذاب به.
- ١٦ / نفس المؤمن مطمئنة لا تخاف وأمنة لا تقزع لا عند الموت ولا عند البعث والنشور.

تفسير سورة البلد

سورة البلد مكية، وعدد آياتها {٢٠} آية، نزلت بعد سورة ق، ترتيبها في المصحف {٩٠}، وترتيبها في النزول {٣٥}.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبًّا (٦) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)].

قوله تعالى (لا أقسم بهذا البلد) ال (لا) مثبتة للقسم، ويؤتى بها بمثل هذا التركيب للتأكيد، والمقصود بهذا البلد مكة المكرمة، فهذا قسم من الله بمكة البلد الحرام وفيها رسوله ﷺ أفضل البشر.

وقوله تعالى (وأنت حل بهذا البلد) المخاطب رسول الله ﷺ، ومعنى حل: أي حلال لك، وهذا إذن من الله للنبي ﷺ بالقتال في الحرم يوم الفتح . فتح مكة . كما جاء في الصحيحين أنه ﷺ قال يوم فتح مكة: "إن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه

لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكة ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته . إلا من عرفها . ولا يختلي خلّاه". فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر، فإنه لقينهم ولبيوتهم. قال: "إلا الإذخر". وفي لفظ آخر "فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ﷺ ولم يأذن لكم".

فأباح الله لرسوله ﷺ القتال في البلد الحرام ساعة من نهار من غير حرج ولا إثم، وإن كانت الآية مكية والفتح وقع متأخرا فإن ذلك بشارة له ﷺ بأن الله سيفتح عليه هذا البلد المبارك الأمين فيكون المعنى: وأنت حلّ بهذا البلد في المستقبل ، فهو كقوله تعالى (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ).

وقوله تعالى (ووالد وما ولد) الواو: للقسم، والوالد قيل هو آدم عليه السلام، وما ولد: ذريته، والظاهر أن ذلك عام في كل والد وفي كل مولود، فهو قسم بكل المخلوقات التي تتوالد والله أعلم.

وقوله جل شأنه (لقد خلقنا الإنسان في كبد) هذا هو المقسم عليه بما تقدم ذكره.

فقوله تعالى (خلقتنا) جاءت بلفظ الجمع . مع أن الله وحده هو الخالق . لتدل على التعظيم والتوكيد، ومعنى في كبد: الكبد هو المشقة، والمعنى . والله أعلم . أن الله تعالى خلق الإنسان ليكابد المشاق في هذه الدار وفي البرزخ وفي الآخرة إلى أن يقتحم العقبة الآتي ذكرها قريباً.

فإذا نظر العاقل إلى خلق الإنسان من أصله ثم الأطوار التي مر بها ثم التعب الحاصل لأمه حال الحمل والوضع وما يلاقيه الإنسان في هذه الدنيا من متاعب ومصاعب ثم أهوال القبر في البرزخ وأهوال يوم القيامة علم أن الإنسان خلق في تعب ومشقة، ولن يجتاز منها إلا كل مخف من الذنوب مستكثر من الحسنات بعد فضل الله وكرمه.

وقوله تعالى (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) الهمزة: للاستفهام الإنكاري، ومعنى يحسب: يظن أو يتصور، والكلام يعود إلى الإنسان، والمعنى: أيظن أنه سيعجز الله الذي خلقه أو يحسب أنه سيفوته ولا يقدر على إعادته بعد موته وهذا كقوله تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم

يك نطفة من منى يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين

الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى).

وقوله تعالى (يقول أهلك ما لا لبدا) يقول هذا الظان أن الله لن يقدر عليه

أهلك: أي أنفقت ما لا لبدا أي كثيرا متلبدا ملتصقا بعبه ببعض وهذا

كناية عن كثرتة، وقوله هذا على وجه المباهاة والمفاخرة والتكاثر ولهذا

هدده الله بأنه يراه ومطلع على فعله مما يشير إلى أنه سيلاقي جزاءه

العاقل على فعله ذلك قال سبحانه (أحسب أن لم يره أحد) الهمزة

للاستفهام الإنكاري، وحسب: أي يظن أن لم يره الله ﷻ.

وقوله ﷻ (ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفقتين) يعدد سبحانه بعض

نعمه الدنيوية على عبده الإنسان فيقول ألم نجعل له أي ألم نخلق له عينين

يبصر بهما ونخلق له لسانا ينطق به ونخلق له شفتين يستعين بهما على

الكلام وأكل الطعام وكل ذلك جمال لوجهه وفمه ومنظره.

وقوله تعالى (وهديناه النجدين) أي بينا له وأرشدناه إلى ذلك، وجاء اللفظ

بالجمع للتعظيم والتوكيد، والنجدين: مثى نجد وهو الطريق والسبيل،

والمقصود طريقَي الخير والشر، وهذا كقوله تعالى (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا).

وقوله تعالى [فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمُؤْمِنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢٠)].

قوله سبحانه (فلا اقتحم العقبة) أي فهلا اقتحم العقبة، والاقتحام هو الدخول بشدة وقوة في ما فيه مخافة، والعقبة في الأصل: الطريق الوعر في الجبل، والمعنى: فهلا جاوز هذا المغتر بدنياه المصاعب التي تنتظره في الآخرة.

ولبيان شدتها كرر المولى سبحانه ذكرها فقال منوها بذلك (وما أدراك ما العقبة) أي وما تدري ما عظمتها وما شدتها وما أعلمك بما ينجي منها، ثم بين سبحانه ما ينجي منها فقال ﷺ (فك رقبة) أي مما يساعد على اقتحام العقبة والنجاة منها فك الرقبة، والفك: هو التخليص والتفريج ومعناها هنا

العتق أي عتق رقبة، والرقبة: هي العضو المعروف يعبر بها عن الجملة وجعل في التعارف اسما للمماليك كما عبر بالرأس والظهر عن المركوب فيقال: فلان يربط كذا رأسا وكذا ظهرها.

والمقصود من الآية: بيان أن من أسباب اقتحام العقبة الكؤود إعتاق المماليك ومساعدتهم على التخلص من رق العبودية، ويدخل في ذلك فكاك أسرى المسلمين والمساعدة في ذلك، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة ما يدل على ما ذكر ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب . أي عضو . منها إربا منه من النار حتى أنه ليعتق باليد اليد وبالرجل الرجل وبالفرج الفرج".

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله علمني عملا يدخلني الجنة؟. فقال: "لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة وفك الرقبة". فقال: يا رسول الله أو ليستا بواحدة؟. قال " لا، إن عتق النسمة أن تتفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها، والمنحة الكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم، فان لم تطق ذلك

فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير". رواه أحمد.

وقوله ﷺ (أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيما ذا مقربة * أو مسكينا ذا متربة) هذا بيان لسبب ثان من أسباب اقتحام العقبة والنجاة منها وهو الإطعام في يوم ذي مسغبة، والإطعام: هو بذل الطعام لمحتاجيه ومعنى يوم ذي مسغبة: أي يوم مجاعة وحاجة شديدة إلى الطعام يطعم أشد الناس حاجة إلى ذلك مثل اليتيم ذي المقربة، واليتيم: هو من مات أبوه قبل بلوغه، ومعنى ذي مقربة: أي صاحب قرابة من المطعم كابن الأخ ونحوه وذلك لتكون الصدقة لها أجران أجر الصدقة وأجر الصلة كما جاء عن سلمان بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة".

ومن أشد الناس حاجة في المجاعات المسكين ذو المتربة، والمسكين: هو الذي لا يجد من المال ما يكفيه مأخوذ من السكون وقلة الحركة، ومعنى ذا متربة: قال ابن عباس رضي الله عنه هو المطروح في الطريق الذي لا بيت له ولا

شيء يقيه من التراب، وهذا دال على الحاجة الماسة إلى الإطعام لا سيما أيام المجاعات، فيكسب المُطعم بذلك أجرا عظيما.

وقوله ﷺ (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) أي ويشترط في المُطعم والمُعْتق أن يكون من المؤمنين بالله إيمانا حقيقيا قولاً وعملاً، الموحدين له سبحانه وذلك لأن من لم يكن كذلك لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

وتواصوا بالصبر: أي أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله وعلى أقداره، وبالصبر عن معاصيه، وبالصبر على أذى الناس، وأوصى بعضهم بعضاً بالرحمة بالناس وهذا بين في قوله تعالى (وتواصوا بالمرحمة) أي بالرحمة بعباد الله، رحمة بالخلق يستحقون بها رحمة الخلق كما ثبت في سنن الترمذي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجرة من الرحمن فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله". وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح

وقوله ﷻ (أولئك أصحاب الميمنة) أولئك: الإشارة على من اتصف بتلك الصفات الحميدة الفاضلة النبيلة، أصحاب الميمنة: أي الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم وهم من أصحاب اليمين الفائزين الناجين من عذاب الله وأهوال يوم القيامة (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون).

وقوله عز شأنه (والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة) هذا هو الصنف الثاني من أصناف الناس يوم القيامة، وهم الذي لا يقتحمون العقبة بسبب أفعالهم الشنيعة وأعمالهم الفظيعة في الدنيا، وعلى رأسها الكفر بالله وآياته وعدم الإيمان بها مما أثقل ظهورهم وكواهلهم، فاستحقوا أن يكونوا من أصحاب الشمال الخاسرين الذين يتقحمون في النار ولا يقتحمون العقبة، بل توصل عليهم النار ولا يستطيعون الخروج منها، وهذا ما بيّنه تعالى في قوله (عليهم نار مؤصدة) أي مغلقة الأبواب، مظلمة الأركان، لا ضياء فيها ولا نور، وليس لهم منها خروج، جزاء أفعالهم نعوذ بالله من صنيعهم ومآلهم.

يستفاد من هذه السورة

- ١/ فضل مكة المكرمة الظاهر في إقسام الله تعالى بها.
- ٢/ فضل الرسول ﷺ ومنزلته عند ربه.
- ٣/ لله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.
- ٤/ بيان أن الإنسان في مشقة في الدنيا وتعب إلى أن يقتحم العقبة.
- ٥/ غرور الكافر وانخداعه عن ربه واغتراره بماله وكثرته سبب لهلاكه.
- ٦/ نعم الله على هذا الإنسان . سواء منها الدنيوية أو الدينية . توجب عليه طاعة الله وشكره وعبادته.
- ٧/ تبين الله لطريق الخير والشر، وحثه على طريق الخير من أجل أن تسلك، وتحذيره من طريق الشر من أجل أن تجتنب.
- ٩/ لا أمان من الخوف إلا بعد النجاة من العقبة، وفي ذلك إشارة للعاقل إلى أن يخاف من ذلك ويخشاه ويعمل ويجتهد من أجل النجاة منه.
- ١٠/ فضل عتق الرقبة والإطعام وكون ذلك من أسباب اقتحام العقبة.

١١/ بيان أن ذوي القربى أولى بالصلة والصدقة من غيرهم، والإشارة إلى أن في ذلك زيادة أجر.

١٢/ الإشارة إلى أنه كلما كانت الحاجة إلى المعروف أكثر كان الأجر أفضل وأعظم.

١٣/ بيان أن الإيمان شرط في صحة الأعمال.

١٤/ فضل التواصي بالصبر والرحمة بالخلق، وكون من قام بذلك هم الفائزون.

١٥/ الكفر بالله وآياته سبب لعدم اقتحام العقبة، ومن ثمّ دخول النار والخلود فيها.

١٦/ شدة النار وعذابها وإغلاقها على أهلها مما يدل على دوام عذابها أعاذنا الله منها.

تفسير سورة الشمس

سورة الشمس مكية، وعدد آياتها {١٥} آية، نزلت بعد سورة القدر، ترتيبها في المصحف {٩١}، وترتيبها في النزول {٢٦}.

باب

سيأتي حديث جابر رضي الله عنه البخاري وغيره في تفسير سورة الليل وذلك بشأن أمره ﷺ لمعاذ أي يصلى بالأعلى والشمس والليل في صلاة العشاء.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاها (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَاها (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)].

قوله تعالى (والشمس وضحاها) الواو: للقسم، وضحاها: هو ضوءها

الصادر منها وقت النهار، فهذا قسم بالشمس وضياءها.

وقوله ﷻ (والقمر إذا تلاها) تلاها: أي تبعها في الخروج، وخلفها في

الإضاءة بعد غروبها، سواء كان بعدها مباشرة كما في أول الشهر أو كان

بينهما وقت كباقى أيام الشهر الأخيرة، فهذا قسم به حين ينير للناس بعد

غروب الشمس.

وقوله تعالى (والنهار إذا جلاها) جلاها: أي أظهرها جلية واضحة للعيان،

والضمير عائذ على الشمس، فهذا قسم بالنهار حين يظهر الشمس على

هيئتها.

وقوله تعالى (والليل إذا يغشاها) يغشاها: أي يغطي الشمس حين تغيب في

الآفاق.

وقوله تعالى (والسماء وما بناها) هذا قسم بالسماء ومن بناها لأن ما

موصولة بمعنى الذي، وبناها أي رفعها بغير عمد وخلقها بعد أن كانت

عدما وهو الله وحده لا شريك له.

وقوله تعالى (والأرض وما طحاها) هذا قسم بالأرض وبمن طحاها، ومعنى طحاها: بسطها ومدّها ووسّعها وجعلها مهياةً لأن ينتفع الخلق بها وفيها، وهو الله وحده لا شريك له.

وقوله تعالى (ونفس وما سواها) هذا قسم بالنفس، والنفس جاءت هنا نكرة لتفيد العموم، ولكن هل هذا العموم يشمل نفس الإنسان والحيوان أم أن المقصود نفس الإنسان وحده؟.

الظاهر من الآيات الآتية أن المراد نفس الإنسان لأنها هي المكلفة بالأوامر والنواهي كما سيأتي، مما يدل عليه من فلاح مترتب على تزكيتها أو خسارة مترتبة على عدم ذلك.

وقوله (وما سواها) ال(ما) موصولة بمعنى الذي، فيكون هذا قسم بمن سوى هذه النفس وهو الله وحده لا شريك له، ومعنى سواها: أي خلقها سوية مستقيمة مهياةً للصالح.

وقوله تعالى (فألهمها فجورها وتقواها) ألهمها: أي أرشدها وبين لها فجورها، الفجور: المعاصي، والفجور يهدي إلى النار، وتقواها: أي طاعتها وخيرها وكل ما يتقى به عذاب الله، والتقوى تهدي إلى الجنة.

فالحاصل أن الله تعالى خلق هذه النفس النفيسة سوية زكية على الفطرة لا تبديل لخلق الله، وبين لها سبيل سعادتها وسبل تعاستها، ووضح لها ما تأتي وما تذر وما يقربها منه وما يباعدها، فمن امتثل ذلك وسار على الفطرة فهو المفلح الناجح ومن أبى فذلك هو الخاسر، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله أن رسول الله ﷺ قال: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى!". قيل: ومن يأبى يا رسول الله ؟. قال: "من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى".

وهذا هو الأمر المقسم عليه في هذه الآيات الكريمات إذ قال سبحانه (قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) قد: تفيد التحقيق، ومعنى أفلح: أي نال ما يطلب ونجا مما يهرب، وزكاها: التزكية التطهير، والمعنى طهر نفسه من الذنوب ونقاها من العيوب ورفعها بالإيمان والعمل الصالح والعلم

النافع، فمن كان هذا شأنه فهو المفلح الناجح وعلى ذلك أقسم رب العباد بما مر من آيات عظيمة.

ومعنى خاب: أي خسر ولم يربح، من دساها: أي دسّى نفسه أي أخفاه وغطاها وذلك باقتراف المعاصي وهي أوساخ تغطي على النفس حتى تخفيها كما قال تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) أي طغى عليها حتى غطاها وأخفاها عملهم السيء الذي اكتسبوه.

فيالله ما أعظم قيمة هذه النفس وما أكثر من يضيعها ولا يقدر لها قدرها، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: "كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها". رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري ؓ.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أمة من الأمم السابقة لم تزك أنفسها ولم تطهرها بل دنستها بالمعاصي والكفر فاستحقّت بذلك عذاب الله في الدنيا ولعذاب الآخرة أحرى وهم لا ينصرون فقال جل شأنه (كذبت ثمود بطغواها) كذبت: أي لم تصدق رسولها ولم تؤمن بربها بل كفرت بذلك وقالوا أنّ نبيهم كذاب أشر.

وتمود: قبيلة من القبائل التي كانت تسكن شمال الجزيرة العربية، وقد مر رسول الله ﷺ بديارها لما ذهب إلى غزوة تبوك سنة تسع كما جاء في الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما نزل رسول الله ﷺ على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت تمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها تمود فعجنوا منها ونصبوا لها القدور، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: "إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم".

وقوله (بطغواها) أي بسبب طغيانها وهو مجاوزة الحد في الكفر وتكذيب رسول الله صالح عليه السلام ومخالفتهم له، وذلك حين عقروا الناقة وكفروا بالله وكذبوا بعذابه، وبين ذلك ربنا سبحانه وتعالى فقال (إذ انبعث أشقاها) معنى انبعث: قام مسرعا إلى قتل الناقة، أشقاها: أي أشقى القبيلة، واسمه قدار بن سالف، وهو من أشقى البرية كما جاء في صحيح البخاري عن عبدالله بن زمعة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة والذي عقر فقال

رسول الله ﷺ (إذ انبعث أشقاها) انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة".

وجاء عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه "ألا أحدثك بأشقى الناس". قال: بلى. قال: "رجلان: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك - يا علي - على هذا - يعني قرنه - حتى تبطل منه هذه - يعني - لحيته".

وقوله ﷺ (فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) رسول الله: هو صالح عليه السلام، وناقة الله: هي الآية التي طلبوها منه دليلا على صدق نبوته فأعطاهم الله ما طلبوا، وألزمهم بأن لها شرب يوم ولهم شرب يوم من مياههم، واستمر الحال بهم إلى ما شاء الله ثم ضاقوا بها ذرعا من شربها الماء في يومها المعلوم ومن نفور مواشيهم منها، فأرادوا عقرها فحذرهم نبيهم من ذلك، ولذا جاءت (ناقة) هنا منصوبة على التحذير، وأضيفت إلى الله من باب التشريف لها والتعظيم لشأنها، وسقياها: معطوف على الناقة، أي احذروا قطع سقياها أي قسمها من الماء.

وقوله تعالى (فكذبوه فعقروها) أي فكذبوا نبيهم صالحا عليه السلام ولم يصدقوه ولم يطيعوه، فأورث لهم ذلك عقر الناقة، وإنما نسب الفعل إليهم جميعا مع أن القائم بذلك فرد واحد منهم لأنهم تواطئوا معه وأغروه بها ورضوا بقتلها وزينوه له كما قال تعالى (فناودا صاحبهم فتعاطى فعقر). وعقرهم الناقة - مع كفرهم بالله وتكذيبهم لرسوله عليه السلام - كان هو السبب في حلول العقاب عليهم ونزول العذاب بهم وهذا ما ذكره الله سبحانه فقال (قدمم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) الدممة: هي الإهلاك باستئصال، والمعنى أطبق عليهم العذاب فأهلكوا جميعا. وربهم: هو الله الذي خلقهم وأنعم عليهم بكل النعم فلم يعرفوا حقه ولم يقدرُوا قدره ولم يخافوا عقابه، بل كذبوه وكذبوا رسوله، فأخذهم بذنبهم: أي بسببه. وقوله تعالى (فسواها) أي أنزل عليهم العذاب كلهم سواء فلم يغادر منهم أحدا، بل جاءتهم صيحة من فوقهم ورجفة من تحتهم فأهلكوا جميعا، ونجى الله نبيه صالحا عليه السلام ومن معه من المؤمنين.

وقوله سبحانه (ولا يخاف عقباها) أي ولا يخاف الله من عاقبة إهلاكهم .
ولا تبعة عليه في ذلك . كما يخاف ملوك الأرض عاقبة ما يفعلون .
وفي ذلك احتقار لهم وبيان أنهم لا قيمة لهم، وكيف يخاف الجبار القهار
المالك ملكا تاما لكل من ملك وما ملك والذي لا يخرج عن قهره أحد وهو
الحكيم في أفعاله العليم بعباده (لا يُسئل عما يفعل وهم يسئلون).

يستفاد من هذه السورة

- ١/ لله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.
- ٢/ عظمة ما أقسم الله به وفضله، وعظمة ذلك دالة على عظمة خالقها.
- ٣/ بيان أن الله تعالى قد وضح لكل نفس ما يسعدها وما يشقيها.
- ٤/ نجاح من طهر نفسه من المعاصي وفلاحه، وخسارة من دنس نفسه في المعاصي.
- ٥/ الإخبار بما حل للأمم السابقة فيه عبرة للمعتبرين.

٦/ سبب تكذيب ثمود لرسولهم هو مجاوزتهم الحد في الطغيان، وذلك لأن
الإستمرار في المعاصي يجر إلى التجرؤ على محارم الله وعدم الخوف منه

ويقلل من تقبل الإنسان للحق، ويكون سببا في طبع الله على قلب صاحبه

كما قال تعالى (بل طبع الله عليها بكفرهم قليلا ما يؤمنون).

٧/ الإسراع في المعاصي دليل على الشقاء.

٨/ شفقة رسول الله صالح عليه السلام بقبيلته، وتحذيره إياهم من قتل الناقة

ومنع سقياها خوفا عليهم من عذاب الله.

٩/ بيان أن الذنوب سبب الهلاك والعذاب.

١٠/ عظمة الله وقدرته وقهره، وبيان أنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في

السماء، وأنه لا يخشى من تبعات ما يفعل بالمذنبين.

١١/ إهانة المعاصي لصاحبها وإذلالها له وسلبها إياه ما له من قيمة،

وتعريضه لعذاب الله وسخطه.

١٢/ عناية الله بهذه النفس وتبيينه ما يصلحها وما يضرها وإرشاده إلى ما

فيه فلاحها وحثه عليه، وتبيينه ما فيه خسارتها ونهيها عنه، وفي هذا

يتجلى لطف الله بعباده ورحمته بهم.

تفسير سورة الليل

سورة الليل مكية، وعدد آياتها {٢١}، نزلت بعد سورة الأعلى، ترتيبها في المصحف {٩٢}، وترتيبها في النزول {٩}.

باب

روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: أقبل رجل بناضحين وقد جنح الليل، فوافق معاذًا يصلي، فبرك ناضحه وأقبل على معاذ، فقرأ بسورة البقرة أو النساء، فانطلق الرجل، وبلغه أن معاذًا نال منه، فأتى النبي ﷺ فشكا إليه معاذًا، فقال النبي ﷺ: "يامعاذ أفтан أنت؟ أو أفاتن أنت؟". - ثلاث مرات - "قلولا صليت بـ(سبح اسم ربك الأعلى) و(والشمس وضحاها) و(والليل إذا يغشى) فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذا الحاجة".

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣)
إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦)

فَسَنِيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَعْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩)
فَسَنِيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا
لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا
يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧)
الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا
ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)]

قوله تعالى (والليل إذا يغشى) الواو: واو القسم، ويغشى: أي يغطي الكون
بظلمته، وهو وقت السكن والاستراحة، والوقت الذي يأوي فيه كل شيء إلى
مأواه، ووقت خلو العابدين لمعبودهم ومناجاتهم له.

وقوله تعالى (والنهار إذا تجلّى) معنى تجلّى: ظهر ضوءه وانكشف به ما
كان مستورا بالليل، وهو وقت السعي والانتشار والحركة.

وقوله تعالى (وما خلق الذكر والأنثى) هذا قسم بمن خلق الذكر والأنثى
وهو الله - سبحانه وبحمده - وخلق: أي أوجد من عدم على غير مثال
سابق، والذكر والأنثى من كل شيء تعمّ الحيوانات والنباتات فضلا عن
بني الإنسان.

وقد روى البخاري في صحيحه عن إبراهيم النخعي قال: قدم أصحاب عبد الله - يعني ابن مسعود - على أبي الدرداء فطلبهم فوجدهم، فقال: أيكم يقرأ على قراءة عبد الله؟ قالوا: كلنا. قال: فأيكم أحفظ؟ فأشاروا إلى علقمة، قال: كيف سمعته يقرأ (والليل إذا يغشى). قال علقمة: (والذكر والأنثى). قال: أشهد أنني سمعت النبي ﷺ يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدونني على أن أقرأ (وما خلق الذكر والأنثى). والله لا أتابعهم.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وهكذا قرأ ذلك ابن مسعود وأبو الدرداء رضي الله عنهما ورفعاه أبو الدرداء، وأما الجمهور فقرأوا ذلك كما هو المثبت في المصحف الإمام العثماني في سائر الآفاق (وما خلق الذكر والأنثى). أهـ

ولما كان القسم بهذه المتضادات . ليل ونهار وذكر وأنثى . جاء المقسم عليه مناسباً للتضاد في المقسم به فقال جل شأنه (إن سعيكم لشتى) إنّ: للتوكيد، وسعيكم: مفرد مضاف فيفيد العموم، ومعنى السعي: الكسب والعمل أي: إن عملكم لشتى أي متفرق فمنكم البر والفاجر والصالح

والطالح والمؤمن والكافر والمطيع والعاصي، ثم ذكر جزاء كل من الصنفين فقال سبحانه (فأما من أعطى واتقى) أعطى: أي أدى الذي عليه وما أمر به، واتقى: أي حجز نفسه عن المعاصي.

وقوله تعالى (وصدق بالحسنى) الحسنى: هي الجنة كما قال تعالى في سورة يونس (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة).

وثبت أن رسول الله ﷺ فسر الحسنى بالجنة، والمعنى صدّق بها فعمل لها عملها وسعى لها سعيها بصدق ويقين وإخلاص.

وقوله تعالى (فسيسره اليسرى) نيسره: أي نسهل عليه أمره، واليسرى:

عمل الخير كما روى البخاري في صحيحه عن علي رضي الله عنه قال: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْعَرْقَدِ فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مَخْصَرَةٌ، فَكَسَّ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمَخْصَرَتِهِ ثُمَّ قَالَ: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ - وَمَا مِنْ نَفْسٍ مَنُفُوسَةٍ - إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ،

قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدْعُ الْعَمَلَ، فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ

الشَّقَاءِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ؟. قَالَ: "أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ
لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ ثُمَّ قَرَأَ (فَأَمَّا
مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى) الْآيَةَ.

وقوله سبحانه (وأما من بخل واستغنى) البخل: هو عدم إنفاق المال في
حقه، والمعنى: لم يؤد حق الله في ماله فلم يتركه ولم ينفق ويتصدق منه.
واستغنى: أي زهد في الله فلم يعبد، وعن ما عند الله فلم يطلبه، بل قصر
همه على الدنيا وجمعها، وحسب أن ماله نافعه.

وقوله سبحانه (وكذب بالحسنى) فلم يصدق بها ولم يعمل لها عملها، بل
إنه غير مقتنع بحقيقتها، فهذا يكون جزاءه سلوك طرق الشر والبعد عن
الخير، لأن الحسنه تورث الحسنه، والسيئة تورث مثلها، وما طبع على
قلوب من طبع إلا لأنهم أركسوها في المعاصي ودنسوها بالذنوب، ف(ران
على قلوبهم ما كانوا يكسبون) (وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم
يظلمون) ولذا قال الله سبحانه وتعالى (فسنيسره للعسرى) أي لعمل الشر

والمعاصي بحيث يسهل عليه ارتكابها، بينما الطاعة والإيمان تعسر عليه وتصعب فلا يوفق لها ولا يهتدي لها (والله لا يهدي القوم الظالمين).

وقوله تعالى (وما يغني عنه ماله إذا تردى) يغني: أي يدفع عنه من عذاب الله، وماله: هو الذي ألهاه عن الطاعة واستغنى به عن الله وعبادته، وتردى: أي سقط، وسواء كان معنى سقط: مات، أو معناها: سقط في النار وبئس القرار، فإنهما أمران متلازمان، وفي هذا توبيخ لمن أشغله ماله عن عبادة الله أنه لا ينفعه ماله الذي استغنى به إذا نزل به الموت أو العذاب.

ثم بيّن سبحانه أن الهدى من عنده والتوفيق بيده وهو أعلم بالمهتدين فقال ﴿إِن عَلَيْنَا لِلْهُدَى﴾ أي: إنّ علينا تبين طريق الخير وطرق الشر، نبين طريق الخير لاتباعها وطرق الشر لاجتنابها، فنبينها وندل عليها دلالة توضحها لسالكها، ولن يهلك على الله إلا هالك.

وقوله سبحانه (وإن لنا للآخرة والأولى) جاء الخطاب بلفظ الجمع - مع أن المالك لذلك هو الله وحده - للتعظيم والتوكيد، والمعنى: أن لي ملك الآخرة وهي يوم القيامة وما بعده، والأولى: وهي الدنيا بما فيها، أي أملكهما بما

ففيهما ملكا تاما مطلقا، والمالك يكون عالما بملوكه وعارفا به ولذا يتصرف بما شاء - سبحانه - في خلقه حسب علمه بأحوالهم وما هم عالمون، وأفعاله كلها عدل وحكمة وهو الحكم العدل أحكم الحاكمين ولا يظلم ربك أحدا، فهدى من شاء بفضله، وضل من شاء بحكمته وعدله، وهو أعلم بعباده منهم بهم وهو العليم الحكيم.

وقوله جل شأنه (فأنذرتكم نارا تلظى) أنذرتكم: أي حذرتكم منها، ومعنى تلظى: أي تتوهج وتستعر وتتقد، والمعنى: أذكركم منها أن تسلكوا سبيلها. وقد روى الإمام أحمد رحمه الله في مسنده عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: "أنذرتكم النار، أنذرتكم النار، أنذرتكم النار . حتى لو أن رجلا كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا . قال: حتى وقعت خميسة كانت على عاتقه عند رجله".

ثم أخبر سبحانه عن أهلها ووارديها فقال (لا يصلاحها إلا الأشقى) يصلاحها: أي يدخلها دخولا كاملا تحيط به من كل جانب، والأشقى: هو كثير الشقاء فلا أشقى منه.

ثم بين ﷺ صفات هذا الشقي فقال (الذي كذب وتولى) كذب بالآخرة وأهوالها والجنة ونعيمها والنار وعذابها، وتولى أي أدبر ولم يعمل، تولى عن الطاعة والعبادة، فهو مكذب بالأخبار متول عن الأوامر فاعل للمعاصي فاستحق دخول النار والخلود فيها وأن يكون أشقى الأشقياء، لقبيح فعله وشنيع جرمه.

ثم أخبر سبحانه عن الذين يبعدون عنها ولا تصيبهم فقال ﷺ (وسيجنبها الأتقى) يجنبها: أي يبعد عنها، بحيث يكون هو في جانب وهي في جانب آخر، والأتقى: هو المبالغ في تقوى الله، فهو متق لربه عامل بأمره منته عن نهيه مصدق بوعدده.

وقوله تعالى (الذي يؤتي ماله يتزكى) معنى يتزكى: أي يتطهر فهو ينفق ماله تطهيرا لنفسه من الذنوب وتزكية لها من العيوب، خالصا لوجه ربه مبتغيا الأجر من مولاه الكريم.

ومن صفاته أيضا ما ذكره سبحانه بقوله (وما لأحد عنده من نعمة تجزى) أي وليس إنفاقه للمال مكافأة لمن أسدى إليه معروفا فهو يجازيه، ولكنه ما

ينفق ماله (إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) أي خالصا لوجه الله الكريم، الذي هو أعلى مطلوب وأجل من عمل لأجله، ولذا جازاه ربه بأعظم الجزاء فقال ﷻ في شأنه (ولسوف يرضى) أي بما يعطيه الله من ثواب وإكرام جزاء أفعاله الحسنة في الدنيا، ولأنه أَرْضَى الله فأَرْضَاهُ الله، فياسعد حاله ويحسن مآله، نسأل الله الكريم من فضله.

يستفاد من هذه السورة

- ١/ الله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.
- ٢/ قدرة الله على خلق الأشياء المختلفة دون مشقة عليه ﷻ.
- ٣/ الإشارة إلى أن الليل زمن راحة وسكن، والنهار زمن حركة وعمل.
- ٤/ أفعال الناس وأعمالهم مختلفة متفرقة بين خير وشر.
- ٥/ فضل الإنفاق في سبيل الله، وفضل التقوى وكونهما سببا لدخول الجنة.
- ٦/ ذم البخل والاستغناء بالنفس العاجزة عن الله سبحانه وتعالى، والتكذيب بالجنة سبب لدخول النار، ومن أنكر شيئا حرمه.

٧/ بيان أن المال لا يغني شيئاً، لا من الموت ولا مما بعده من عذاب الله وأمره.

٨/ بيان الله لطريق الخير والشر.

٩/ ملك الله الشامل للدنيا والآخرة وما فيهما.

١٠/ رحمة الله بخلقه المتجلية في تحذيرهم من النار وبيان حرارتها وعظيم لظاها.

١١/ شقاء من دخل النار لا يوصف ولا يقاس.

١٢/ البعد عن الطاعة وعدم التصديق بآيات الله سبب لدخول النار والخلود فيها.

١٣/ بعد المتقين من النار ونجاتهم منها.

١٤/ فضل إنفاق المال بإخلاص، وكونه سبباً للنجاة من النار.

١٥/ إثبات صفة الوجه لله - كما ينبغي لجلال وجهه - وكذا إثبات صفة العلو له - سبحانه - علو ذات وعلو صفات.

١٦/ رضا المؤمن بجزاء الله له مشعر بجزيل ذلك الجزاء وسخاءه.

تفسير سورة الضحى

سورة الضحى مكية، وعدد آياتها {١٢} آية، نزلت بعد سورة الفجر، ترتيبها في المصحف {٩٣}، وترتيبها في النزول {١١}.

سبب النزول

روى البخاري في صحيحه عن جندب بن سفيان رضي الله عنه قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثا فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قريبك منذ ليلتين أو ثلاثا. فأنزل الله ﻋﻠﻴﻚ (والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى)

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)].

قوله ﷺ (والضحى) الضحى: هو وقت ارتفاع الشمس وانتشار الضياء

ونشاط الحركة، أقسم به تعالى كما أقسم فقال (والليل إذا سجى) معنى

سجى: أظلم وادلهم وسكن، فقد أقسم تعالى هنا بالنهار وضوءه والليل وظلمته.

وجواب القسم قوله ﷺ (ما ودعك ربك وما قلى) ودعك: أي تركك من التوديع، يقال: ودع المسافر المكان إذا ذهب عنه وتركه، والمعنى: ما تركك ربك منذ اختارك للنبوّة، ومعنى قلى: أبغض، أي وما أبغضك منذ أحبك.

فهذه حال الرسول ﷺ مع ربه في الدنيا، وحاله معه في الآخرة أفضل وأكمل وقد بين ذلك . سبحانه . فقال (وللآخرة خير لك من الأولى) أي وللدار الآخرة خير لك وأفضل من هذه الدار الأولى التي هي دار الدنيا، وذلك لأن الآخرة هي الحيوان المبين وأما الدنيا فهي متاع الغرور، لا سيما وأن الله قد وعد نبيه ﷺ بالعطاء الكثير والخير الوفير في الآخرة فقال ﷺ (ولسوف يعطيك ربك فترضى) أي ولسوف يعطيك ربك من خير الدنيا والآخرة ما يرضيك وتطمئن به، من نصر لدينك وتمكين له وتكثير لأتباعك وتفضيل لأمتك في الدنيا والآخرة، وما سيحصل لك أيضا من الإكرام

بالكوثر والشفاعة، وأنك أول من يدخل الجنة ويستفتحها، وغير ذلك من التفضيل وحسن المآب.

واللام في (ولآخرة) وفي (ولسوف) للتأكيد، وليست للقسم.

وقوله تعالى (ألم يجدك يتيما فأوى) هذا امتنان من الله على نبيه ﷺ بهذه النعم العظيمة التي حصلت له بفضل الله فيقول . سبحانه . ألم تكن يتيما مات أبوك وأمك حبلى بك، وماتت أمك ولك من العمر ست سنين، وقد تركك أبوك بلا مال، ولكن بفضل الله آواك ونصرتك، فكفلك جدك ثم عمك، ثم لما آذاك قومك وأخرجوك نصرك بالأنصار، فهذه من أفضل النعم الدنيوية التي حصلت للرسول ﷺ بفضل الله وعنايته به.

وقوله سبحانه (ووجدك ضالا فهدى) الضال: هو التائه الذي لم يهتد إلى الطريق الصحيحة، والهداية التوفيق لها ومعرفتها وسلوكها، فهنا يمتن الله على نبيه ﷺ بأنه كان غير عارف بالطريق الحق ولا مهتد لها، ولكن وفقه الله وهداه وأرشده وسدده لسلوكها، وأنعم عليه بالوحي والنبوة والحصول على الخلق العظيم، كل ذلك بفضل الله ورحمته ونعمته ومنته كما قال سبحانه

(وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم).

وقوله ﷺ (ووجدك عائلا فأغنى) العائل: هو الفقير الذي لا مال له، من قولهم عال فهو عائل وعيلة، ومنه قوله تعالى (وإن خفتم عيلة فسيغنيكم الله من فضله إن شاء) ي إن خفتم فقرا.

والمعنى: أن من فضل الله عليك أن وجدك فقيرا بلا مال، فأنعم عليك بالمال وجبيت إليك الكنوز فأنفقتها في سبيل الله، وجعلك أغنى الخلق بربك، وجعل غناك في نفسك وهذا هو أغنى الغنى كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ".

وقوله تعالى (فأما اليتيم فلا تقهر) اليتيم: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه، والقهر: هو الاستدلال والانتهاز والإهانة، والمعنى: لا تستذل اليتيم ولا تنتهره ولا تلمه، وكما كنت يتيما فأواك الله فكذلك آو اليتامى وانصرهم، ولذا

وجه الرسول ﷺ إلى الإحسان إلى اليتامى، وأخبر أن من فعل ذلك نال درجة عالية في الجنة فقد جاء في الصحيحين عن سهل بن سعدٍ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى".

وقوله تعالى (وَأما السائل فلا تنهر) السائل: هو طالب العلم أو طالب المال ذو الحاجة، والانتهاز: الرد بعنف وزجر، فيأمر الله نبيه الكريم ﷺ - والأمر له ولأُمته . أن يلين مع سائله، وأن يقل لهم قولاً لنا ولا يردهم رداً عنيفاً.

وقوله سبحانه (وَأما بنعمة ربك فحدث) نعمة ربك: المقصود بها جميع النعم، لأن المفرد إذا أضيف أفاد العموم، ومعنى حدث: أذع بها واذكرها أي أعلن بها وتحدث بها . لكن ليس على سبيل التفاخر . ليكون ذلك مدعاة لشكرها.

يستفاد من هذه السورة

- ١/ لله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.
- ٢/ مكانة الرسول ﷺ العالية ومنزلته السامية عند ربه.
- ٣/ محبة الله لعبدته ونبيه محمد ﷺ واصطفاءه له من بين خلقه.
- ٤/ تكريم الرسول ﷺ في الدنيا والآخرة، وبيان أن ما أعد له في الآخرة أفضل.
- ٥/ وعد الله لنبيه ﷺ بتحقيق مناه وإعطاء ما يتمناه.
- ٦/ نعم الله على نبيه في إيواءه في يثمه وهدايته للنبوة والإيمان وإغناؤه بعد فقره.
- ٧/ الوصية بالأيتام والأمر بالإحسان إليهم وكذا السائلين المحتاجين والإرشاد إلى أن يقابلوا بالقول اللين الحسن، والحث على العطف عليهم ومواساتهم.
- ٨/ الأمر بالتحدث بنعم الله وشكرها وعرفانها لله رب العالمين.

تفسير سورة الشرح

سورة الشرح مكية، عدد آياتها {٨} آيات، نزلت بعد سورة الضحى، ترتيبها في المصحف {٩٤}، وترتيبها في النزول {١٢}.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)].

قوله ﷻ (ألم نشرح لك صدرك) الشرح: التوسعة، وإذا أضيف للصدر فمعناه: البسط والمعنى: هنا ألم نوسع لك صدرك للإسلام وتعاليمه الإلهية ولحمل الدين والدعوة.

وقوله تعالى (ووضعنا عنك وزرك) الوضع: هو الحط، والوزر: هو الذنب.

قال البخاري رحمه الله: قال مجاهد: وزرك في الجاهلية.

والمعنى: أن الله ﷻ قد غفر لرسوله ﷺ ما كان قد ألم به في الجاهلية من خطأ، وهذا كقوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر).

وقوله تعالى (الذي أنقض ظهرك) هذا تمام الكلام عن الوزر، ومعنى أنقض: أي أثقل ظهرك بحمله، وانظر كيف عبر . سبحانه . بوضع الوزر عن ظهره ﷺ مبالغة في انتقاء الذنوب عنه ﷺ.

وفي قوله تعالى (أنقض) بمعنى أثقل ما يشعر بأن للذنوب ثقلا على المؤمن ينوء به ولا يخففه إلا التوبة وحطه عنه.

وقوله جل شأنه (ورفعنا لك ذكرك) أي أعليناه، وقد قرنه الله باسمه في الشهادتين ونحو ذلك، قال مجاهد في تفسير ذلك: لا أذكر إلا ذكرت معي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

وقد قال حسان بن ثابت ﷺ:

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
ومن إعلاء ذكره ﷺ أن ذكر في الأولين، فهو دعوة إبراهيم وبشارة عيسى
عليهما السلام، وقد أخذ الله على الأنبياء العهد والميثاق أن يؤمنوا به وأن
يأمرؤا أممهم بالإيمان به كما قال الله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما
آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به

ولتتصرنه، قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا: أقررنا. قال:
فاشهدوا، وأنا معكم من الشاهدين * فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم
الفاسقون).

وقوله سبحانه (فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا) هذا تأكيد منه
سبحانه وتعالى أن مع كل شدة فرجا ومع كل ضيق مخرجا، وقد جاء في
تعليم النبي ﷺ لا بن عمه عبدالله بن العباس رضي الله عنهما "واعلم أن
الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا".

فالواجب على الداعية إلى الله خصوصا . وكل المسلمين عموما . الصبر
عل المكاره في سبيل الله وتحمل ذلك، وليبشروا بقرب الفرج وحلول اليسر
وبلوغ النصر والله مع المتقين.

قال ابن سعدي رحمه الله: وتعريف العسر في الآيتين يدل على أنه واحد،
وتتكير اليسر يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين، وفي تعريفه . أي
العسر . بالآلف واللام الدالة على الاستغراق والعموم ما يدل على أن كل
عسر وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ فإنه في آخره التيسير ملازم له. أه

وقوله جل شأنه (فإذا فرغت فانصب) الفراغ: هو الإنتهاء، والنصب: هو التعب والإعياء، والمعنى إذا انتهيت من أمورك الدنيوية فاتعب جسمك في عبادتك لربك شكرا له على نعمه وقيامه بحقه عليك . سبحانه . واطلب منه الرضا والعون والتوفيق والرشاد، ولذا قال جل علا (والى ربك فارغب) والرغبة: هي السؤال، يقال رغبت إلى فلان أي سألته، والمعنى: اسأل الله قضاء حوائجك وأن يوفقك لما فيه صلاحك في الدنيا والآخرة، واجعل نيتك ومقصداك إليه سبحانه وتعالى فإنه . وحده . هو الذي يملك خير الدنيا وخير الآخرة والتوفيق لذلك، جعلنا الله من العابدين له حق عبادته، الشاكرين لنعمه، الراغبين إليه، المؤمنين به، المتوكلين عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

يستفاد من هذه السورة

١/ فضل الله العظيم على رسوله الكريم بشرح صدره وحط وزره ورفع ذكره
وغير ذلك من أنعم سبحانه عليه، وفيه إشارة إلى علو منزلته ورفعته مكانته
ﷺ عند ربه.

٢/ الإشارة إلى أن الإيمان من أسباب شرح الصدر ورحابته، وإلى ثقل
الذنب وفضاعته.

٣/ جعل الله مع كل عسر يسرا ومع كل كرب فرجا ووعد به بذلك والله لا
يخلف الميعاد.

٤/ الوصية بالمداومة على الطاعة والصبر على التعب في العبادة.

٥/ القصد والتوجه إلى الله لجلب النفع ودفع الضرر ولكسب الخير في الدنيا
والآخرة.

تفسير سورة التين

سورة التين مكية، عدد آياتها {٨} آيات، نزلت بعد سورة البروج، ترتيبها في المصحف {٩٥}، وترتيبها في النزول {٢٨}.

باب

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في العشاء (والتين والزيتون) وما سمعت أحدا أحسن صوتا منه ولا قراءة".

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨)].

قوله تعالى (والتين والزيتون) يقسم تعالى بهاتين الشجرتين العظيمتين المعروفتين، قال البخاري: قال مجاهد: هو التين الذي يأكل الناس.

ولعل الحكمة في القسم بهما دون ما سواهما - والله أعلم - أن مكان

انتشارهما أرض الشام أرض المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام.

وقوله تعالى (وطور سينين) الطور: هو الجبل الذي كلم الله موسى عليه،

وسينين: هو المكان الذي يقع فيه الجبل، يقسم الله تعالى به في هذه الآية

لأنه محل نبوة موسى عليه السلام، كما أقسم بمكة البيت الحرام محل نبوة

محمد ﷺ فقال تعالى (وهذا البلد الأمين) ومعنى الأمين: الآمن.

والحاصل: أن الله تعالى أقسم بهذه المواطن الثلاث التي هي مواطن ثلاثة

من الأنبياء هم من أولي العزم من الرسل أفضل الأنبياء وأشرفهم، أقسم بها

- تعالى - على خلق الإنسان فقال (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)

لقد: تفيد التحقيق، والخلق: هو الإيجاد من عدم، وإنما ذكر هنا بلفظ الجمع

. مع أن الخالق هو الله وحده لا شريك له . للتعظيم والتوكيد.

وقوله تعالى (في أحسن تقويم) أي في أحسن خَلْقٍ وفي أحسن صورة

وشكل، متناسب الأعضاء سوي القامة حسن الخِلقَة.

وقوله ﷻ (ثم رددناه أسفل سافلين) أي ثم رددنا من لم يطع الله تعالى ويتبع الرسل إلى النار في أسفل سافلين، وهذا كقوله تعالى (وقال الذين في النار ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين).

وقوله تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي لن يردوا إلى ذلك المصير، والإيمان: هو التصديق والإقرار بالله وشرعه، والصالحات: كل عمل يحبه الله ويرضاه فهو صالح، وعمله: فعله، فمن آمن بالله وعمل صالحا سلم من النار ولم يكن من الأسفلين، وإنما مصيره وجزاءه ما بينه الله ﷻ بقوله (فلهم أجر غير ممنون) الأجر: هو الثواب والجزاء على العمل الصالح والإيمان، ومعنى: غير ممنون أي غير مقطوع أي دائم لا ينقطع ولا يمتنع، لا يحول ولا يزول ولا يحولون عنه ولا يزولون في جنات عدن خالدين فيها أبدا.

وقوله تعالى (فما يكذبك بعد بالدين) هذا خطاب لابن آدم، والمعنى: ما هو المبرر لتكذيبك . أيها المكذب بيوم الدين . بعد أن ظهرت الأدلة واضحة

جلية، وقد علمت أن الذي خلقك وسواك وعدلك هو الله الذي يحييك بعد موتك، وإعادة خلقك عليه أهون من بدأها فما الذي يجعلك تتشكك في إعادته لك بعد موتك؟.

والمقصود بالدين: يوم القيامة لأن فيه الجزاء والحساب ولذا قال الله تعالى (أليس الله بأحكم الحاكمين) ومن حكمته أن يعيد الخلق بعد الموت لمجازاتهم بما عملوا في الدنيا ولينتصر للمظلوم من الظالم، وليجازي المحسن بالإحسان والعاصي بالنيران ولا يظلم ربك أحداً.

يستفاد من هذه السورة

- ١/ الله - سبحانه وتعالى - أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.
- ٢/ شرف وفضل هذه الأماكن الثلاثة التي أقسم الله بها.
- ٣/ حسن خلق الإنسان وجماله، وكل خلق الله حسن.
- ٤/ الكفر والفسوق والعصيان سبب لحط درجة الإنسان وهوانه ورده إلى أسفل سافلين في الدنيا والآخرة.

٥/ فضل الإيمان والعمل الصالح وكونهما يرفعان صاحبهما في الدنيا وفي الآخرة.

٦/ بيان أن ثواب الآخرة لا ينقطع ولا ينتهي.

٧/ ليس للكافر مبرر لكفره بعد وضوح الأدلة وإقامة الحجة عليه.

٨/ الله أحكم الحاكمين وأعدلهم سبحانه وتعالى.

تفسير سورة العلق

سورة العلق مكية، وهي أول ما نزل من القرآن الكريم الخمس الأول منها، والبقية نزلت بعد ذلك في مكة أيضا، وعدد آياتها {١٩} آية، وترتيبها في المصحف {٩٦}، وترتيبها في النزول الأولى.

باب

روى البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبّد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقاري. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقاري. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقاري. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: (اقرأ باسم ربك الذي خلق

* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ). فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
يَرْجِفُ فُوَادَهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ حُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: زَمِّلُونِي
زَمِّلُونِي. فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ فَقَالَ لِحَدِيجَةَ - وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ - لَقَدْ
خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي. فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ
لَنَصِلَ الرَّحِمَ وَتَحْمِلَ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى
نَوَائِبِ الْحَقِّ. فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ بْنِ أَسَدِ بْنِ
عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ. وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَتَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ
الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ
شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ . فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ.
فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى. فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى،
فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا
جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوْ مُخْرِجِي
هُمْ. قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي
يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْسَبْ وَرَقَةَ أَنْ نُؤْفَى وَقَفَرَ الْوَحْيُ.

سبب النزول

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟. قَالَ فَقِيلَ: نَعَمْ. فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ. قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي. رَعِمَ لِبَطْأَ عَلَى رَقَبَتِهِ. قَالَ: فَمَا فَجَّحْتُهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَيَبْقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟. فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخُنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنَحَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْتَطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا". قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ لَا نَذْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ شَيْءٍ بَلَغَهُ (كَلَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى). يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تَطِعُهُ).

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدا يصلي عند الكعبة لأتّينه حتى أطأ على عنقه. فقال رسول الله ﷺ "لئن فعل لأخذته الملائكة عيانا".

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يصلي، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟. فانصرف النبي ﷺ فزيره، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني. فأنزل الله (فليدع ناديه * سندع الزبانية) فقال ابن عباس: فوالله لو دعا نادية لأخذته زبانية الله.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ

(١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنَ بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩).

قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق) أي اقرأ ما أنزل عليك من القرآن وما أوحى إليك من الفرقان، مبتدءاً قراءتك باسم الله الذي هو ربك ورب كل شيء فهو الخالق لعموم الخلق، والخلق: هو الإيجاد من عدم على غير مثال سابق.

وإنما أمر بالابتداء باسم الله في القراءة رجاء بركتها وتقديم لاسم الله على ما سواه من الأسماء.

وقوله تعالى (خلق الإنسان من علق) هذا تخصيص للإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات تشريفاً له وتكريماً، والمعنى: إن الله ابتداءً خلق الإنسان من علق: وهو الدم الجامد، وهذا هو الطور الثاني من أطواره إذ أوله سلالة من ماء مهين وثانيه هذه العلقة الجامدة وأما أصله فمن تراب، وفي هذا تنبيه على قدرته عَلَّاهُ على إنشاء هذا الخلق مرة أخرى، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجعون.

وفي ذلك إشارة إلى أن الذي خلق لا بد أن يدبر ولن يترك ما خلق عبثاً هملاً بلا أوامر ولا نواهي ترشده إلى ما ينفعه وتردعه عما يضره، وذلك بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام ومنهم نبينا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم الذي أنزل عليه القرآن العظيم وأول آياته هذه الآيات الكريمات الحاويات لمعان جليلة نفعا الله بها وكافة المسلمين.

وقوله تعالى (اقرأ وربك الأكرم) أي استمر في ما أمرتك به من القراءة، وربك الأكرم: الذي فاق كرمه كل كرم وزاد جوده على كل جود وظهر فضله على كل فضل فلا مكافئ له ولا مقارب، ومن كانت هذه صفته فإنه سيثيب الثواب الأوفى من أطاع نبيه واتبع شرعه، وسيعين وييسر من لزم ما أمره به لجوده وكرمه.

وقوله تعالى (الذي علم بالقلم) هذا إخبار عن الرب الكريم - ﷻ - فهو الذي أرشد الإنسان للكتابة بالقلم، وجعل القلم وسيلة للعلم وهذا من كرمه ﷻ.

وقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "إن أول شيء خلقه الله تعالى القلم، وأمره أن يكتب كل شيء يكون". رواه البيهقي.

وقوله تعالى (علم الإنسان ما لم يعلم) هذا كقوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) فالإنسان جاهل في أصله ولولا تعليم الله له وخلق له أدوات العلم والتعلم لما استطاع أن يعلم شيئاً كما قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) فالإنسان حين يولد من بطن أمه يكون لا علم عنده بشيء، لكن يسّر الله له أسباب العلم التي بها يحصل عليه، فالذي علم آدم الأسماء هو الذي علم محمداً ﷺ - النبي الأمي - هذا العلم العظيم الذي لا تزال البرية تغرف من بحره وتستضيء بنوره إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقوله تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى) كلا: قيل أنها للردع والزجر، وقيل: أنها للاستفتاح، ومعنى يطغى: أي يتجاوز الحد في العصيان، والمعنى: أن الإنسان ذو فرح وبطر وأشر إذا رأى أن عنده ما لا أو عيالا أو جاهاً، يفرح بذلك ويظن أنه أصبح غنياً لن يحتاج كما فعل

قارون ومن سار على نهجه، وهذا هو الواقع في قليلي الإيمان والعقل لذا تهدهم تعالى وتوعدهم فقال (إن إلى ربك الرجعى) أي أن المرجع إلى الله والمصير إليه وسيحاسب هذا البطر الأشر على ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وهذا كقوله تعالى (إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم).

وقوله تعالى (أرأيت الذي ينهى * عبدا إذا صلى) تقدم أن أبا جهل لعنه الله نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة في الحرم فأنزل الله هذه الآيات التي فيها تعجب من هذا الطاغي الذي ينهى العبد أن يعبد إلهه الذي أوجده من عدم وشفاه من سقم وأسبغ عليه وافر النعم، ينهى عن عبادة الله الذي لا إله إلا هو ويأمر بعبادة الأوثان والأصنام ويدافع عنها ويحارب ويوالي ويبعادي من أجلها، ولذا قال الله تعالى (أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى) أي أرأيت أيها الناهي عن الصلاة إن كان هذا الذي تنهاه على علم وهدى ما ظنك بنهيك له هذا؟

وما ظنك إن كان يأمر بتقوى الله وأنت تنهاه عن ذلك؟

هل يحسن نهى من هذا حاله؟!.

الجواب عند كل عاقل: لا يحسن نهيه، بل إن ناهيه يستحق أن يُنهى.
وقوله تعالى (أرأيت إن كذب وتولى * ألم يعلم بأن الله يرى) هذا تعجب من حال هذا الأشر البطر الطاغية الذي أعرض عن عبادة الله ونهى غيره عنها وصد من آمن بالله عن سبيل الله وآذاهم، يقول الله عنه (ألم يعلم بأن الله يرى) أي: ألم يعلم علما يقينا يورث له خشية الله والخوف منه، علما به يوقن أن الله يراه ويعلم أقواله وأفعاله وصدده عن سبيله وأنه سيجازيه على أفعاله تلك، أي أما يعلم كل ذلك فلو أنه علم ذلك علم اليقين لأورث له ذلك العلم خشية الله رب العالمين، ولسارع بنفسه في عبادة الله ونصرة من عبد الله، لا أن يسارع في الصد عنها ومحاربة من قام بها، ثم تهدده تعالى وتوعده فقال (كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية) كلا: ردع وزجر لهذا الطاغى، لئن لم ينته: أي عن صده عن عبادة الله، لنسفعا: السفع هو القبض على الشيء والجذب له بعنف وشدة، والناصية: هي مقدم شعر الرأس، والمعنى: أن هذا الطاغية إن لم ينته عن أفعاله لنأخذنه بناصره بشدة ولننذفه في النار بعنف وقوة، وهذا كقوله تعالى (يعرف المجرمون

بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام) وكقوله تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا).

وقوله تعالى (ناصية كاذبة خاطئة) هذا وصف لناصية ذلك الباغي الأثيم وهو وصف له، وذلك من باب إطلاق البعض وإرادة الكل فإطلاق الناصية يراد به صاحبها، وإنما جاء ذكر الناصية لأنها أشد نكارة على صاحبها ونكالا به، إذ الصدق يرفع الرأس والكذب ينكسه ذلا وخزيا، فكان التعبير بها هنا أنسب من التعبير باليد أو بغيرها.

وقوله تعالى (كاذبة) أي: في أقوالها، وخاطئة في أفعالها، والخاطئ: هو الذي يأتي بالذنب متعمدا، بخلاف المخطئ إذ هو الذي يأتي بالذنب من غير قصد ولا عمد.

والحاصل: أن هذا الأثيم يفترى الكذب بأقواله ويعمل الإثم بأفعاله ويصد عن طاعة الله وعبادته، ومع ذلك يفتخر بناديه ويعتز بهم، ولذا تهدده الله وتوعده وبين زيف قوله وسراب تهديده فقال تعالى (فليدع ناديه) أي: فليناد قومه وعشيرته وأهل ناديه ليعينوه على الصد عن سبيل الله، ولينظر هل

ينفعوه، وهل يثبتوا معه أمام ملائكة الله الشداد الغلاظ الذين أشار الله تعالى إليهم بقوله (سندع الزبانية) الزبانية: في كلام العرب تطلق على الشرط. والمعنى: سندع الملائكة الموكلين بالعذاب . خزنة النار . ليأخذوا هذا الأثيم إلى العذاب الأليم، أولئك الملائكة الذين من صفاتهم (أنهم غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون). فلينفعه عند ذلك أهله وعشيرته وجمعه الذين كان يفتخر بهم في الدنيا ويزعم أنهم سينصرونه أو أنهم مغنون عنه من عذاب الله من شيء.

وقوله تعالى (كلا لا تطعه) يعني: يا أيها النبي لا تطع هذا الأثيم ولا تخش منه فإن الله حافظك منه وناصرك عليه، لا تطعه في الكف عن عبادة الله وعن الصلاة بل داوم عليها وحافظ وصل حيث شئت، فإنه لا يستطيع أن يضرك بشيء والله يعصمك من الناس، وفي هذا تحد عظيم لهذا المجرم الأثيم وبيان لعجزه، وأنه أضعف من أن يعمل شيئا وأحق من أن يلحق ضررا برسول الله ﷺ.

وقوله تعالى (واسجد واقترب) أسجد: أي صل، وهذا كقوله تعالى (يامريم اسجدي لربك واركعي مع الراكعين) أطلق البعض وأراد به الكل والمعنى: اسجد لربك وصل له واعبده واقترب منه بالعبادة والطاعة وكثرة السجود كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثرُوا من الدعاء".

وهذا يدل على عظم الصلاة وأهميتها حيث وُجّه الرسول ﷺ إليها من أول الأمر.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في (إذا السماء انشقت) و(اقرأ باسم ربك الذي خلق).

يستفاد من هذه السورة

١/ رحمة الله بهذه الأمة في إنزال الوحي بالقرآن إليها لينير لهم الطريق.

٢/ حث الإسلام على القراءة والتعلم، والإشارة إلى تهيئة أسبابه للمتعلمين.

٣/ إستحباب بداية القراءة وكل عمل ببسم الله.

٤/ الله هو الخالق لجميع المخلوقات لا أحد سواه ولا شريك له منها.

- ٥/ ابتداء خلق الإنسان من علق، وتشريفه على سائر المخلوقات.
- ٦/ كرم الله وسعته وفضله على الناس، وتيسيره أسباب التعلم لهم.
- ٧/ القلم وسيلة التعلم، والكتابة قيد العلوم من الضياع.
- ٨/ لولا فضل الله على الإنسان ما علم شيئاً.
- ٩/ الإخبار عن ضعف الإنسان واغتراره بالدنيا وأنه ينبهر بزخرفها وتخدعه الأموال فيغتر ويبطر، وفي ذلك تحذير من هذا العمل.
- ١٠/ بيان أن الإنسان لن يستغني عن الله والإشارة إلى ذلك من قوله (أن رآه) فهو يرى أنه استغنى، وهو في الحقيقة غير مستغن عن ربه.
- ١١/ إثبات الرجوع إلى الله تعالى، وذكر أن المصير إليه بلا شك ولا ريب.
- ١٢/ التعجب من حال الغاوين وصدهم عن عبادة الله، وبيان أنهم على الباطل ويصدون عن الحق.
- ١٣/ التهديد والوعيد لمن صد عن سبيل الله، وكون ذلك من أقبح الأفعال.
- ١٤/ غفلة الكافر والعاصي وجهله بربه، وذكر أن الله مطلع على أفعاله وأقواله.

١٥/ بيان شدة العذاب الذي أعده الله لأبي جهل وأضرابه.

١٦/ بيان أن العشائر والجنود والقبائل والنوادي لا تتفع من أمر الله ولا ترده.

١٧/ وصية الله لعباده بالثبات على العبادة وبكثرة السجود والاقتراب من الله، وبعدم الاكتراث بنهي الظلمة والطغاة وبصدهم أولئك العابدين عن العبادة.

١٨/ كون العبادة قرية من الله، والسجود يقرب من المعبود، وفي ذلك حث على الإكثار منه.

تفسير سورة القدر

سورة القدر مكية، وعدد آياتها خمس آيات، نزلت بعد سور عبس، ترتيبها في المصحف {٩٧}، وترتيبها في النزول {٢٥}.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥).

قوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) الضمير عائد على القرآن الكريم.

وقوله تعالى (أنزلناه) خرج مخرج الجمع والمنزل هو الله وحده لأن العرب تؤكد فعل الواحد فتجعله بلفظ الجمع ليكون أثبت وأكد.

والحاصل أن الله تعالى يخبرنا أنه أنزل القرآن الكريم في ليلة القدر، وهي الليلة المباركة المذكورة في سورة الدخان في قوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) وهي إحدى ليالي شهر رمضان المبارك في الوتر من العشر الأواخر منه، وأرجى ليالي العشر لها ليلة السابع والعشرين كما دلت على

ذلك الأحاديث الصحيحة، وكما قال تعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن).

قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم نزل منجما حسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ.

وسميت ليلة القدر بذلك لأن لها قدرا وقيمة وشرفا على ما سواها من الليالي، وشرفها لنزول القرآن فيها وبما خصها الله تعالى من سائر المزايا، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: "من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه".

وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال - لما حضر رمضان - "قد جاءكم شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم". رواه أحمد والنسائي والبيهقي.

وكذا سميت بليلة القدر لأن فيها يقدر ما يكون في العام من أرزاق وآجال ومقادير قدرية وذلك كما في قوله تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم).

وقوله تعالى (وما أدراك ما ليلة القدر) أي وما تدري ما شأن وعظمة وقيمة ومقدار هذه الليلة العظيمة فإن لها شأنًا عظيمًا ومقدارًا شريفًا، ثم بين ذلك الشرف والمقدار سبحانه وتعالى فقال (ليلة القدر خير من ألف شهر) أي العمل فيها يعادل ويزيد على العمل في ألف شهر ليس فيهن ليلة القدر، والعمل القليل قد يفضل على العمل الكثير باعتبار الزمان والمكان، والله يخص ما شاء بما شاء وهذا من مننه ونعمه على هذه الأمة الضعيفة أن رزقها بتلك الليلة العظيمة ولا يحرم خيرها إلا محروم، ولذا حث النبي ﷺ على قيامها ورغب فيه كما تقدم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) تنزل: أي تنتزل بكثرة وذلك لكثرة البركة فيها والملائكة تنزل مع نزول الخير والبركات والنفحات والرحمات.

وقد تقدم الكلام على الملائكة في سورة النبأ، وأما الروح فهو جبريل عليه السلام وهو أفضل الملائكة، خص بالذكر من بين الملائكة بعد أن ذكر ضمنهم لتشريفه والله أعلم.

وقوله تعالى (من كل أمر) قيل أن هذا متعلق بما بعده أي: من كل أمر سلامّ هي، بمعنى سلام هي من كل أمر، كما قال مجاهد وغيره: هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو أذى.

وقال قتادة في تفسيره (من كل أمر) تقضى فيها الأمور وتقدر فيها الأرزاق والآجال.

ومعنى كلامه - والله أعلم - أن الملائكة بأمر ربهم يتنزلون فيها بكل أمر محكم قضاه الله وقدره وهذا هو الأظهر والله أعلم.

وقوله تعالى (سلام هي حتى مطلع الفجر) أي سالمة من كل آفة وشر وذلك لكثرة خيرها وكبير فضلها (حتى يطلع الفجر) فتنتهي بطلوعه، وفي هذا رد على من زعم أن ليلة القدر لحظة بسيطة أو ساعة قليلة، فالحمد لله كثيراً على ما أنعم وأولى.

يستفاد من هذه السورة

١/ أن القرآن نزل في ليلة القدر في رمضان المبارك، وفي كون القرآن أنزل في الليل دون النهار ما يشعر بفضل اختصاص الليل بذلك ولذا حصلت كثير من الفضائل في الليل دون النهار مثل الإسراء والتهجد ونزول الله في الثلث الأخير منه ونحو ذلك.

٢/ أن القرآن منزل من عند الله لا مخلوق كما يدعيه بعض الطغام.

٣/ في قول الله تعالى (أنزلناه) دليل على علو الله تعالى على مخلوقاته، لأن النزول لا يكون إلا من علو.

٤/ فضل ليلة القدر وشرفها وعظيم قدرها ومضاعفة الأجور فيها على ما في سواها من الليالي.

٥/ كثرة نزول الملائكة في تلك الليلة المباركة مع جبريل عليه السلام.

٦/ تقدير المقادير في ليلة القدر.

٧/ سلامة تلك الليلة من كل شر وآفة، وكثرة خيرها نسأل الله أن يوفقنا لقيامها كل عام بجوار بيته الحرام مدة حياتنا إنه سميع قريب.

٨/ بيان أن ليلة القدر ليلة تامة وليست ساعة أو بعض ساعة كما يظن

العامّة وإنما هي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

تفسير سورة البينة

سورة البينة مدنية، وعدد آياتها {٨} آيات، نزلت بعد سورة الطلاق، ترتيبها في المصحف {٩٨}، وترتيبها في النزول {١٠٠}.

باب

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأبي: "إن الله أمرني أن أقرأ عليك (لم يكن الذين كفروا..). قال: وسماني؟. قال: "نعم". قال: فبكي.

وروى الترمذي عن أبي بن كعب رضي الله عنه - أيضا- أن رسول الله ﷺ قال له: "إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن". فقرأ عليه (لم يكن الذين كفروا) وفيها (إن ذات الدين عند الله الحنيفية المسلمة، لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية، من يعمل خيرا فلن يكفره) وقرأ عليه (لو أن لابن آدم واديا من مال لابتغى إليه ثانيا، ولو كان له ثانيا لابتغى إليه ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب).

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ
(١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا
اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ
الْقِيَمَةِ (٥).

قوله تعالى (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى
تأتيهم البينة) أهل الكتاب: هم اليهود والنصارى، والمشركون: هم عبدة
الأوثان من العرب وغيرهم، ومعنى منفكين: زائلين عما هم عليه ومنتهين
عن الكفر بالله والإشراك به، والبينة: المقصود بذلك رسول الله ﷺ، ووصف
بالبينة لأنه مبين للحق وناطق به.

والمعنى: أن الكفار من اليهود والنصارى ومن سائر المشركين لن يزالوا
على كفرهم ولن ينفكوا عنه حتى يأتيهم النبي المصطفى ﷺ فيبين لهم
الحق وينطق لهم بالحجج ويقيم عليهم البراهين.

وقوله ﷺ (رسول من الله يتلو صحفا مطهرة) هذا تفسير للبيئة المذكورة .
سابقا . والمقصود بهذا رسول الله محمد ﷺ، ومعنى (يتلو صحفا مطهرة)
أي يقرأ من حفظه صحفا من القرآن العظيم والذكر الحكيم، مطهرة عن
الباطل والزيف، ومحفوظة من قربان الشياطين، لا يمسخها إلا المطهرون من
الملائكة الكرام البررة.

وقوله تعالى (فيها كتب قيمة) أي في تلك الصحف كتب قيمة أي ذات
قيمة ونفاسة وذلك لأنها عادلة مستقيمة ناطقة بالحق والعدل والصواب لا
خطأ فيها ولا زلل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقوله تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة)
هذا إخبار عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين سبقوا وذلك أنهم لما
جاءهم الحق على السنة الرسل تفرقوا واختلفوا ولم يتبعوهم بل عادوهم
وعاندوهم، وفي هذا تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم أو تحذو حذوهم
كما قال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدهم ما جاءهم
البينات وأولئك لهم عذاب عظيم).

وقوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) وما أمروا: أي أن أهل الكتاب الذين تفرقوا لما جاءتهم الرسل بالبينات لم يكن لهم مبرر لتفرقهم لأنهم أمروا بأمر ليس بعسير عليهم . إذ لم يكلفوا ما لا يطيقون . بل ما أمروا إلا ليعبدوا الله، والعبادة: هي التذلل والخضوع لله ليس لأحد سواه، مخلصين: أي جاعلين دينهم خالصا له سبحانه، والدين: هو المنهج والطريقة التي يسير عليها الإنسان، والمقصود هنا العبادة بكامل أصنافها.

وقوله تعالى (حنفاء) جمع حنيف، وهو في اللغة: المائل، والمقصود هنا المائل عن الشرك إلى التوحيد.

وقوله تعالى (ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) أي: يؤدوها مستقيمة كما أمر الله في شريعتهم، وكذا يؤتوا الزكاة كما أمرهم الله في شرعهم ودينهم، فالصلاة عبادة البدن والزكاة عبادة المال وإنما خصتا بالذكر مع كونهما داخلتين في مسمى العبادة المأمور بها سابقا لشرفهما وفضلهما وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بشرائع الدين.

وقوله تعالى (وذلك دين القيمة) ذلك أي الدين الخالص وإقامة الشرائع دين القيمة: أي المستقيم العدل الحق الذي يوصل إلى جنات النعيم وينجي من عذاب الجحيم.

وقوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ. [٨].

وقوله تعالى (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها، أولئك هم شر البرية) هذا إخبار من الله تعالى بجزاء الكافرين ومآلهم يوم القيامة، فإنهم سوف يدخلون نار جهنم التي هي مأوى العصاة ومكذبي الرسل، ومعنى خالدين فيها: أي ماكثين فيها زمنا طويلا لا يزولون عنها ولا يخرجون منها كما قال تعالى (لابثين فيها أحقابا).

وقوله تعالى (أولئك هم شر البرية) البرية: أي الخليقة، فالكفار هم شر خلق الله تعالى بنص هذه الآية، وما ذلك إلا لكفرهم - مع قيام الحجة

عليهم - ومحاربتهم للرسول ﷺ - بعد علمهم صدقه - وتكذيبهم له - من بعد ما تبين لهم الحق - فهم بذلك استحقوا دخول النيران والخلود فيها أعاذنا الله منها.

ثم أخبرنا سبحانه عن جزاء من صدق الرسل وآمن بهم واتبعهم وهم المؤمنون العاملون للصالحات من الأعمال فقال سبحانه وتعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) معنى الإيمان: الإقرار والتصديق، ومذهب أهل السنة والجماعة أنه قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فالمؤمنون: هم الذين أقروا بوجود الله وصدقوا بوحدانيته فعبدوه وحده وامتثلوا أمره وأطاعوه سبحانه.

وقوله (وعملوا الصالحات) الصالح من العمل كل ما فيه خير ونفع للإنسان ومرضاة للرحمن فمن عمل ذلك استحق الوصف الأسمى في كونه من (الذين هم خير البرية): أي خير الخليقة لطهارتهم ونقاءهم وصلاحهم باطنا وظاهرا قلبا وقالبا.

وبهذه الآية استدلل أبو هريرة رضي الله عنه وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة، على ما ذكره الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره.

ثم قال تعالى مبينا ما سيجازي به أولئك الأخيار (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن) الجنات: جمع جنة وهي البستان الكثيف الذي غطت خضرته وأشجاره أرضه، ومعنى عدن: أي محل إقامة لا انتقال منها ولا رحيل عنها ولا ظعن فيها.

وقوله تعالى (تجري من تحتها الأنهار) أي تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار وهي جمع نهر، وفي الجنة عدة أنهار كما قال الله تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى).

وقوله (خالدين فيها أبدا) أي ماكثين فيها لا يخرجون منها أبدا.

وقوله (رضي الله عنهم) أي رضي أعمالهم وقبلها منهم وأثابهم عليها وأدخلهم جنته ودار كرامته وهو عنهم راض سبحانه وبحمده.

وقوله **عَلَّامٌ** (ورضوا عنه) أي رضوا بما أعطاهم من أنواع الكرامة والنعيم

الدائم وفرحوا برضوانه إذ هو أعلى ما أوتوه من النعيم المقيم.

وقوله جل ذكره **(ذلك لمن خشي ربه)** ذلك الإشارة إلى الجزاء العظيم الذي

نالاه أهل الإيمان والعمل الصالح الذين خافوا من ربهم وأطاعوه.

(المن خشي ربه) أي خافه واتقاه كما قال تعالى (ومن يخش الله ويتقاه

فأولئك هم الفائزون) وكما قال تعالى عن أهل الجنة (وأقبل بعضهم على

بعض يتسائلون * قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين * فمن الله علينا

ووقنا عذاب السموم) وكما قال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وكقوله

تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي

المأوى).

ألا فليبشر كل من خاف من ربه فأحجم عن فعل المعاصي وأقبل على

القيام بالواجبات حق القيام ليبشر بذلك الجزاء العظيم والثواب الكريم من

الرحمن الرحيم نسأل الله من فضله.

يستفاد من هذه السورة

- ١/ الإخبار عن الأمم السابقة دليل على نبوة محمد ﷺ.
- ٢/ الإشارة إلى أن الكفر ملة واحدة، وذلك لأنه ذكر الكفار من أهل الكتاب والمشركين في نسق واحد.
- ٣/ الإشارة أن الرسول ﷺ بعث للناس كافة إنهم وجنهم عربهم وعجمهم.
- ٤/ الثناء على القرآن، وذكر كونه نبراسا يضيء الطريق ونورا يهدي السبيل.
- ٥/ التمسك بكتاب الله سبب للعدل والإستقامة.
- ٦/ شقاء أهل الكتاب باختلافهم، وفي ذلك التحذير من الاختلاف على الرسل والتفرق لأنه سبب للهلاك كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم".
- ٧/ أمر جميع الأمم بعبادة الله والإخلاص فيها.

٨/ شرف التوحيد وفضل الصلاة والزكاة.

٩/ الإسلام هو الدين الحق وما سواه فهو باطل.

١٠/ جهنم جزاء الكفار والمشركون، وأهلها هم شر الخليقة، وذلك بسبب

كفرهم وعدم إيمانهم ففيه معنى قوله تعالى (إن شر الدواب عند الله الذين

كفروا فهم لا يؤمنون).

١١/ المؤمنون أفضل البرية لإيمانهم وعملهم الصالح، وجزاءهم جنات

النعيم.

١٢/ خلود أهل الجنة فيها ونعيمهم، وكون ذلك جزاء كل خائف من ربه.

١٣/ إثبات صفة الرضا للرب . سبحانه وتعالى . كما يليق بجلاله وعظمته.

تفسير سورة الزلزلة

سورة الزلزلة مدنية، وعدد آياتها ثمان آيات، نزلت بعد سورة النساء، وترتيبها في المصحف {٩٩}، وترتيبها في النزول {٩٣}.

باب

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ "كان يصليها . يعني الركعتين بعد الوتر . وهو جالس يقرأ فيهما (إذا زلزلت الأرض) و(قل يا أيها الكافرون).

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا (٢) وَقَالَ
الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥)
يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)].

قوله تعالى (إذا زلزلت الأرض زلزالها) هذا حين تقوم القيامة تزلزل الأرض:

أي تتحرك من أسفلها حركة هائلة عجيبة قوية شديدة حتى يتساقط ما

عليها من بناء، ويذهب ما فوقها من معالم، وذلك حين نفخة البعث والنشور.

وقوله تعالى (وأخرجت الأرض أثقالها) أخرجت: أي لفظت وألقت ما في بطنها من الأموات والكنوز بسبب الزلزال العظيم وهذا كقوله تعالى (وإذا الأرض مدت * وألقت ما فيها وتخلت) وكقوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم، إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)

وقوله (أثقالها) جمع ثَقُلَ . بكسر الراء وسكون القاف . وهو الحمل الثقيل، أو هو جمع ثَقُلَ - بفتح الراء والقاف - وهو كل نفيس مصون، وكلا المعنيين صحيح، فإن الأرض تلقي كل ما عليها وما فيها من نفيس وثقيل وغير ذلك.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ تقىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في

هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق

فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً".

وقوله ﷻ (وقال الإنسان ما لها) أي أن الإنسان يستتكر حالة الأرض

التي كانت هادئة مستقرة يقول: ما بالها اليوم مضطربة متحركة.

وقوله تعالى (يومئذ تحدث أخبارها) أي أن الأرض يوم القيامة تتحدث

وتشهد بكل عمل الناس على ظهرها من خير وشر.

وقوله تعالى (بأن ربك أوحى لها) أي حصل لها ذلك من كلام ونحوه بأن

الله أذن لها وأمرها به فانقادت سامعة مطيعة.

وقوله تعالى (يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم) يومئذ: أي يوم

القيامة يوم أن تزلزل الأرض وتلقي ما فيها وتشهد على من عليها بما

عملوا، في ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتا أي ينصرفون، مأخوذ من قولهم:

صدر عن ورده إذا انصرف عنه.

وقوله (أشأتا) أي مشتتين متفرقين غير مجتمعين، والمعنى - والله أعلم - أنهم يخرجون من قبورهم إلى موقف الحساب متفرقين بحسب أعمالهم آمنين وفزعين سعداء وأشقياء.

(ليروا أعمالهم) أي ليبصروا جزاء أعمالهم من خير وشر وينصرفون إليها. وقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) مثقال الذرة: هو وزن أصغر النمل، ومعنى يره: أي يراه ويلقاه ويجازى به كما قال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجره عظيمًا).

والمعنى: أن الناس يوم القيامة يرون أعمالهم وينصرفون إلى ربهم ليجازيهم بها إن خيرا فإلى خير، وإن شرا فإلى شر كما قال تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) وهذا من كمال عدل الله سبحانه وتعالى وإنصافه للعباد، وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى - في الحديث القدسي - أنه قال "يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا

لَكُمْ ثُمَّ أُوفِّيَكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدُ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ".

وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الحُمْر - يعني الأهلية - فقال (لم ينزل علي فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره).

وروى الإمام أحمد رحمه الله أن صعصة بن معاوية - عم الفرزدق - أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فقال: حسبي لا أبالي أن أسمع غيرها.

يستفاد من هذه السورة

١/ شدة أهوال يوم القيامة.

٢/ تغير الكون بما فيه من أرض وسماء وجبال وغير ذلك.

٣/ طاعة الأرض لربها وإخراجها ما في بطنها، وفيه إثبات البعث والنشور، وأن الله على كل شيء قدير.

٤/ إستغراب الإنسان يوم القيامة حال الأرض مما يشير إلى أنه انتبه من غفلة كان هو فيها وأنه رأى أمرا عظيما هائلا.

٥/ كلام الأرض وشهادتها بما دار عليها وبما جرى فوق ظهرها بين العباد.

٦/ إثبات الجزاء والحساب على الأعمال، وأن الجزاء من جنس العمل.

٧/ فضل العمل الصالح والترغيب فيه، وقبح العمل السيء والترهيب منه.

٨/ ذكر أن كل إنسان مجزى بعمله، ولا يظلم ريك أحدا.

٩/ أمور الآخرة وأحوالها تختلف عن أمور الدنيا وأحوالها.

١٠/ دقة الحساب والجزاء يوم القيامة كما قال تعالى (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين).

تفسير سورة العاديات

سورة العاديات مكية، وعدد آياتها {١١} آية، نزلت بعد سورة العصر، ترتبها في المصحف {١٠٠}، وترتيبها في النزول {١٤}.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩)]

قوله تعالى (والعاديات ضبحا) الواو: للقسم، فهذا قسم بالخيال لما فيها من فوائد كاستعمالها في الجهاد في سبيل الله - وهذه حالة خاصة لها من دون سائر الحيوانات - وكذا فيها من المنافع الظاهرة ما هو معلوم للخلق أجمعين وفي الصحيحين عن عروة بن الجعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة".

والعاديات: حال من الخيل التي تعدو سريعا إلى لقاء العدو وساحات المعارك.

وقوله (ضبحا) الضبح: هو صوت نفس الخيل عند شدة العدو وسرعته.
وقوله تعالى (فالموريات قدحا) الموريات: هي الخيل توري النار عند
اصطكاك حوافرها بالصخر، من الإيراء: وهو إخراج النار، والقده: الضرب
والصك - المعروف - لإخراج النار.

وقوله تعالى (فالمغيرات صباحا) هي الخيل تغير على العدو في الغالب
وقت الصباح الباكر، لأنهم كانوا إذا أرادوا الغارة سروا بالليل في غفلة
الناس وباغتوا العدو صباحا كما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك أن
النبي ﷺ "كان إذا غزا بنا قوما لم يكن يغزو بنا حتى يصبح، وينظر فإن
سمع أذانا كفّ عنهم، وإن لم يسمع أذانا أغار عليهم".

وقوله تعالى (فأثرن به نقعا) الإشارة: هي التهييج وتحريك الغبار، والنقع:
هو الغبار المتطاير من شدة عدو الخيل، والمعنى: أثرن الغبار بعدوهن في
مكان معترك الخيول.

وقوله جل شأنه (فوسطن به جمعا) وسطن: أي توسطن، به: أي براكبها
وفارسها، جمعا: من جموع الأعداء فتفرق جمع العدو وتشتت.

وقوله تعالى (إن الإنسان لربه كنود) هذا هو جواب القسم أو المقسم عليه، ومعنى كنود: أي كفور وجحود، يجحد نعم الله عليه وينساها ويقابلها بالعصيان ويقطع ما أمر الله به أن يوصل. قيل: أن المراد بذلك الكافر، وقيل: بل المراد جميع بني الإنسان لأن طبيعة الإنسان وجبلته أن نفسه لا تسمح أن تؤدي ما عليها من حقوق كاملة متوفرة بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليها من الحقوق المالية والبدنية إلا من رحم الله ممن خرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق (وقليل ما هم).

وقوله تعالى (وإنه على ذلك لشهيد) أي وإن الإنسان على كنوده وجحوده نعم الله لشهيد بلسان حاله لظهور أثر ذلك عليه في أعماله فلا يجحده ولا ينكره.

وقوله تعالى (وإنه يحب الخير لشديد) المقصود بالخير هنا: المال، والمعنى: أن الإنسان يحب المال لشديد، أي حريص على جمعه مجد في طلبه شحيح به أن ينفقه كما قال تعالى (وتحبون المال حبا جما).

وهذا الحب للمال هو الذي أورث للإنسان ترك الحقوق فبخل بالمال أن

ينفقه في مرضات الله وشغله ماله عن القيام بأوامر الله.

ثم ذكره الله بالقبر ودخوله، وفراقه لماله، وأن يوم القيامة (لا ينفع مال ولا

بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) فقال سبحانه وتعالى (أفلا يعلم إذا بعثر

ما في القبور) أي فهلا علم . من هذا حاله . إذا أخرج الموتى من قبورهم

وحشروا نشروا أن فعله في الدنيا غير نافعه؟.

وقوله (وحصل ما في الصدور) أي وهلا علم إذا ظهر وبان ما كان مستترا

في الصدور من كمائن الخير والشر . فصار السر علانية والباطن ظاهرا .

وبان على وجوه الخلائق نتائج أعمالهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر؟.

وقوله تعالى (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) أي إن رب المبعوثين يوم بعثرة

القبور وتحصيل ما في الصدور - وهو يوم القيامة - لخبير بهم مطلع على

أعمالهم ومجاز لهم أوفر الجزاء، لا يشغله أحد عن أحد وليس جمعهم عليه

بكبير ولا كثير بل إنهم كنفس واحدة، يحاسب كل واحد لحاله، ويقرر

مصيره ومآله وجزاءه العدل، فلا يظلمهم مثقال ذرة ولا يهضمهم شيئاً ولا يظلم ربك أحداً.

يستفاد من هذه السورة

١/ أن الله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وفي الآيات إشارة إلى فضل الجهاد في سبيل الله.

٢/ فضل الخيل المتجلي في إقسام الله بها، وكونها سبب من أسباب نصر الدين باستعمالها في الجهاد في سبيل الله.

٣/ غالب طبع الإنسان انه جحّاد لنعم الله عليه، كفور لها.

٤/ ظهور نعم الله على الإنسان شاهد بجده لها.

٥/ حب الإنسان للمال جبلة قد طبع عليها.

٦/ حب المال سبب لجحد النعم، إما بالبخل به وعدم إنفاقه في سبيل الله، أو الحرص على جمعه مما يسبب الغفلة عن عبادة الله وشكره على نعمه.

٧/ الإشارة إلى أن تذكر الآخرة وما فيها من حساب وجزاء سبب للبعد عن الغفلة والإقبال على الطاعة والعبادة والزهد في الدنيا.

٨/ شدة يوم القيامة، وإثبات إحياء الموتى وبعث من في القبور إلى ساحات

العرض والنشور.

٩/ أن كل إنسان محصل سعيه وعمله في الدنيا أمامه في الآخرة، وأنه

مجزي به إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

١٠/ علم الله واطلاعه على خلقه، وإحاطته بعملهم وما يصنعون.

تفسير سورة القارعة

سورة القارعة مكية، وعدد آياتها { ١١ } آية، نزلت بعد سورة قريش، ترتيبها في المصحف { ١٠١ }، وترتيبها في النزول { ٣٠ }.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ (١٠) نَارٍ حَامِيَةٍ (١١)].

قوله تعالى (القارعة) إسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تفرع الناس وتزعجهم بأهوالها.

وكثرة الأسماء وشدتها تدل على عظم المسمى وهوله ولذا عظمها تعالى فقال (ما القارعة * وما أدراك ما القارعة) أي وما تدري كيف شدتها؟ ولا ماذا يجري فيها؟.

ثم أخبر ﷺ بشيء مما يجري فيها فقال تعالى (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) الفراش . بفتح الفاء . جمع مفردة فراشه وهو الطير الرقيق الذي

يقع على المصابيح ويتقصد النار، والمبثوث: أي المتفرق المنتشر، شبه تعالى حال الناس حين تقع القارعة بانتشار ذلك الطائر وتفرقه وهذا كقوله تعالى (يخرجون من الأحداث سراعاً كأنهم جراد منتشر) فهذا حال الناس في ذلك اليوم العظيم.

وأما حال الجبال في ذلك الوقت فهو كما قال تعالى (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) العهن: هو الصوف، والمنفوش: أي المتفرق، والمعنى: أن الجبال تسير وتفقد صلابتها وتصير كالصوف الضعيف جداً الذي لا يتحمل أدنى لمسه وهذا كقوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب).

وفي ذلك اليوم العظيم ينقسم الناس حسب أعمالهم إلى قسمين: قسم سعداء، وقسم أشقياء، فالسعداء: هم الذين عملوا الصالحات وأقلوا من السيئات في الدنيا فتتقل موازين حسناتهم. والأشقياء: على العكس من ذلك، ولذا قال سبحانه (فأما من ثقلت موازينه) أي رجحت حسناته بسيئاته عند

وزنها في الميزان يوم القيامة، وقد ذكرت الموازين هنا بلفظ الجمع باعتبار تعدد الموزونات.

فقال تعالى عنه (فهو في عيشة راضية) أي في حياة طيبة يرضاها هو لنفسه لأن الله قد رضي عنه.

قوله تعالى (وأما من خفت موازينه) بأن كانت سيئاته أكثر من حسناته فمالت بها (فأما الهاوية) أمّه: أي مأواه، وسميت أمّا لأن الإنسان يأوي إليها كما يأوي إلى أمه فتكون له كالأم الملازمة.

والهاوية: اسم من أسماء النار، سميت بذلك لعمق قعرها ويُعد مهواها، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ "تدرون ما هذا؟". قال قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: "هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها فسمعتم وجبتها".

وقوله تعالى (وما أدراك ما هيه * نار حامية) هذا تفسير للهاوية: أي وما تدري ما هي هذه الهاوية التي سيهوي فيها من خفت موازينه؟.

ثم فسرهما سبحانه بقوله (نار حامية) أي حارة شديدة الحرارة كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "تاركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم". قيل: يا رسول الله إن كانت لكافية. قال: "فضلت عليهن بتسعة وستين جزءا، كلهن مثل حرها".

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "إن تاركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين ولولا ذلك ما جعل الله فيها لأحد منفعة".

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضا. فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير).

يستفاد من هذه السورة

١/ تعظيم أهوال يوم القيامة وما يحدث فيه من كربات ومصاعب، يدل على ذلك كثرة أسماءه وشدتها لأن الاسم يعبر عن المسمى.

٢/ فزع الناس ورعبهم يوم القيامة إذ توحى الآية أنهم يموجون في بعض، ولا يستطيعون التوقف لشدة الهول.

٣/ دك الجبال وتسييرها يوم القيامة دليل على هوله وشدته.

٤/ الإكثار من الحسنات والتقلل من السيئات سبب للنجاة يوم القيامة، وفي ذلك بيان فضل العمل الصالح والحث عليه.

٥/ إثبات الموازين يوم القيامة، كما قال تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم فلا تظلم نفس شيئاً) وكذا فيه إثبات وزن العمل وأنه يكون له وزن.

٦/ فضل عمل الصالحات في الدنيا وأنها سبب للسعادة يوم القيامة.

٧/ الترهيب من اكتساب السيئات وكونها سبب لدخول النار.

٨/ بعد قعر جهنم وعظمتها.

٩/ حرارة النار وشدتها.

١٠/ تغير نظام الكون يوم القيامة.

تفسير سورة التكاثر

سورة التكاثر مكية، وعدد آياتها ثمان آيات، نزلت بعد سورة الكوثر، ترتيبها في المصحف {١٠٢}، وترتيبها في النزول {١٦}.

باب

عن عبدالله بن الشخير رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو "يصلي قاعدا وقائما وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) حتى ختمها. رواه النسائي.

وفي صحيح البخاري عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت (ألهاكم التكاثر) يعني: لو كان لابن آدم واد من ذهب.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[أَلْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)].

قوله تعالى (ألهاكم التكاثر) ألهاكم: أي شغلكم التكاثر والانهماك في الاستكثار من متاع الدنيا من أموال وأولاد و قناطر مقنطرة من الذهب

والفضة و نحو ذلك مما يتكاثر به الخلائق ويتفاخرون بجمعه والاستكثار منه، ولذا ذكر عليه السلام (التكاثر) ولم يذكر المتكاثر به ليعم الجميع.

قال بعض العلماء: حتى أنه ليشمل التكاثر في الكتب ونحوها.

والمعنى: ألهاكم ذلك وشغلكم عن طاعة الله وعبادته، وهذا ما كان يخشاه

علينا المصطفى عليه السلام كما جاء عند أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله

قال: قال رسول الله عليه السلام "ما أخشى عليكم الفقر ولكن أخشى عليكم التكاثر،

وما أخشى عليكم الخطأ ولكن أخشى عليكم العمد".

وعن عبدالله بن الشخير عليه السلام قال: قال رسول الله عليه السلام (ألهاكم التكاثر * حتى

زرتم المقابر) قال: "يقول بن آدم: مالي، مالي، وإنما مالك ما أكلت فأفنيته،

أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت". رواه مسلم.

وهذا العتب شامل لكل من المؤمنين والكفار، فمن ألهاه شيء من أمور

الدنيا عن الطاعة وذكر الموت والآخرة فهو داخل في ذلك.

وقوله تعالى (حتى زرتم المقابر) الزيارة الوصول ثم الانتقال ولذا لما قرأ عمر بن عبد العزيز رحمه الله هذه الآية قال: ياميمون ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله يعني إلى جنة أو نار.

والمقابر: جمع مقبرة - بضم الباء وفتحها - مكان دفن الأموات، والمعنى: شغلكم جمع الدنيا وحطامها حتى متم ودفنتم.

وقوله تعالى (كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون) كلا: حرف ردع وزجر في جميع المواضع الثلاثة، وكررت مع (سوف تعلمون) للتأكيد ولزيادة التهديد والوعيد، والمعنى: أنكم سوف تعرفون عاقبة تشاغلکم بالدنيا عن الطاعة والعبادة ثم ستعرفون حقا لا ريب في ذلك وستندمون على ما فرطتم فيها.

وقوله تعالى (كلا لو تعلمون علم اليقين) علم اليقين: هو العلم الجازم المطابق للواقع الذي لا شك فيه، والمعنى: أنكم لو علمتم ما أمامكم علما جازما يصل إلى قلوبكم لما ألهاكم التكاثر عن العبادة والطاعة ولبادرتم إلى

الأعمال الصالحة، ولكن بسبب عدم العلم الحقيقي وصل بكم الحال إلى ما أنتم عليه.

وقوله تعالى (لترن الجحيم) اللام: لام القسم المقدر، والجحيم: إسم أسماء النار، وهذا للتأكيد ولبيان عظمة وهول هذا الأمر، ولذا قال تعالى مؤكدا ومهددا (ثم لترونها عين اليقين) هذه الرؤية رؤية بصرية كما قال تعالى (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها، ولم يجدوا عنها مصرفا) وعين اليقين: هي ذات اليقين أو نفسه وهذا تأكيد لما قبله والله أعلم.

وقوله تعالى (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) يومئذ: أي يوم القيامة، والنعيم: أصله من النعمة والليونة، وكل حال ناعمة ضد الخسونة واليبوسة والشدائد، والمقصود به في هذه الآية عموم نعم الله التي أعطها للإنسان في الدنيا يسأل هل أدى حق الله فيها؟ وقام بشكرها واستعملها في طاعة الله واستعان بها على عبادته؟ أم أن الأمر على العكس من ذلك، كمن لم يؤد حق الله فيها، ولا شكر الله عليها، بل زعم أنه جاء بها بكده وجده،

وكذا من استعملها في معصية الله، واستعان بها على اللهو والباطل، فماذا

سيقول هذا لخالقه ومولاه إذا سأله عما سأله وأعطاه؟!

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ؓ قال: خرج رسول الله ﷺ ذات

يوم . أو ليلة . فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: "ما أخرجكما من بيوتكما هذه

الساعة؟. قالوا: الجوع يا رسول الله. قال: "وأنا، والذي نفسي بيده لأخرجني

الذي أخرجكما، قوموا". فقاموا معه فأثنى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس

في بيته، فلما رآته المرأة قالت: مرحبا وأهلا، فقال لها رسول الله ﷺ: "أين

فلان؟. قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى

رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافا مني.

قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذه. وأخذ

المدية، فقال له رسول الله ﷺ: "إياك والخلوب". فذبح لهم، فأكلوا من الشاة

ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر

وعمر: "والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من

بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم".

ورواه أحمد من حديث أبي عسيب مولى رسول الله ﷺ وفيه: فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه ثم دعا بماء بارد فشرب فقال: "لتسألن عن هذا يوم القيامة". قال: فأخذ عمر العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البسر قبل رسول الله ﷺ ثم قال: يا رسول الله أننا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟. قال: "نعم، إلا من ثلاث: خرقة كف بها الرجل عورته، أو كسرة سد بها جوعته، أو حجرا يتدخل فيه من الحر والقر".

ألا فليُعدّ للسؤال جوابا من يُرفعُ له أصناف الطعام ثلاثا كل يوم . أصنافا غير متشابهة . وليعلم أنه عن ذلك مسئول.

وروى الإمام الترمذي عن الزبير بن العوام ؓ أنه لما نزلت (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) قال: يارسول الله وأي النعيم نسأل عنه، وإنما هما الأسودان التمر والماء؟. فقال رسول الله ﷺ "أما إنه سيكون".

يستفاد من هذه السورة

- ١/ الإخبار عما عليه الناس من اشتغال بالدنيا عن الدين، وذمه تعالى لذلك.
- ٢/ ذكر أن الغفلة واقعة على صاحبها في الدنيا، فإذا مات انتبه منها.
- ٣/ الإشارة إلى أن المنغمس في جمع الدنيا وحطامها قلّ أن ينتبه قبل موته.
- ٤/ الإشارة إلى أن البرزخ ليس دار قرار بل إنه معبر إلى الآخرة، لأن الله سمّى أهلها زائرين ولا بد للزائر أن ينتقل، وهذ دال على البعث والجزاء والمعاد والسؤال نسأل الله العون والتوفيق.
- ٥/ بيان أن من علم علما يقينا حقيقة الدنيا أورث له ذلك العلم الزهد فيها والتقلل منها.
- ٦/ ذكر وعيد من ألهمته الدنيا بدخول نار الجحيم.
- ٧/ الجزم بالحساب والسؤال عن النعيم في الدنيا، وماذا فعل فيها الإنسان.
- ٨/ الحض على شكر النعم والحرص عل صرفها في طاعة الله وتسخيرها لعبادته.

تفسير سورة العصر

سورة العصر مكية، وعدد آياتها ثلاث آيات، نزلت بعد سورة الشرح، ترتيبها في المصحف {١٠٣}، وترتيبها في النزول {١٣}.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)].

قوله تعالى (والعصر) الواو: للقسم، والعصر: مقسم به، فالله قد أقسم بالعصر الذي هو مخلوق من مخلوقاته، والله أن يقسم بما يشاء وليس لنا أن نقسم إلا به سبحانه بأسماءه أو صفاته.

وقد اختلف في المقصود بالعصر: ف قيل الصلاة المعروفة، وقيل عصر النبوة أي زمنها، وقيل: هو الدهر كله، وهذا هو الظاهر . والله أعلم . لأنه عام لجميع ما ذكر.

أقسم تعالى به قسما مؤكداً على (إن الإنسان لفي خسر) الإنسان: إسم جنس يشمل كل من فيه معنى الإنسانية، وقوله تعالى (لفي خسر) أي لفي

خسارة محققة مؤكدة، والخسارة: ضد الربح أي في نقص وهلاك إلا من اتصف بأربع صفات ذكرها ﷺ بقوله (إلا الذين آمنوا) هذه الأولى، (وعملوا الصالحات) هذه الثانية، (وتواصوا بالحق) هذه الثالثة، (وتواصوا بالصبر) هذه الرابعة، فمن اتصف بهذه الصفات الأربع نجا من الخسارة، ومن لم يتصف بها فهو خاسر لا محالة.

ومعنى الأولى: الذين آمنوا بالله أي أقرؤا وصدقوا والتزموا بشرعه وامتثلوا أمره وانتهوا عن نهيه، آمنت قلوبهم ونطقت بما فيها من الإيمان ألسنتهم وعملت جوارحهم.

ومعنى الثانية: عملوا الصالحات: وهي كل عمل فيه خير ونفع للإنسان وبر في الدنيا والآخرة، وكان مما يحبه الله ويرضاه.

ومعنى الثالثة: أي أوصى بعضهم بعضا . وحث بعضهم بعضا . بالالتزام بالحق: وهو أداء الطاعات وترك المحرمات والثبات على ذلك حتى الممات وتطبيق شرع الله في كل قول عمل.

والخصلة الرابعة: (وتواصوا بالصبر) الصبر: هو حبس النفس وإلزامها بالكتاب والسنة، والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فهذه أنواع الصبر التي من تواصى بها مع إخوانه المؤمنين نجا من الخسارة، ومن تركها خسر، وما سوى هذه الأنواع الثلاثة فصبر غير محمود العواقب كالصبر عن الله وذكره، والشرع وأمره، بل صاحب هذا الصبر خاسر لا محالة.

يستفاد من هذه السورة

- ١/ الله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.
- ٢/ هلاك الإنسان وخسارته إذا ابتعد عن ربه وخالفه وتحقق ذلك في حقه.
- ٣/ فضل الإيمان والعمل الصالح وكذا التواصي بالحق والصبر.
- ٤/ الإشارة إلى أن من التزم بالإيمان والعمل الصالح والحق لا بد له من الصبر على ذلك، ومن لم يصبر لم ينجح ولم ينل ما يتمنى.
- ٥/ رحمة الله بعباده وفضله عليهم المتمثل في إعلامهم بما ينجيهم من الخسارة ودلائلهم عليه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

تفسير سورة الهمزة

سورة الهمزة مكية، وعدد آياتها تسع آيات، نزلت بعد سورة القيامة، ترتيبها في المصحف {١٠٤}، وترتيبها في النزول {٣٢}.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩).

قوله تعالى (ويل لكل همزة لمزة) الويل: هو الهلاك والدمار والعذاب، والهمز: هو إيذاء الناس بسوء اللفظ، واللمز: هو إيذاءهم بالفعل ككسر العين ومد اللسان.

والهُمَزَةُ وَاللُّمَزَةُ: هو المكثّر من ذلك، والفرق بين الهمز واللمز: أن الأول يكون بالفعل، والثاني يكون بالقول، والمعنى: أن الله تعالى قد توعد بعذاب يلحق من تعرض للناس بهمزهم بفعله ولمزهم بقوله، وذلك بطعنه في

أعراضهم، ودأبه في عيبيهم، ومشيه بما يزرع بينهم الفساد من نميمة ونحوها.

وقوله تعالى (الذي جمع مالا وعدده) أي جمع بعضه إلى بعض، إذ لا همّ له في الدنيا إلا الإقبال على جمع حطامها الفاني والمباهاة به تكاثرا وتفاخرا وهو مع ذلك (يحسب أن ماله أخذه) أي يظن أن جمعه للمال سيخلده في هذه الدنيا، والخلود: هو المكث الطويل والبقاء والدوام، لكن ظنه هذا ظن خاطئ ولذا رد الله عليه ظنه فقال (كلا) أي ليس الأمر على ما يظن ويزعم.

ثم ذكر الله جزاء هذا الباغي الأثيم فقال تعالى (لينبذن في الحطمة) النبذ: هو الطرح والإلقاء مصحوبا بعدم المبالاة بالمنبوذ فيطرح طرعا إهانة وإحتقارا له كما قال تعالى عن المكذبين بيوم الدين (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) أي يدفعون فيها وإليها دفعا.

وقوله تعالى (في الحطمة) الحطمة: اسم من أسماء النار، سميت بذلك لأنها تحطم ما يلقي فيها، وفي الحديث الذي رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ "رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً".

وقوله تعالى (وما أدراك ما الحطمة) أي وما تدري - يا أيها النبي - ما هي الحطمة؟.

وهذا لتعظيمها وتهويلها ثم بين ذلك سبحانه وتعالى فقال (نار الله) هذا من باب إضافة المملوك إلى المالك، وقوله (الموقدة) هذا بيان لحال النار أي: المسعرة، الشديدة الحرارة، العظيمة اللهب، التي قد أوقدت بالناس والحجارة فهي موقدة لا تخمد أبداً.

وقوله تعالى (التي تطلع على الأفئدة) هذا إخبار عنها وعن شدة حرارتها - أعاذنا الله منها - والمعنى: أنها تصل حرارتها وينفذ ألمها حتى يدخل الفؤاد الذي هو ألطف ما في الجسم ويتألم من أدنى أذى يمسه، وفي هذا تحذير منها بليغ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وهي مع هذه الحرارة قد أغلقت وأوصد عليهم، فلا خلاص لهم منها ولا مناص ولذا قال تعالى (إنها عليهم مؤصدة) إنها: توكيد، عليهم موصدة: أي مغلقة الأبواب، كما قال تعالى (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم).

وقوله تعالى (في عمد ممددة) العمد: جمع عمود، قيل: أنها من النار، ممددة: أي على أبوابها والمعنى: أن هذه النار العظيمة قد مُدَّت أعمدة الحديد في النار على أبوابها، حتى يرجع إليهم حرها فلا يفتح لهم باب ولا يدخل عليهم فيها ريح، بل كل ما فيها عذاب ونكال، وقانا الله منها بمنه وفضله.

يستفاد من هذه السورة

١/ الوعيد الشديد لكل طعان عيَّاب في الناس، وفيه النهي عن ذلك والزجر من اقترافه.

٢/ نذير جمع المال والحرص عليه وجعله أكبر الهم في الدنيا، وفيه التحذير من أن يلهي الإنسان ماله عن ذكر الله وعبادته.

٣/ بيان أن المال لا ينفع من أمر الله شيئاً، وأنه ليس سبباً للخلود في الدنيا، بل هو زيف خادع وسراب زائل يرحل عن صاحبه أو يرحل عنه صاحبه.

٤/ سوء عاقبة الكافرين ومن ألهمهم الدنيا عن الدين.

٥/ شدة النار وعظمة هولها، والترهيب منها وبيان أنها تبلغ كل عضو من أعضاء المعذبين فيها، وذكر إغلاقها عليهم، وعدم خروجهم منها، وهذا في من كتب عليه الخلود فيها، نسأل الله السلامة.

تفسير سورة الفيل

سورة الفيل مكية، وعدد آياتها خمس آيات، نزلت بعد سورة الكافرون، ترتبها في المصحف {١٠٥}، وترتيبها في النزول {١٩}.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)].

قوله تعالى (ألم تر) أي ألم تعلم، وهذا الخطاب والاستفهام للتقرير، لأن ما يخبر به من أمر أصحاب الفيل مما هو معلوم متواتر عند قريش وغيرها.

وقوله تعالى (كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) أصحاب الفيل: هم الحبشة الذين جاؤوا من اليمن بقيادة أبرهة أبي يكسوم الحبشي جاؤوا إلى مكة لهدم الكعبة المشرفة، وذلك لأن أبرهة كان قد بنى في مكان حكمه - صنعاء اليمن - بنى بناءا عظيما يسمى القليس، أراد أن يصرف حج العرب إليه، فسمع به بعض العرب فساءه ذلك فجاء إلى ذلك البناء فأحدث فيه، فسأل

أبرهة عمن فعل ذلك فأخبر إنه من العرب وأنه فعله احتقارا لهذا البيت الذي صنّعه وانتقاما لكعبتهم، فأراد أن يهدم الكعبة البيت الحرام، فسار بجيش عظيم إلى مكة ومعه فيل عظيم اسمه محمود يريد أن يهدم به الكعبة، فسار من صنعاء إلى مكة، ولم يستطع أحد أن يثبت أمامه ممن اعترضه من العرب حتى وصل إلى مكة، فبرك الفيل . بأمر الله - على غير عادته في مكان يقال له محسر - سمي بذلك لأن الفيل حسر فيه عن القيام والمشي صوب الكعبة - وأبى أن يتوجه إلى البيت الحرام، فكانوا كلما وجهوه إلى غير جهة الكعبة مشى، وإذا وجهوه إلى الكعبة برك ولم يمش، فضربوه ونخسوه وأدخلوا المحاجن في مرقاه فأبى، وأرسل الله عليهم طيرا من جهة البحر مع كل طائر ثلاثة أحجار صلبة أرسلتها عليهم، فكان كل من أصابه منها حجر يموت لساعته، حتى هلك أكثرهم في ذلك الموضع، ومن بقي منهم هلك في الطريق وهم فارون إلى بلادهم، وكان هذا من نعم الله على قريش وذلك إرهابا لبعثته ﷺ لأنه ولد في ذلك العام.

وقوله تعالى (ألم يجعل كيدهم في تضليل) أي ألم يجعل الله كيد أصحاب الفيل - وهو سعيهم لخراب الكعبة - جعله الله في تضليل أي في ضياع وخسارة ولم يتم لهم ما يريدون، بل عاقبهم الله عقابا شديدا وجعلهم عبرة للمعتبرين.

وقوله تعالى (وأرسل عليهم طيرا أبابيل) معنى أبابيل: جماعات متتابعات. وقوله تعالى (ترميهم بحجر من سجيل) أي ترمي تلك الطيور أصحاب الفيل بحجارة صغار صلبة، من سجيل: أي طين صلب محرق. وقوله تعالى (فجعلهم) الفاعل هو الله الذي صنع بهم ذلك بقدرته وقوته جلّاله.

وقوله (كعصف مأكول) العصف: هو قشر البر، وقوله (مأكول) أي إذا أكلته الدواب وراثته فأصبح روثا متفرقا، وهذا فيه بيان هلاكهم وتمزقهم شر ممزق كما فعل بأشياهم من قبل عاد وثمود وفرعون مصر ومن شايهم من أئمة الكفر والإلحاد.

يستفاد من هذه السورة

- ١/ قوة الله وقدرته، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.
- ٢/ عاقبة الظلم إلى هلاك وخسارة، والظالمون معذبون في الدنيا والآخرة.
- ٣/ لا قوة تقاوم قوة الله، ولا أحد يضاده سبحانه وتعالى.
- ٤/ إرادة الله فوق كل إرادة.
- ٥/ كثرة جنود الله ﷻ، ففيه معنى قول الله تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو).
- ٦/ هوان الكافرين وخزيهم ودحرهم وأنهم مهانون في الدنيا والآخرة.
- ٧/ حماية الله للكعبة المشرفة من كيد الكافرين.
- ٨/ تشجيع المسلمين وإشعارهم أن الله يدافع دائماً عن دينه.
- ٩/ إهلاك الله لجيش أبرهة بتلك الطريقة العجيبة.

تفسير سورة قريش

سورة قريش مكية، وعدد آياتها أربع آيات، نزلت بعد سورة النتن، ترتيبها في المصحف {١٠٦}، وترتيبها في النزول {٢٩}.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[إِيلَافٍ قُرَيْشٍ (١) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)].

قوله تعالى (إِيلَافٍ قُرَيْشٍ) قال الإمام ابن جرير رحمه الله: الصواب أن اللام للتعجب كأنه يقول: اعجبوا لإِيلَافٍ قُرَيْشٍ ونعمتي عليهم في ذلك، قال: وذلك لإجماع المسلمين أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان - يعني هي وسورة الفيل - بعد أن حكى قول من قال بأنهما سورة واحدة.

وقوله (إِيلَافٍ) أي ما كانوا يألفونه قُرَيْشٍ: هي القبيلة العربية المشهورة التي كانت تسكن مكة زمن النبي ﷺ، وهم ولد النضر بن كنانة وهو الأب الثالث عشر للنبي ﷺ.

وقوله تعالى (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) أي ما كانوا يألفونه ويعتادونه من هاتين الرحلتين من التجارة وجلب الميرة، رحلة في الشتاء إلى اليمن ورحلة في الصيف إلى الشام، كانت هما أساس اقتصاد قريش فنبههم - تعالى - إلى أنه رب هذا البيت الذي بسببه نالت قريش التعظيم والأمن في هاتين الرحلتين، فعظمهم العرب واحترمهم ولم يعترضوا لهم في أي سفر أرادوا، ولذا أمرهم تعالى بشكر هذه النعمة ومعرفة هذا الفضل فقال تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت) اللام: لام الأمر، ويعبدوا: أي يذلوا ويخضعوا ويسمعوا ويطيعوا، لرب هذا البيت أي مالك وخالقه وهو الله تعالى، والبيت: هو الكعبة المشرفة التي عظمت بسببها قريش في كل مكان، فهذا الرب الذي مكّن لهم هذا وهياهم لهم دون سواهم يستحق وحده إخلاص العبادة له لا أحد سواه، وذلك لأنه هو الذي هياهم تلك الأسباب وحده فلذا قال تعالى (الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف) أطعمهم من جوع شديد بتلك الرحلتين، وآمنهم: أي جعلهم آمنين من كل خوف بسبب ذلك البيت العظيم وهذا كقوله تعالى (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس

من حولهم) وكقوله تعالى (أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون).

يستفاد من هذه السورة

١/ تشريف الله لقريش وتخصيصهم بتلك السورة العظيمة وبتلك المصالح التي لم تكن لغيرهم.

٢/ ذكر ما كان يعتاده القرشيون من التجارة في رحلتي الشتاء والصيف.

٣/ وجوب شكر النعم.

٤/ الإشارة إلى أن شكر النعم يزيد لها وكفرانها يمحقها ففيه معنى قوله

تعالى (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد).

٥/ بيان فضل الله على قريش بما لم يكن لغيرهم، وذلك بفضل الحرم

الآمن ودعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام عندما قال (رب اجعل هذا

البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات).

٦/ الإشارة إلى أنه يجب على الناس جميعا أن يشكروا الله تعالى على

نعمه الكثيرة وذلك بعبادته وحده.

تفسير سورة الماعون

سورة الماعون مكية الثلاث الآيات الأول منها، والبقية مدنية، وعدد آياتها سبع آيات، نزلت بعد سورة التكاثر، ترتيبها في المصحف {١٠٧}، وترتيبها في النزول {١٧}.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)].

قوله تعالى (أرأيت) أي: أعرفت؟ وفيه تعجب من أمره، والخطاب للرسول ﷺ ولكل من يصلح له الخطاب، وهذا المتعجب من أمره المعروف بخبره هو (الذي يكذب بالدين) أي ينكره ولا يصدق به، والدين: هو الحساب والجزاء الذي يكون بعد الموت وعند المعاد، وهو مأخوذة من دان يدين أي جازى يجازى، ومنه قولهم كما تدين تدان.

والحاصل: أن الله تعالى يعرفنا بحال هذا المعاند . وسواء كان ذلك في زمن النبي ﷺ أو في الأزمنة المتأخرة بعده . فإن من فعل ذلك فهو ضال ملحد غير مؤد لحقوق ربه، وكيف يؤديها وهو لا يؤمن بقاءه؟ ومع ذلك فهو غير مؤد لحقوق الخلق فهو ظالم لنفسه في حق الخالق وفي حق المخلوق.

ولذا قال تعالى مبينا حاله (فذلك الذي يدع اليتيم) الدع: هو الدفع الشديد ومنه قول الله تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) أي يدفعون فيها بشدة، واليتيم: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه، فيأتي هذا الظالم المخبر عنه فيدفع اليتيم عن حقه ويأخذه قهرا وقسرا، وذلك لأنه لا يخاف الآخرة ولا يرهب لقاء الله.

ومن صفاته أيضا ما بينه تعالى بقوله (ولا يحض على طعام المسكين) يحض: أي يحث غيره على إطعام المسكين: وهو الذي أسكنه الفقر بحيث لا يجد كفايته، وإذا كان هذا الظالم لا يحض غيره فمن باب أولى أنه لا يباشر ذلك العمل هو بنفسه، وكيف يباشر هذا العمل وهو الآكل لأموال

اليتامى ظلما، ومن كان هذا حاله وديدنه وشانه فهو بعيد كل البعد عن فعل الخير إلى المساكين وغيرهم.

وقوله تعالى (فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون) ويل: عذاب وهلاك للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون: أي لاهون عنها مؤخرون لها عن وقتها بحيث لا يؤدونها إلا عند خروج الوقت أو بعده كما جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: "تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا".

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: فهذا آخر صلاة العصر - التي هي الوسطى كما ثبت به النص - إلى آخر وقتها وهو وقت الكراهة ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب لم يطمئن فيها ولم يخشع، ولهذا قال: "لا يذكر الله فيها إلا قليلا". ولعله إنما حمّله على القيام إليها مراعاة الناس لا ابتغاء وجه الله تعالى فهو كما إذا لم يصل بالكلية.

قلت: ويلحق بذلك من بات طول ليله ساهرا على شاشات التلفزيونات منتقلا من قناة إلى قناة حتى إذا اقترب الفجر وتنزل الرب - ﷻ - وجاء الخير، عمد هذا الأثيم إلى فراشه فنام نوما عميقا لا يوقظه إلا حر الشمس - إن أيقظه - ثم يقوم فيصلي - إن صلى - الفجر ركعتين لا سنة قبلها ولا بعدها ولا خشوع فيها، وهو مع ذلك مطمئن البال منشراح الصدر غير مبال بما صنع ولا آبه لما فعل، وكأنه لم يغير فرضا ووقتا فرضه الله ووقته في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، بل يجعل وقت الفجر يوميا بعد طلوع الشمس - لا قبلها - فهذا حاله أقبح وفعله أشنع وعمله أنكر، ولا ريب في كفره إن استمر على تلك الحال ولم يتب إلى الله من هذا العمل، لا سيما إذا استحلّه ولم يجتهد في تركه والإقلاع عنه.

ولئن كان هذا في من يؤخر الصلاة عن وقتها فإن من يقدمها عنه لا يسلم من اللوم، كمن يجمع العصر مع الظهر والعشاء مع المغرب دائما من غير عذر يبيح له ذلك، بل ربما كان الدافع له إلى ذلك غصن قات - كما ابتلي به كثير من أهل اليمن عافاهم الله من ذلك - أو ربما من أجل جلسة

مع الخلان، ويفعل ذلك رافعا رأسه معتزا برأيه ولسان حاله ومقاله هذا مذهبنا، وكأنه ليس من أتباع محمد ﷺ الذين أمروا بتأدية الصلوات كل واحدة في وقتها الذي وقته الله لها، بل يقول كما قال الأولون "إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مهتدون". فبالله من زمن أتى فيه الإسلام في عموده ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم اعلم - رحمك الله - أن هذا الذم واللوم هو على من سها عن صلاته، ولا يدخل فيه من سها فيها لأن من سها في الصلاة لا حرج عليه ولا إثم لقوله ﷺ "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه".

وقد سها المعصوم ﷺ - وهو أتقى الخلق لربه وأخشاهم له - سها في صلاته وقال: "إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني".

فتنبه للفرق بين الأمرين فإنه هام.

وقوله تعالى (الذين هم يراؤون) أي يعملون أعمالهم رياء وسمعة ولا يريدون بها وجه الله تعالى، وهذه صفة من صفات المنافقين كما قال الله

تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً).

فانظر كيف جمعوا في صلاتهم كسلاً وتأخيراً لها عن وقتها ورياء وعدم ذكر الله فيها إلا قليلاً، وما ذاك إلا لأنهم أرادوا بها الخلق لا الخالق والعباد لا المعبود، فلا عجب أن صاروا محل عجب، كيف لا وهم يقدمون الخلق على الخالق والفاني على الباقي ومن لا يملك على مالك كل شيء، أفلا يعقلون؟.

وقوله تعالى (ويمنعون الماعون) المنع: هو الحبس، والماعون: هو ما يتعاوره الناس في ما بينهم البين كالدلو والقدر ونحو ذلك مما ينتفع به من المعروف.

قال البخاري: قال عكرمة: أعلاها الزكاة المفروضة وأدناها عارية المتاع. فانظر شدة حرصهم وبخلهم كيف منعوا مثل ذلك من دلو ونحوه فكيف بما هو أكثر منه.

يستفاد من هذه السورة

- ١/ التعجب من حال الكفار والمنافقين وبيان أن أمرهم عجب.
- ٢/ التهيب من طرد اليتيم ودفعه وأخذ حقه بالباطل، وفي ذلك حث على إكرامه وإطعامه والاستيحاء به خيرا.
- ٣/ التهيب من عدم الحض على الرفق بالمساكين واللفظ بهم، وفيه الأمر بذلك.
- ٤/ التهيب من تأخير الصلاة عن وقتها، وبيان أن ذلك من أفعال المنافقين وصفاتهم.
- ٥/ الأمر بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها المخصصة لها شرعا.
- ٦/ الأمر بالإخلاص في العبادة والتهيب من الرياء في ذلك.
- ٧/ الحث على التعاون مع الناس وإسداء المعروف إليهم، والنهي عن منع ما بالوسع إعارته، وذم من منع ذلك.
- ٨/ خطر الرياء وسوء عاقبته.

تفسير سورة الكوثر

وتسمى سورة النصر

وهي أقصر سور القرآن الكريم

سورة الكوثر مكية، وعدد آياتها ثلاث آيات، نزلت بعد سورة العاديات، ترتيبها في المصحف {١٠٨}، وترتيبها في النزول {١٥}.

باب

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً فقالنا: ما أضحكك يا رسول الله؟. قال: "أنزلت علي أنفا سورة فقراً (بسم الله الرحمن الرحيم * إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر) ثم قال: "أتدرون ما الكوثر؟". فقالنا: الله ورسوله أعلم. قال: "فإنه نهر وعدنيه ربي ﷻ، عليه خير كثير و حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة أنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم فأقول: رب إنه من أمتي. فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك".

سبب النزول

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الصنبر المنبتر من قومه؟ يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج والسدانة وأهل السقاية!! فقال: أنتم خير منه. قال: فنزلت (إن شائئك هو الأبتّر). رواه البزار بإسناد صحيح.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣).

قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) المتكلم هو الله سبحانه وتعالى وحده، وإنما عبّر بلفظ الجمع للتعظيم، وهو الله العلي العظيم الذي لا أجل منه ولا أعظم ولا أكبر ولا أعلى منه . سبحانه وبحمده . وكذا ضمير الجمع في قوله (أعطيناك) ومعنى أعطيناك: وهبنا لك.

والكوثر: هو النهر الذي أعطاه الله له في الجنة، مشتق من الكثرة أي كثرة الخير ووفرتة، وهذا حاصل في ذلك النهر العظيم الذي أعطيه نبينا ﷺ كما

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس ؓ أن النبي ﷺ قال: "بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف قلت: ما هذا يا جبريل؟. قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك. فإذا طينه - أو طيبه - مسك أذفر".

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها سألتها أبو عبيدة عن قول الله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) قالت: هو نهر أعطاه الله نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه در مجوف، أنيته كعدد النجوم.

وقال بعضهم: إنما فسر الكوثر بالنهر للتمثيل، وإلا فالكوثر معناه: الخير الكثير ومن جملته هذا النهر، ومن جملته القرآن، ومن جملته الشفاعة إلى غير ذلك من الخير الذي اختص به نبينا ﷺ وأعطيه.

وهذا كلام حسن والله أعلم.

وقوله تعالى (فصل لربك وانحر) الصلاة: هي العبادة المعروفة، والنحر: هو النسك أي الذبح، والمعنى: اجعل كل صلاة لك - وكل ذبح - لله خالصة له لا تشرك معه فيها أحد.

فالصلاة اصرفها لربك وحده ولا تصرفها لأحد غيره، لأنه هو المنعم عليك بسائر الخيرات والمان عليك بأنواع المكرمات، وكذلك النسك اجعله لربك وحده لا شريك له، كما أمر نبيه ﷺ بذلك في آية أخرى فقال تعالى (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين).

وإنما خصت هاتين العبادتين من بين سائر العبادات - مع أنه يجب أن تصرف جميع العبادات لله وحده ولا يجوز صرفها لأحد سواه - إنما خصتا بالذكر لأنهما من أفضل العبادات وأجلّ القربات، ولأن الصلاة تتضمن الخضوع في القلب والجوارح لله، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به. وقوله تعالى (إن شأنك هو الأبتّر) الشانئ: هو العدو أو المبغض، والأبتّر: هو مقطوع الذنب، واستعمله العرب لمقطوع العقب والأولاد لأنه إذا مات انقطع ذكّره، أو أن الأبتّر هو المنقطع عن الخير، وهذا كله داخل في مسمى الأبتّر.

والمعنى: أن من أبغض الرسول ﷺ وعاداه فقد كتب الله عليه أنه ينقطع عن كل خير من مال وأهل وكل ما فيه الخير، وهذا عام في من عاداه - ﷺ - في حياته أو من عاداه وأبغض سنته بعد مماته.

وأما هو - ﷺ - فليس بأبتر، بل له كل كمال ينبغي لمخلوق، وهو أفضل الخلق، وسيد ولد آدم، والحاوي لجميع صفات الخير من البشر، وهو المذكور بالخير إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وأما شائئوه ومبغضوه فلن يذكروا إلا بشر لأنهم أشرار فجار، وأي خير في من عادى خير خلق الله ونصب له العداوة والبغضاء، فاللهم إنا نسألك حبك وحب أوليائك ونعوذ بك من كل ما يغضبك ويجر إلى نارك.

يستفاد من هذه السورة

- ١/ عظمة الله وسعة خزائنه، وغناه عن خلقه، وتكريمه لرسوله ﷺ.
- ٢/ شرف الرسول ﷺ ومكانته العالية عند ربه.
- ٣/ الأمر بالتوحيد وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.
- ٤/ فضل الصلاة والنسك يتجلى ذلك في إفرادهما بالذكر دون ما سواهما من العبادات.
- ٥/ ذل وحقارة من عادى رسول الله ﷺ وخسارته في الدنيا وفي الآخرة.
- ٦/ الوعيد الشديد لمن عادى الرسول ﷺ، ومنه الوعيد لمن عادى سنته والمتبعين لمنهجه والداعين إلى اتباعه ﷺ.

تفسير سورة الكافرون

سورة الكافرون مكية، وعدد آياتها ست آيات، نزلت بعد سورة الماعون، ترتبها في المصحف {١٠٩}، وترتيبها في النزول {١٨}.

باب

جاء في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ بها وب (قل هو الله أحد) في ركعتي الطواف.

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر.

وثبت عند أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر

ب(سبح اسم ربك الأعلى) و(قل يا أيها الكافرون) و(قل هو الله أحد).

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ
(٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ
وَلِيَ دِينِ (٦).

قوله تعالى (قل يا أيها الكافرون) الأمر للرسول ﷺ ولجميع أفراد أمته من بعده، يأمرهم أن ينادوا الكافرين . كل الكافرين في كل زمان ومكان . والمقصود به في ذلك الزمان كفار قريش، والكافرون: جمع كافر وهو الجاحد للحق المعاند له، مأخوذ من الكفر وهو التغطية.

وقوله تعالى (لا أعبد ما تعبدون) الـ(لا) نافية، ومعنى أعبد: أتذل وأخضع، وما: موصولة بمعنى الذي، تعبدون: أي تتذللون وتخضعون له.

وهذا أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ بإخلاص العبادة له وحده في كل زمان وآن، وأمر له أيضا أن يتبرأ من دينهم بالكلية.

وقوله (لا أعبد ما تعبدون) أي في هذه الساعة أو في هذا الزمن الحاضر.

وقوله تعالى (ولا أنتم عابدون ما أعبد) الـ(لا) نافية، وأنتم: المخاطب بها كفار قريش. (عابدون ما أعبد) وهو الله وحده، وفي ذلك إقناع للرسول ﷺ من إسلام أولئك الملائكة من قريش، وقد وقع الأمر على ما جاء في الآية فمنهم من قتل يوم بدر كافرا والباقيون ماتوا على كفرهم.

وقوله ﷻ (ولا أنا عابد ما عبدتم) هذا تكرار يفيد التوكيد، أو أن معناه: لن يحصل مني في الزمن المستقبل كما أنه لم يحصل مني الآن، وهذا فيه قطع لطمع كفار قريش في استجلاب الرسول ﷺ إلى صفهم وإغراءه بالمال والجاه والملك ليكف عن دعوته وعبادته المنافية لعبادتهم وشركهم.

وقوله ﷻ (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أي في المستقبل، كما أنه لم يحصل منكم الآن.

وقوله جل شأنه (لكم دينكم ولي دين) أي لكم عبادتكم وطريقكم ومنهجكم في العبادة، وبئس المنهج والدين منهج ودين من يتذلل لحجر أو يخضع لشجر أو يخاف من صنم أو يخشى من وثن.

وقوله (ولي دين) أي لي منهجي وطريقتي وعبادتي المتمثلة في شريعة الإسلام، هذا الدين الحق الذي كل دين سواه باطل، هذا الدين الذي أمر به رب العالمين أنبياءه وأصفياءه وأوليائه من لدن آدم عليه السلام إلى هذا النبي ﷺ الذي أرسى بنيانه إلى قيام الساعة بإذن الله الذي ينصر الحق

ويدفع الباطل وبزهقه، ومن تمسك بالحق علا وإن كان فردا، ومن التزم بالباطل سقط وإن كان أمة.

وفي هذه الآيات أمر للرسول ﷺ بمنازمة كفار قريش وإعلانه البراءة منهم ومن شركهم وهذا كقوله تعالى (وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم، أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون).

يستفاد من هذه السورة

١/ مناداة الكافر بكفره، وهذا فيه تقريع له وتوبيخ جراء قبيح فعله وشنيع صنعه، إذ كفر بربه وخالقه فاستحق أن يهان بهذا النداء، فانظر . رعاك الله . الفرق الواسع والبولن الشاسع بين هذا النداء وبين نداء الله لعباده المؤمنين وتشريفه لهم باسم الإيمان والعبودية ثم اختر ما بدا لك، واعلم أن العاقبة للمتقين.

٢/ التبرؤ من الكفرة وكفرهم والمشركين وشركهم واجب على كل مؤمن ومؤمنة.

٣/ الإشارة إلى أن التوحيد والإيمان والشرك والكفر لا يجتمعان ولا يتفقان، فإما إيمان وتوحيد خالص وإما شرك وكفر بواح وليس بين ذلك مقام.

٤/ بعد المشركين عن هدى الله وشرعه.

٥/ أن المؤمن حق الإيمان لا يمكن أن يتراجع إلى الكفر يوماً من الدهر ما دام أن التوحيد قد استقر في فؤاده والإيمان قد خالط قلبه.

٦/ حب المؤمن لإيمانه واعتزازه به، وغرام الكافر بكفره وتشبثه به إلا أن يشاء الله.

٧/ الفرق الواضح بين الدينين، وكيف لا يكون هناك فرق وهما نور وظلام وهدى وضلال وحق وباطل.

٨/ استدلال الشافعي - رحمه الله تعالى - بقوله تعالى (لكم دينكم) أن الكفر ملة واحدة فورث اليهودي من النصراني والعكس إن كان بينهما نسب أو سبب، لأن الأديان . عدا دين الإسلام . كلها شيء واحد في البطلان، وخالفه في ذلك أحمد وغيره لحديث "لا يتوارث أهل ملتين". وهو الصواب، والله أعلم.

٩/ الرد على دعاة وحدة الأديان وتقاربها، وذلك لأنه لا يجوز الخلط بين الإسلام الحق وغيره من الديانات الباطلة.

تفسير سورة النصر

وتسمى سورة التوديع

سورة النصر نزلت بمنى في حجة الوداع فتعد مدنية، وعدد آياتها ثلاث آيات، نزلت بعد سورة التوبة، ترتيبها في المصحف {١١٠}، وترتيبها في النزول {١١٤}، فهي آخر سورة نزلت من القرآن الكريم.

باب

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح) إلا يقول فيها: "سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي". رواه البخاري.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟. فقال عمر: إنه من حيث علمتم. فدعاه ذات يوم فأدخله معهم فما رئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليربهم، قال: ما تقولون في قول الله تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح). فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا.

وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟. قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال (إذا جاء نصر الله والفتح) وذلك علامة أجلك (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً). فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول. رواه البخاري.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)].

قوله تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح) أي حين يحصل لك النصر على الأعداء بتوفيق الله وفضله، وحين يتم لك الفتح - فتح مكة - وكان ذلك في السنة الثامنة للهجرة، وهو إيذان بتمام نعمة الله على نبيه ﷺ وبثبات دينه وذلك بإسلام أم القرى وقبلة المسلمين،

وقوله تعالى (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) أي وإذا حصل أن جاءتكم الوفود من كل مكان مسلمين لله رب العالمين، أفواجا: أي جماعات كثيرة وجماعات، جاءوك من كل مكان معلنين إسلامهم طائعين مختارين.

قال بعضهم: وهذا في وفود أهل اليمن لما أقبلوا إلى النبي ﷺ فقال: "جاءكم

أهل اليمن، هم أرق قلوبا وألين أفئدة، الإيمان يمان والحكمة يمانية".

والظاهر - والله أعلم - أن ذلك عام في إسلام جميع الناس بعد الفتح وقدم

القبائل وفودا إلى رسول الله ﷺ من شتى بقاع الجزيرة وما حولها.

وقوله تعالى (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) هذا أمر من الله

لنبيه ﷺ أن إذا حصل له ما تقدم، فليسبح الله وليحمده على ما أنعم به

عليه من إتمامه لدينه ونصره على أعدائه، وحصوله على مطلوبه ﷺ من

إيمان الناس وإسلامهم، الأمر الذي كان حريصا - ﷺ - عليه تمام الحرص

حتى كادت تذهب نفسه عليهم حسرات.

وفي ذلك إشارة إلى انقضاء أجله فأمره بالاستغفار، لأنه من المعهود أن

الأمر الفاضلة تختتم بالاستغفار كالصلاة والحج وغير ذلك، وعمره ﷺ كان

فاضلا أيما فضل، كله جهاد في سبيل الله ودعوة وتشريع وبيان لما ينفع

العباد ويعود عليهم بالخير في دينهم ودنياهم، فاستحق بذلك أن يكون

ختامه بالحمد والاستغفار والتوبة والإنابة.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. قالت: فقلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه؟. فقال: "خبرني ربي أنني سأرى علامة في أمّتي فإذا رأيتهَا أَكْثَرْتُ من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتهَا (إذا جاء نصر الله والفتح) - فتح مكة - (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابا)

وفي صحيح البخاري عنها رضي الله عنها أيضا قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي". يتأول القرآن.

وقوله تعالى (إنه كان توابا) التواب: هو الذي لم يزل يتوب على التائبين ويغفر ذنوب المنيبين، فهو التائب على التائبين بتوفيقهم للتوبة، وهو التائب عليهم بقبولها منهم، فسبحانه ما أرحمه بعباد وما أحلمه عليهم.

يستفاد من هذه السورة

١/ حصول التمام مؤذن بالنقص، فكل ما تم في الدنيا نقص، كما قيل لكل شيء إذا ما تم نقصان.

٢/ أن النصر من عند الله لا من عند أحد سواه.

٣/ ذكر ما منّ الله به من إسلام أهل الجزيرة العربية بعد الفتح طائعين مختارين.

٤/ فضل التسبيح والتحميد واستحبابه عند حصول النصر على الأعداء وحصول ما يطلب ويتمنى.

٥/ كون الإستغفار يقال في ختام الأعمال الصالحة يدل على ضعف الإنسان وأنه مهما عمل من عمل فلا كمال لعمله ولا تمام له، إلا بعون الله تعالى ومغفرته ورحمته وفضله.

٦/ إثبات صفة التواب لله رب العالمين، ومنه يستفاد رحمته بعباده ورأفته بالمؤمنين في توفيقهم للتوبة وقبولها منهم.

٧/ إرشاد الله عباده إلى ما فيه خيرهم ونفعهم، وكذا إرشادهم إلى التعلق بخالقهم ومولا هم . ﷻ . في الشدائد وفي الرخاء.

٨/ الإشارة إلى أن النصر لهذا الدين دائم وقائم ما قام به عباد مخلصون لربهم، شاكرين له على نعمه، مستغفرين له في السراء والضراء، عائدين إليه وتائبين سرا وجهارا، معترفين بعجزهم وتقصيرهم، مستمدين حولهم وقوتهم من ربهم القوي المتين، فمتى اتصف بهذا المسلمون تمكن لهم الأمر، واستوسق لهم النصر، ولن يزلوا على أعداءهم ظاهرين حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، ألا فياليت أمة الإسلام يعلمون هذا وبه يعملون.

تفسير سورة المسد

وتسمى سورة تبت

سورة المسد مكية، وعدد آياتها خمس آيات، نزلت بعد سورة الفاتحة، ترتيبها في المصحف {١١١}، وترتيبها في النزول {٦}.

سبب النزول

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد إلى الجبل فنادى: "يا صباحاه". فاجتمعت إليه قريش فقال: "أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونني؟". قالوا: نعم. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا، تباً لك. فأنزل الله ﷻ (تبت يدا أبي لهب). وفي رواية: فقام - أي أبو لهب - ينفض يديه وهو يقول: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟.

باب

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ { تَبَّتْ يَدَا أَبِي
لَهَبٍ } أَقْبَلَتِ الْعَوْرَاءُ أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَزْبٍ وَلَهَا وَلَوْلَةٌ وَفِي يَدِهَا فَهْرٌ وَهِيَ
تَقُولُ: مُدَمَّمَا أَبِينَا وَدِينَهُ قَلِينَا وَأَمْرُهُ عَصِينَا، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ فَلَمَّا رَأَاهَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ
أَقْبَلْتُ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَكَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّهَا
لَنْ تَرَانِي " وَقَرَأَ قُرْآنًا فَاعْتَصَمَ بِهِ كَمَا قَالَ: وَقَرَأَ { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا
بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا } [الإسراء: ٤٥] فَوَقَفَتْ
عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَمْ تَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ ،
إِنِّي أَخْبَرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي . فَقَالَ: لَا وَرَبِّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكَ .
فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ: قَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشُ أَنَّي بِنْتُ سَيِّدِهَا " رواه الحاكم .

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

إِتَّبَتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ
نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ
[٥].

قوله تعالى (تبت يدا أبي لهب وتب) التبت: هو الهلاك والخسارة والخيبة،
ومنه قوله تعالى (وما كيد فرعون إلا في تباب) أي: خسار.

وقوله (يدا أبي لهب) المقصود باليد الذات جميعا لا اليد فحسب، وهذا من
باب إطلاق البعض وإرادة الكل، ومنه بما قدمت يداك أي نفسك.

وأبو لهب: هذا هو عبد العزى بن عبد المطلب عم النبي ﷺ أخو أبيه كان
شديد العداوة للنبي ﷺ، حتى أنه - لما كان النبي ﷺ يدور على القبائل في
الموسم يدعوهم إلى الله تعالى - كان هذا الخبيث يمشي خلفه ويقول: لا
تصدقوه، فإنه كذاب.

سمي بأبي لهب: لإشراق وجهه، وإنما كانت كنيته أبو عتيبة، لكنه كان
وضيء الوجه مشرقه فكني بأبي لهب، ولم يذكر باسمه وإنما ذكر بكنيته

هنا لقبح اسمه إذ عبّد لغير الله، وكذا لما ناسب اللهب الذي في كنيته اللهب الذي سيصلاه قدم ذلك على كنيته الأصلية، والله أعلم.

وقوله (وتب) الثانية معناها تحقق هلاكه وخسارته، فتبت الأولى دعاء عليه، وتبت الثانية إخبار عن مآله وتوكيد لحاله، وهذا كان في زمن حياته ثم هلك على كفره فالى النار وبئس القرار.

وقوله تعالى (ما أغنى عنه ماله وما كسب) أي لم يغن عنه ماله الذي ورثه وجمعه، ولا ولده الذين اكتسبهم شيئاً في الدنيا، ولن يغني عنه ذلك شيئاً في الآخرة لأنه عدو لله ورسوله.

وقوله ﷻ (سيصلى نارا ذات لهب) أي سيدخل نارا عظيمة وتحيط به من كل جانب ولا يجد منها مخرجاً ولا عنها مهرباً، وهذه النار ذات لهب عظيم وشرر كبير كما قال تعالى (إنها ترمي بشرر كالقصر * كأنه جمالت صفر) أعاذنا الله منها.

وقوله ﷻ (وامراته حمالة الحطب) الواو: عاطفة أي ستدخل معه في هذه النار.

وامراته: هي أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان وتكنى بأُم جميل، كانت مع زوجها شديدة العداوة للنبي ﷺ.

وقوله تعالى (حمالة الحطب) قال البخاري: قال مجاهد: حمالة الحطب تمشي بالنميمة، واختار هذا القول الإمام ابن جرير في تفسيره. وقال غيره: كانت تحمل الشوك فتضعه في طريق النبي ﷺ بالليل ليتعثر فيه.

وقال آخرون: هذه الحال لها وهي في النار تحمل الحطب فتضعه على زوجها أبي لهب ليزداد عذابا لأنه كان عوناً لها على عداوة النبي ﷺ، ولكل من هذه الأقوال الثلاثة وجه وجيه والثاني أظهر، والله أعلم.

وقوله تعالى (في جديها حبل من مسد) الجيد: هو العنق، والمسد: طوق من حديد، وهذا كان جزاء عداوتها للنبي ﷺ ومحاربتها له، فلحقها ذل كفرها وعصيانها هي وزوجها إلى يوم القيامة قرآنا يتلى في ذمهما، وعذابا ونكالا لهما في قبريهما، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وبئس المآب.

يستفاد من هذه السورة

- ١/ أن الهلاك والخسارة جزاء من حارب الله ورسوله في الدنيا والآخرة.
- ٢/ أن قرابة النسب من رسول الله ﷺ لا تنفع مع الكفر، كما أن بعد النسب منه ﷺ لا يضر مع الإيمان والتقوى، فالمقياس الأعمال لا الأنساب.
- ٣/ أن المال والولد لا ينفع من عصى الله ورسوله ﷺ لا في الدنيا ولا في الآخرة.
- ٤/ عظمة النار وعظمة لهبها وأنها موعد العصاة والمحاربين لله ورسوله.
- ٥/ أن التعاون على حرب الله ورسوله هلاك في الدنيا والآخرة.
- ٦/ ذل العصيان وأنه يورث العار في الدنيا والنار في الآخرة.
- ٧/ فيها دليل من دلائل صدق نبوة محمد ﷺ، وذلك بالإخبار أن أبا لهب وامرأته سيهلكان على الكفر ويعذبان في النار، أخبر بذلك وهما ما زالا حيان فوقع كما أخبر، وماتا على كفرهما لم يسلما لا سرا ولا جهرا فجزاءهما النار أعادنا الله منها ومما يقرب منها، فسبحان عالم الغيب والشهادة الذي لا يخفى عليه شيء كان ولا سيكون وهو علام الغيوب.

تفسير سورة الإخلاص

وتسمى سورة قل هو الله أحد

سورة الإخلاص مكية، وعدد آياتها أربع آيات، نزلت بعد سورة الناس، ترتيبها في المصحف {١١٤}، وترتيبها في النزول {٢٢}.

فصلها

عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أن رجلاً قام في زمن النبي ﷺ يقرأ من السحر (قل هو الله أحد) لا يزيد عليها، فلما أصبحنا أتى رجل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إن فلانا بات الليلة يقرأ من السحر (قل هو الله أحد) يرددها لا يزيد عليها. وكأن الرجل يتقالها، فقال رسول الله ﷺ "والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن". رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "احشدوا، فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن". فحشد من حشد ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ (قل هو الله أحد) ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبر جاءه من السماء، فذاك الذي

أدخله. ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: "إني قلت لكم: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن". رواه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ "أعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة". فشق ذلك عليهم وقالوا: أينما يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال ﷺ "(الله الواحد الصمد) ثلث القرآن". رواه مسلم.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ(قل هو الله أحد). فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: "سلوه، لأي شيء يصنع ذلك". فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ "أخبروه أن الله ﷻ يحبه".

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم في الصلاة فقرأ بها افتتح بـ(قل هو الله أحد) حتى يفرغ منها ثم يقرأ بسورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلّمه أصحابه فقالوا: إنك تقرأ بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى، فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى. قال: ما أنا

بتاركها، إن أحببتكم أن أؤمكم بها فعلت، وإن كرهتم تركتكم. وكانوا يرونه أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما اتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر فقال: "يا فلان، ما يمنعك مما يأمرك به أصحابك، وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة؟". فقال: يا رسول الله إني أحبها. فقال رسول الله ﷺ "إن حبها أدخلك الجنة". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أقبلت مع رسول الله ﷺ فسمع رجلا يقرأ (قل هو الله أحد * الله الصمد) فقال رسول الله ﷺ "وجب". قلت: ما وجبت؟. قال: "الجنة". رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن غريب.

وعن عبد الله بن خبيب رضي الله عنه أنه قال: خرجنا في ليلة مطر وظلمة شديدة نطلب رسول الله ﷺ ليصلي لنا، فأدركناه، فقال: "أصليتم؟". فلم أقل شيئاً. فقال: "قل". فلم أقل شيئاً، ثم قال: "قل". فقلت: ما أقول يا رسول الله ؟. قال: "قل (قل هو الله أحد) والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات، تكفيك من كل شيء". رواه أبو داود والترمذي والنسائي، وهذا لفظ أبي داود.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ "كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما (قل هو الله أحد) و(قل أعوذ برب الفلق) و(قل أعوذ برب الناس) ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده" يفعل ذلك ثلاث مرات. رواه البخاري.

باب

روى أبو داود عن عبدالله بن بريدة عن أبيه ﷺ أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: "اللهم إني أسألك أني أشهد أنك أنت اله لا إله إلا أنت الأحد (الصمد) * الذي لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد) فقال ﷺ "لقد سألت بالإسم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب". وفي لفظ "لقد سأل الله باسمه الأعظم".

وعن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من قرأ * (قل هو الله أحد) * حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة" رواه أحمد .

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

إِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤).

قوله تعالى (قل هو الله أحد) قل: أمر من الله لنبيه ﷺ ولجميع أفراد أمته من بعده، والمعنى: قل قولاً جازماً به معتقداً له عارفاً لمعناه.

(هو الله أحد) أي الواحد الذي لا ثاني له، واحد في ألوهيته وواحد في ربوبيته لا شريك له ولا نظير ولا ند له ولا مثيل، ولا يشبهه شيء من خلقه، هو الخالق وما سواه مخلوق ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وقوله تعالى (الله الصمد) الصمد: هو السيد الذي يصمد إليه في الأمر لقضائه، قال البخاري: والعرب تسمي أشرافها الصمد، قال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده. وقال ابن عباس: هو الذي يصمد إليه الخلائق لقضاء حوائجهم ومسائلهم.

وقوله (لم يلد) أي ليس له ولد، وذلك لأن الابن من جنس أبيه، وقد تنزه ربنا عن هذا وتقدس فلكمال غناه ليس له صاحبة ولا ولد.

وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وآله قال: قال الله تعالى . يعني في الحديث القدسي "كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولدا. وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفأ أحد".

وقوله تعالى (ولم يولد) أي ليس له أب ولا أم، بل هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهذا أيضا لكمال غناه سبحانه وبحمده.

وقوله تعالى (ولم يكن له كفوا أحد) الكفاء: هو الند أو المضاد والمساوي في المنزلة والقدر، وهذا ممتنع في حق الله تعالى، فليس له كفاء لا في أسماءه ولا في صفاته ولا في أفعاله، تبارك وتقدس وعلا وتنزه أن يشابهه أو يماثل أو يجانس أو يقابل، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

يستفاد من هذه السورة

- ١/ إثبات وحدانية الله وصمدية وقيومية وأوليته.
- ٢/ حاجة الخلائق إلى ربهم وغناه عنهم.
- ٣/ كمال غناه إذ لا صاحبة له ولا ولد ولا أم ولا أب.
- ٤/ ليس لله مثيل ولا شبيه ولا كفاء ولا ند، هو الواحد الذي لا ثاني له ولا شريك ولا نظير، تقدس عن كل ذلك وتنزه.
- ٥/ عظمته وعلوه وقهره فوق خلقه.
- ٦/ بيان أن الله تعالى منزّه عن التوالد فليس له أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد.

تفسير سورة الفلق

وتسمى هي والتي تليها بالمعوذتين ، لأشتمالهما على الاستعاذة بالله رب العالمين
سورة الفلق مكية، وعدد آياتها خمس آيات، نزلت بعد سورة الفيل، ترتيبها
في المصحف {١١٣}، وترتيبها في النزول {٢٠}.

فضلها

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "ألم تر آيات أنزلت الليلة لم
ير مثلهن قط (قل أعوذ برب الفلق) و(قل أعوذ برب الناس) رواه مسلم.
وعنه رضي الله عنه أيضا قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال: "يا عقبة قل". فقلت:
ماذا أقول يا رسول الله؟. فسكت عني ثم قال: "يا عقبة قل". قلت: ماذا أقول
يا رسول الله؟. فسكت عني فقلت: اللهم أرده علي. فقال: "يا عقبة قل".
قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟. فقال: "(قل أعوذ برب الفلق)". فقرأتها حتى
أتيت على آخرها ثم قال: "قل". قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟. قال: "(قل
أعوذ برب الناس)". فقرأتها حتى أتيت على آخرها، ثم قال رسول الله ﷺ
عند ذلك: "ما سأل سائل بمثلهما، ولا استعاذ مستعيز بمثلهما". رواه النسائي.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ "كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذتين وأمسح بيده رجاء بركتها". رواه الشيخان.

وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: تعلقت بقدمي رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أقرأني سورة هود وسورة يوسف. فقال لي رسول الله ﷺ: "يا عقبه بن عامر إنك لم تقرأ سورة أحب إلى الله ﷻ ولا أبلغ عنده من (قل أعوذ برب الفلق)". رواه أحمد.

وقد سبق بعض ما يدل على فضلها في تفسير سورة الإخلاص.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)].
قوله تعالى (قل أعوذ) هذا أمر من الله لنبيه محمد ﷺ ولجميع أفراد أمته، أعوذ: أي ألتجأ وأعتصم وأستجير.

وقوله (رب الفلق) الرب: هو الخالق المالك المدبر، والفلق . بسكون اللام . هو شق الشيء وإبانة بعضه عن بعض، والفلقُ . بفتح اللام . هو الصبح، سمي بذلك لانفلاق الليل عنه وانشقاقه، والمعنى: ألتجأ وأعتصم وأستجير بالله الخالق المالك المدبر لجميع الأشياء ومنها إخراج النهار من الليل الدال على القدرة المطلقة النافذة لله الذي أستعيز به وأستعين.

وقوله تعالى (من شر ما خلق) الشر: هو ما يرغب عنه الكل، وال(ما) موصولة بمعنى الذي، والخلق: هو إبداع الشيء من غير أصل ولا مثيل سابق، والمعنى: أعوذ بالله من شر جميع مخلوقاته.

وإنما أستعيز به . سبحانه . لأنه هو الخالق المالك المدبر لها، القابض على نواصيها، ولا يقع شيء منها ولا لها ولا فيها إلا بإذنه . سبحانه وتعالى . فاستحق بذلك أن يستعاذ به لا بسواه من شرها، لأن غيره لا يملك منها مثل ما يملك هو منها جلّاله.

وقوله ﷺ (ومن شر غاسق إذا وقب) الغسق: أصله الإمتلاء ومنه يقال:

غسق الليل إذا اشتدت ظلمته، والوقب: كالنقرة في الشيء، ووقب: إذا دخل في وقب، ومنه: وقبت الشمس أي غابت.

وفي الآية الإستعانة بالله من شر الغاسق إذا وقب وهو القمر إذا كسف فاسود.

وقال بعضهم: هو الليل إذا اشتد ظلامه، لكن الأول أصح لما جاء عند أحمد وأبي داود والترمذي والنسائي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال: "يا عائشة أستعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب" أي إذا كسف فاسود وهذه ساعة فزع، أو إذا غاب بعد طلوعه وهذه ساعة خوف لدخول الظلام بعد ذهاب النور.

وقوله تعالى (ومن شر النفاثات في العقد) النفث: هو قذف الريق القليل، وهو أقل من التفل، والنفاثات: جمع نفاثة وهن السواحر اللائي يفعلن ذلك ليسحرن الناس، والعقد: جمع عقدة والعقد: هو جمع أطراف الشيء كعقد الخيوط أو الحبال أو نحوها، فهو اسم لكل ما ربط وأحكم ربطه، ومعنى

الآية: أعوذ بالله من شر هؤلاء السواحر اللاتي ينفثن في العقد من أجل إحلال الضرر بالآخرين، ومن عاذ بالله فقد عاذ بمَعَاذ قال سبحانه وتعالى (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله).

وقوله تعالى (ومن شر حاسد إذا حسد) الحسد: تمنى زوال نعمة عن مستحق لها، وربما كان مع ذلك سعي في إزالتها، والحاسد: فاعل ذلك، وفي الآية الإستعاذة بالله من شر هذا الصنف الذي قد يؤثر في أخيه بعين أو نحوها.

والحسد أمر خطير لذا نهى عنه الشرع المطهر كما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث أيام".

والحاسد قد يعين المحسود - أي يصيبه بالعين - فيحدث بذلك ضرر للمحسود، لذا أرشد الله تعالى للإستعاذة من شره.

ومن الحسد ما صنعه اليهود برسول الله ﷺ من سحرهم إياه كما جاء عند أحمد وغيره عن زيد بن أرقم ؓ قال: سحر النبي ﷺ رجل من اليهود قال: فاشتكى لذلك أياما، قال: فجاءه جبريل عليه السلام فقال: إن رجلا من اليهود سحرك، عقد لك عقدا عقدا في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها من يجئ بها. فبعث رسول الله ﷺ عليا رضي الله تعالى عنه فاستخرجها، فجاء بها فحلها، قال: فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال، فما ذكر لذلك اليهودي ولا رآه في وجهه قط حتى مات".

وإنما فعلت اليهود ذلك حسدا من عند أنفسهم عليهم من الله ما يستحقون. وعندما يأمر سبحانه بالإستعاذة من هذه الأشياء فإن ذلك دال على أنها شر، وفي ذلك تحذير لعباده من مقارفتها، وكذا تحذير لهم من شرها، ألا فما أرحم الله بعباده وما أعصى الخلق لخالقهم.

والحاصل أن هذه السورة قد تضمنت الإستعاذة من جميع أنواع الشر عموما وخصوصا وبينت كثيرا من الشر، وحثت على الالتجاء إلى الله منه. فاللهم لك الحمد على ما بينت وعلمت.

يستفاد من هذه السورة

١/ قدرة الله وقوته، وبالمقابل ضعف الإنسان وعجزه، إذ لا قوة له إلا بربه وخالقه ولا راد للشر عنه إلا مولاه سبحانه وتعالى.

٢/ ربوبية الله لكل شيء وأن كل مخلوق فهو لله.

٣/ أن الله قادر على كف شر مخلوقاته، ومنه يستفاد رحمة الله بخلقه إذ أمرهم أن يستعينوا به من شرورهم، فهو أرحم بهم منهم بأنفسهم.

٤/ شرور الليل أكثر من شرور النهار لا سيما عند اشتداد الظلام فتزداد المخاوف، ولذا جاء في الصحيحين عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "إذا كان جنح الليل، فكفوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهبت ساعة من العشاء فخلوهم" ورواه أحمد في مسنده وزاد فيه "فإن للجن انتشارا وخطفة". وسنده صحيح.

٥/ ذكر شر السحرة، وإثبات السحر وأن له تأثير، لكنه لا يكون إلا بإذن الله، وفيه بيان أن النفث في العقد من عمل السحرة أعاذنا الله من شرهم.

٦/ إثبات ضرر الحسد، وبيان شر الحاسد وأنه قد يؤثر في المحسود.

تفسير سورة الناس

وتسمى هي والتي قبلها بالمعوذتين ، لاشتغالهما على الاستعاذة بالله رب العالمين
سورة الناس مكية، وعدد آياتها ست آيات، نزلت بعد سورة الفلق، ترتيبها
في المصحف {١١٤}، وهي آخر سورة في ترتيب المصحف، وترتيبها في
النزول {٢١}.

وقد تقدم في تفسير سورتي الإخلاص والفلق ما يدل على فضلها.

تفسير وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

[قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ
وَالنَّاسِ (٦)].

قوله تعالى (قل أعوذ برب الناس) الأمر للرسول ﷺ ابتداء ولجميع أفراد
أمته من بعده، كما دل على ذلك حديث عقبة السابق في تفسير سورة الفلق
وكذا حديث خبيب في سورة الإخلاص.

وقوله تعالى (أعوذ برب الناس) تقدم في سورة الفلق معنى الإستعاذة والرب.

والناس: كل ما فيه معنى الإنسانية، ومنهم من أدخل الجن في مسمى الناس في عموم الخطاب، لأنه إذا جاز إطلاق الرجال عليهم جاز إطلاق لفظ الناس عليهم.

وقوله (ملك الناس) أي المالك لهم ملكا تاما.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ (إله الناس) الإله: هو المعبود، والمعنى: معبود الناس بحق الذي لا يستحق أحد العبادة إلا هو، لأنه هو وحده الذي خلق وبرأ ودبّر وذراً وهو المالك للجميع.

وقوله سبحانه (من شر الوسواس الخناس) الشر: هو ما يرغب عنه الكل، والوسوسة: هي الخطرة الرديئة، ويدخل في مسمى الوسواس الجنّي والإنسي، والمعنى: ألتجأ بالله وأعتصم به من شر هذا الوسواس.

وقوله (الخناس) الخنس: هو الاختفاء، ومنه قوله تعالى (فلا أقسم بالخنس) كما تقدم.

ومعنى الخناس: أي الشيطان الذي يخنس عند ذكر الله تعالى، وهذا كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، فإذا ثوب بها أدبر".

وقال ابن عباس: الوسواس: إذا ولد خنسه الشيطان، فإذا ذكر الله ﻋﻠﻴﻪ ﺳﻼﻡ ذهب، وإذا لم يذكر الله ثبت على قلبه.

ووسوسة الشيطان قد تكون بأمر عظيم، وقد تكون لإلهاء العبد عن ذكر ربه، فمن الأول ما رواه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أحدنا يجد في نفسه - يعرض بالشيء - لأن يكون حممة أحب إليه من أن يتكلم به. فقال رسول الله ﷺ: "الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة".

ومن الثاني ما تقدم عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديثه السابق.

وقوله تعالى (الذي يوسوس في صدور الناس) الصدر: هو الجارحة المعروفة، وإنما خص . والله اعلم . لأن فيه القلب الذي بصلاحه يصلح الجسد ويفساده يفسد الجسد، وإذا أقبل على الله كان ذلك علامة على إقبال

صاحبه على ربه، وإذا اعرض القلب عن الله وذكره فإن ذلك دال على إعراض صاحبه، ولا ينفع إقبال ما سواه من الجوارح والله أعلم.

وقوله ﷻ (من الجنة والناس) هذا بيان لحقيقة الشيطان الموسوس، فهو إما من الجن، وإما من الناس، والجنّة - بكسر الجيم - هم الجن المخلوقون من نار، الذين لا يُروَن عادة بالعين، وإنما يَروَن الناس ولا يراهم الناس، سموا جنّةً: لأنهم مختفون من الحواس، أخذ ذلك من الجنّ وهو السّتر، أي المستورون عن الحواس فلا يدركون بها.

والتعاون قائم بين كل من شياطين الإنس والجن لإغواء الناس عن الطريق القويم والهدي المستقيم كما قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون).

لذا أمر الله نبيه ﷺ وجميع عباده المؤمنين بالإستعاذة به والإعتصام بجنابه الذي لا يضام، من هؤلاء الأشرار، أعاذنا الله منهم ومن شرهم.

وَإِذَا اسْتَعِذَ بِاللّٰهِ الَّذِي هُوَ رَبُّ الْجَمِيعِ فَإِنَّهُ نَعَمَ الْمَعَاذُ، وَمَنْ كَانَ اللّٰهُ مَعَهُ
فَلَنْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ، وَمَنْ اعْتَصَمَ بِاللّٰهِ عَصَمَهُ اللّٰهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ،
وَلَيْسَ عَلَيْهِ لِأَيِّ شَيْطَانٍ سَبِيلٌ.

يُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ

١/ أنه لا عصمة للعبد إلا باللجوء إلى ربه، وهذا فيه إشارة إلى ضعف
المخلوق وقوة الخالق ﷻ.

٢/ ربوبية الله للناس أجمعين، فلا رب لهم سواه ولا خالق ولا مالك ولا مدبر
إلا هو، وإذا كان كذلك فلا يستحق أن يعبد غيره، ولا أن يلتجأ إلا إليه، ولا
يستعاذ ولا يستعان إلا به.

٣/ ألوهية الله للناس ألوهية حقة وما سواه فألوهية باطلة، مثلها مثل سراب
بقية إذا احتيج إليه لم يكن شيئاً وإنما يخيل أنه شيء بعيد.

٤/ خطر الوسوسة والإشارة إلى أن الشيطان لا يوسوس إلا لبشر، فيجب
الابتعاد عن ذلك كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول

الله ﷻ: "يأتي الشيطانُ أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربك؟. فإذا بلغه فليستعذ بالله، ولينته".

٥/ هروب الشيطان من الذكر وفراره من أهله لأنهم أهل الله، ومن ذكر الله ذكره الله، ومن نسي الله نسيه الله كما قال تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين).

٦/ سيطرة الشيطان على الغافلين عن ذكر الله.

٧/ ذكر أن الشيطان قد يكون إنسياً وقد يكون جنياً، فليكن المؤمن على حذر فقد بين الله الأعداء ووصفهم وحذر منهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

٨/ الإشارة إلى أن من دعا إلى فساد أو شجع عليه فهو من الشياطين.

تفريج الهم بتفسير سورة الفاتحة وجزء عمّ

فهرس تفريج الهم بتفسير سورة الفاتحة وجزء عم

الصفحة	العنوان	الصفحة	العنوان
٣٣٠	تفسير سورة التين	٢	المقدمة
٣٣٥	تفسير سورة العلق	٦	الاستعاذة وما يتعلق بها
٣٤٩	تفسير سورة القدر	١١	تفسير سورة الفاتحة
٣٥٥	تفسير سورة البينة	٣٧	تفسير سورة النبأ
٣٦٥	تفسير سورة الزلزلة	٧٠	تفسير سورة النازعات
٣٧١	تفسير سورة العاديات	١٠٠	تفسير سورة عبس
٣٧٧	تفسير سورة القارعة	١٢٤	تفسير سورة التكوير
٣٨٢	تفسير سورة التكاثر	١٥٠	تفسير سورة الانطار
٣٨٩	تفسير سورة العصر	١٦٣	تفسير سورة المطففين
٣٩٢	تفسير سورة الهمزة	١٨٦	تفسير سورة الانشقاق
٣٩٧	تفسير سورة الفيل	٢٠٣	تفسير سورة البروج
٤٠١	تفسير سورة قريش	٢٢٤	تفسير سورة الطارق
٤٠٤	تفسير سورة الماعون	٢٣٧	تفسير سورة الأعلى
٤١١	تفسير سورة الكوثر	٢٥١	تفسير سورة الغاشية
٤١٧	تفسير سورة الكافرون	٢٦٥	تفسير سورة الفجر
٤٢٢	تفسير سورة النصر	٢٨٨	تفسير سورة البلد
٤٢٨	تفسير سورة المسد	٢٩٩	تفسير سورة الشمس
٤٣٤	تفسير سورة الإخلاص	٣٠٩	تفسير سورة الليل
٤٤١	تفسير سورة الفلق	٣١٩	تفسير سورة الضحى
٤٤٨	تفسير سورة الناس	٣٢٥	تفسير سورة الشرح

قال أبو أيوب عفا الله عنه :

تم بحمد الله تعالى مراجعة وضبطا وتنسيقا في تمام الساعة الثانية عشرة والنصف من منتصف

ليلة الأربعاء ١٥/جمادى الأولى/١٤٣٧هـ في قرية أم الخير - بيش

أسأل الله أن يتقبله مني ويجعله خالصا لوجهه الكريم وأن ينفعني به في حياتي وبعد الممات.